

من الشرق والغرب

على ضفاف بحيرات مصر

بحيرة المنزلة - بحيرة البرلس





بقلم
اللواء عبد المنصف محمود







الجزء الأول

مقدمة

وقفة وذكرى وتاريخ على ضفاف بحيرات مصر الخمس ، هى زيارات ودراسات وملاحظات على ماضى كل بحيرة وحاضرها ، لقــد أشرفت بحكم منصبى على مصلحة مصائد الأسماك سنين طويلة يوم كنت مديرا لمصلحة خفر السواحل وحرس الجمارك ، فوقفت على الكثير من شئون البحيرات والبحرين الأبيض والأحمر ، والصيد والصياد ، فاجتذبتنى اليها واهتممت بها ــ ومن يقترب من البحر والبحيرات والصيد والصياد يجد نفسه منساقا الى التقرب من الله القدير العظيم ــ ففى دنيا الماء نعم تبهر الأبصار وتهدى القلوب ، وهذه الدنيا لا زالت تفتقر الى بحث ودراسة وتعمق لمعرفة أسرار ما تحوى من عجيب الأسرار والمخلوقات ذات الأشكال والألوان والأحجام والقوة والضعف والنمو وسبل التغذية والحياة والتناسل ، ألا انها أمور تحير الادراك !

ان بحيراتنا تحمل فى طياتها تاريخ مصر ، ساهمت بنصيب وحملت العبء فى حقب ، فعاشت معها ولها ، فاتخذ من مواقعها دفاع ، ومن رجالها أبطال حروب ، ومن بطونها غذاء وتموين ، ومن مناخها نعمة للساكنين ، ومن جوها ملاذا لطيور تفد ، وأسماك من البحر تحج فى مواسم محدودة وأيام معدودة ٠

وبحيرة المنزلة بحيرة حديثة نسبيا ، فلم يكن لها وجود قبل القرن السادس بعد الميلاد ، اذ كانت أرضا زراعية يسكنها الانسان ، ويعيش بها الحيوان ، الأليف والمستأنس والكاسر ، فأصابها الله بزلزال ، فتفجرت الأرض بحيرة مترامية الأطراف تحوى أسماكا ، وتأوى طيورا ، ويسكنها عالم غريب ، ويهاجر اليها أفواج تسعى من المحيطات والبحار ، ثم تستقر للتمتع بمزاياها وتبيض وتفقس ، ثم يعود ما نجــا منها ولم تمسك به الشباك ، أو تفترسه الأسماك ، أو ينتهى الى طعــام للبشر(١) ٠ كانت

---

(١) انظر « الاسماك فى مهاجرها » ص ٢٧ من كتاب صيد البحر المؤلف طبعــة الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٥ بالقاهرة ٠

البحيرة أرضا تقوم عليهـــا عواصم ، ومدن ذات صناعة ، وبلاد اشتهرت بالتجارة ، وقرى تجود بالزراعات ، وكانت مصانع الغزل والنسيج بهـا ذات شهرة عالمية تصدر منتوجاتها الى العراق والشـــام وبلاد المغرب فى شمال أفريقيا ، وكانت بها مصانع للأسلحة • واذا كانت هذه البقعة وما يجاورها اختصت وامتازت بهذه الصناعة فما أشبه الليلة بالبـــارحة اذ نرى على مقربة من البحيرة وفى الطريق اليها « المحلة الكبرى » قد ورثت المجد واختصت وامتازت فى صناعة الغزل والنسيج أيضا وتصديره الى أنحاء العالم •

كانت أرض البحيرة فيما مضى من حدود مصر الشرقية اقتحمها الغزاة تارة وطردوا منها تارة أخرى ومما سجله التاريخ فى روعـــة ، أثر رجال البحيرة واستغلالهم لها فهزموا جيوش الصليبيين هزيمة منـــكرة ، وفى أسر لويس التاسع وسجنه بالمنصورة ما يشهد لأهل هذه المنطقة العظيمة العزيزة ، بالبطولة والشجاعة والحكمة والوطنية والايمان وتتلوها معركة أخرى شغلت العالم ولا زالت تشغله وتذهله بانتصار أهل منطقة بحـيرة المنزلةفى جهاتها المختلفة التى تطل على دمياط الباسلة ، وتتصل ببورسعيد المتأججة بالوطنية والتضحية ، وتحد الاسماعيلية وقناتها • هذه المنطقة التى اعتدت فيها الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا وتابعتهما اسرائيل والتى اندحرت قواتهـا وعادت من الغنيمة بالاياب ، تجر ذيول الخيبة والفشـل والعار أمام جيش مصرى وشعب وطنى والله يشهد والتاريخ يسجل أنه نصر مبين ••

وهذه البحيرة لا زالت تخرج وتحمل فى طياتها آثار مدنيـــة غابرة وأسرار حضارة لا زالت محجوبة عنا • وفى كل يوم تهـــدينا تراثا يزيد جديدا الى تراث العالم العلمى •

وبحيرة المنزلة تمدنا بأسماك شهية لا نظير لها ، وترفه عنا ببطروخها، ونستمتع بلحوم طيورها ، ونفيد بمناخها الصيفى الجميل الأمين ، وهى تمتاز بثمرات تمورها المتنوعة وأشجارها المثمرة وأرضها الزراعية وهى مرعى خصيب للماشية وتشتهر بجودة ألبانها ومنتجاتها ، ولا شك ان الله عند بعث الزلزال بعث بنعمه ورحمته ، وعوضنا خير عوض عما فقدنا من أرض وكنا نحن الرابحين •

وقد تعرضت هذه البحيرة فى الربع قرن الأخير الى سياسة تجفيف أجزاء منها لتوسيع الرقعة الزراعية لاضطراد زيادة عدد السكان ، وكنت أعارض هذه السياسة الزراعية بتقارير ومقالات مبينا وجهة نظرى لا سيما عندما عمت هذه السياسة باقى البحيرات ، والآن وبعد أن بدىء فى اقامة السد العالى فقد عدل عن هذه الخطة لأن انشاء السد سيزيد مساحة الأرض

المنزرعة فى الجمهورية العربية المتحدة مليونى فدان فضلا عن زراعة أرض الحياض • وسوف تنشأ خلف السد بحيرة ناصر العظيمة ستعوضنا عما جففنا من البحيرات وتدر علينا أرزاقا وفيرة ، وتضفى على المنطقة سحرا وجمالا ولحما طريا وطعاما شهيا والله على كل شىء قدير •

وسوف تقترن هذه البحيرة بآثار موغلة فى القدم ساهمت فى نقلها الى الجبال المجاورة دول العالم وهيئاتها العلمية تقديرا وتعظيما لشأنها وخوفا عليها من الضياع •

أما بحيرة البرلس فتاريخها أكثر غرابة وضخامة وفخامة ، أو لم ينسب اليهم الأولون خلق الانسان الأول بل قل آدم على وجه التحديد ؟ ففى مياه هذه البحيرة الشمالية نشأت بذرة الكون ، وانها كانت تتولى بعد ذلك خلق الكثير من الآلهة والحكام ، ومنها بزغت المدنية على الديار المصرية ، ومن رحابها انتشرت الحضارة فى كل مكان •

هذه البحيرة الأزلية موضع الالوهية ، ومكان التقديس ومهد آدم أبى البشر ، هاهى اليوم قابعة فى مكانها تتحطم مياهها على رؤوس الصخور، يكاد ينكرها التاريخ ، ويجهلها الانسان ، لعدم الرعاية ، أو القيام بالدعاية، ولم يسعد بها أهلها بالرزق الوفير ، وهى ذات الآثار والعمران فى سالف الزمان ، فسبحان من له العز والدوام •

هذا « نون » الذى فيه « آتوم » الاله الأكبر الذى خلق الآلهة كلها • والذى يفسرون أو يفسر الكهنة خلقه لها ، بأنه اختص وامتاز بالجمع بين خاصتى التذكير والتأنيث ، فمنه وحده يجرى التناسل ، وقد قربوا فهم ذلك للشعوب ، وتمثلوا بالجعل (الجعران) الذى ينسل صفاره دون حاجة الى شريك • ولهذا جعلوا من الجعران الها معبودا • وسواء كان نون مكانا أو جزءا من البحيرة كما زعموا ، أمرا معقولا مقبولا ، أو كان موضع خلاف وتشكك ، فهو رواية رواها التاريخ القديم ودعمها بأسانيد •• ولو أن هذا قيل عن بقعة أخرى فى دولة أخرى ، لعرفت كيف تستغل هذا المكان أو الثوب الذى أضفاه عليه الزمان ، ليكون مزار الوافدين والسائحين ، مواطنين وأجانب ـ وما أجمل أن نعرف هذه البحيرة ونصقل ما وعينا وعرفنا عن هذا الماضى الشائق البديع وحتى لو كان خرافة ، وما أحب الينا أن نعرف كيف كان خيال هؤلاء الأجداد العظام ، وكيف صوروا العقائد وربوا النفوس وحكموا الشعوب عن طريقة الالهة ، بل عن طريق الدين وقبل أن تعرف الأديان وتنزل التوراة والانجيل والقرآن •

فى كل يوم يلذ لنا أن نقلب صفحات وصفحات من كتاب هذا الماضى المجيد فنبعث أفكارنا وتنبهر عيوننا ونزيد احتراما لقدمائنا ونرفعهم كما رفعوا أنفسهم الى مكان العلا والمجد والعظمة التى هم جديرون بها •

ومن شاء عامدا أو غـــير عامد أن ينقب فى تربة هذه البقاع سيرى العجب بل يعثر على الكنوز الباقية ، أخفاها الزمن ليعلنها فى مناسبات يختارها بعد فترات وفى فترات على بعد السنين الطوال ، وبعد أن يضرب الدهر ويغرق فى القدم ، بين الجد والحفيد البعيد ، فهى اذ تخفيه لحكمة تبعثه من جديد شاهدا وذكرى .

هذه المدن التى كانت فيما مضى عواصم الديار ، وبها عروش الآلهـــة والاقيال الكبار ، ومطلع العرفان والأنوار ، تبعث أشعة العقول والابتـكار كما تبعث الشمس أشعتها ووهجها ، فيها نور وفيها نار ، لتكون تجربة تطلع على الأفئدة والأبصار .

هـــذه « بوطو » و « صا » و « بوصير » و « ديسبوليس » وميتليس وغيرها من المدائن القديمة على ضفاف بحيرة البرلس ، وعلى مقربة منها ، كانت عواصم كبرى وكانت كعبة القصاد من نساك وحكام عظـــام ، نأبى نحن أبناء مصر العظيمة العريقة ، الا أن نبخسها حقها ، فلا نعيرها لفتة أكثر مما نعيره لقبر دفن فيه غريب لا نعرفه ، أو مجهول ليس له قريب .. فلا يحرك فى النفس عبرة ، ولا يدعو الى فكر ، ولا يستحق اهتماما .

ولولا كشف الآثار ورجال الآثار ، وما نقرأه من جليل الأعمال ، ونمر به مر الكرام لما سمعنا لهذه البلاد ذكرا ، بل ما كنا عرفنا لها أثرا ولا مقرا ، وكأنى بها قد خشيت ذلك ، وتوقعت حوادث الاهمال والنسيان ، فاحتفظت بحليها وكنوزها وهى آثار مدنيتها ومجدها حتى اذا ما قارنا أنفسنا بأهلها وبعقول سكانها أو قارنت هى نفسها بالعواصم الجدد لم يتطـاول الأحدثون وعادوا يقولون ما أعظم آبائنا هؤلاء الأقدمين .

ولا بد لنا من سياسة جديدة تتابع التطور ، وتساير الأجيال ، تتمشى مع عقليات الناس وثقافتهم ، وما يدخل على قلوبهم الابتهاج والارتيـاح ويسعد عقولهم بالوقوف عن قرب على ما لنا وما كان عليه أسلافنا ، ولا بد لنا من احياء هذه البلدان القديمة أو على الأقل وقف حكم الفناء عن هذه العرائس ، عرائس الدنيا القديمة ، ومباهج أنسها . وان نردها الى البقاء والحياة ففى بقائها وحياتها بقاء لنا وربط للماضى بالحاضر .

انه لا بد من زيارة هذه الجهات واعدادها للزيارات واستغلال شهرتها وماضيها الحافل فى افادتها والاستفادة منها فنسعد قوما قاموا على أطلالها مطمورين وعاشوا منكورين مغمورين .

الآن وقد آذنت الحفريات بكشف الكنوز العلمية والأدبيـــة ، ذات الثروات التى لا تقدر ، فجدير بنا أن نفكر تفكيرا ثوريا جديدا خـدمة

للوطن وابرازا لأمجاده ومن حق الوطن علينا أن نفعل فى غير هوادة لاحياء هذه المنطقة ذات التاريخ الأزلى المنقطع النظير ٠

وهاهي البرلس ٠٠ تروى عن أهلها ما قرأنا وعرفنا عمن أقام بها ومحيطها ما يقرأ الانسان فيحسب مصر القديمة هي مصر فى العصور الحديثة فى تفكير بنيها ، وعاداتهم وأساليبهم العقلية ، والنفسية ، وأثر الذكاء الوفير ، والحذر والتقدير ، والتريث والعزم والهمة والحزم ، لقد كانت أم المدنية مسقط الأضواء ، ومشع الأنوار كلها ، وأرض البداية المجيدة ، ومهد الآلهة والتقديس والعبادة ، فواجبنا يقتضينا وماضينا يلزمنا ويحتم علينا أن نسترجع ذكراها فنسعد قوما توارثوا بحيرة البرلس ومحيطها ٠٠ فنعمل على النهوض بأهلها ورفعتهم لتأخذ مكانها الجدير بها ٠ انها اليوم مرعى صالحا لتربية المواشي ويجيد أهلها تصنيع منتجات ألبانها ويتخذون من نباتات البحيرة البرية صناعات أخرى ليست ذات قيمة كبيرة وهناك الطيور التى تفد على البحيرة فى مواسمها فيهرع اليها الصيادون الهواة والمحترفون لينالوا متعة ورزقا حلالا ورياضة راقية

ولا نستطيع الا أن نذكر قصة أوزيريس الذى قتله أخوه ، وألقى بجثته فى مستنقعات بوطو (البرلس) فهى أسطورة خالدة جاءت قبل الميلاد والتاريخ ٠

هذه أمور تخطر ببالنا اذا ما حاولنا الكتابة عن هاتين البحيرتين العظيمتين وما عاش عليها وفى جنباتهما من أناس وحيوان ومدن وحضارة وعبادة وتاريخ حافل اندثر البعض وبقى البعض كالطلال تدل على الماضى السحيق والقريب فلنعمل لنعيد القديم العجيب ونبرز الخالد للناس أجمعين فقد ورثنا المجد من قديم الزمان وهنا الدليل والبرهان ، وانا لنشعر باهتمام العهد الحاضر وبثورته الفعالة القادرة الى أن تتم الناقص وتكمل الناشيء والله المستعان ٠

المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة
المنزلة

بحيرة المنزلة

مقدمة تاريخية

الصيد فى تاريخ مصر القديم

ما أعظم مصر وما أجمل تاريخها وما أجمل أن نقرأ عنها ـ نحن أبناءها ـ ونعرف أخبارها ، ونتنسم حوادثها ومفاخرها فنعجب بماضيها الحافل ونفخر بمكانتها من أقدم العصور وبرجالها وأبطالها ونتخذ تاريخها المجيد أسوة وقدوة وحافزا .

ان هذه البقعة المباركة من بقاع المعمورة قد حملت المشعل الأول فكان له ضوء واشعاع ينتقل من بقعة الى بقعة ، يفيد البشرية من ثمرات عقول أبناء النيل ، ونتاج جهوده السباقة والفضل باق للأصل والمنبع ، مهما تنكر الزمن وتغيرت الظروف .

وعندما كانت العوالم الحاضرة ما زالت فى ضمير الغيب ، وكانت سائر البشرية فى مدارج التطور الحيوانى البدائى ، وكانت المرافق الاقتصادية والاستغلالية فى مختلف جهات العالم مجهولة ومهملة ، ونواحى العلوم والفنون والآداب لم تدرج بها قدم كان المصريون قد ساروا الأشواط البعيدة فى سبيل التقدم والمدنية وتفاعلوا مع الطبيعة واستكنهوا أسرارها وأخضعوا قواها وانتاجها واستفادوا من شتى ثمراتها سواء فى ميادين العلوم والفنون والآداب أو فى ميادين الحاصلات الزراعية أو الغابية أو الحيوانية أو المائية أو البحرية .

ليس هذا كلاما يروى فيعجب به قارئه ، وانما هو تاريخ محقق ، تكشف عنه الآثار الخالدة ـ نسوقه فى معرض الحديث عن الصيد فى العهود القديمة لأن المصريين كانوا أول من أدرك الثروة المائية واستغلها ونظمها وعرف أهميتها الاقتصادية والغذائية .

فمن بين ما كشفت عنه الحفريات ما ينبىء عن أن المصريين قد أدركوا القيم الغذائية للأسماك وحاصلات البحار والماء قبل أن يولد التاريخ وأنهم قدروا لها أهميتها ونظموا طريقة صيدها بما يتفق وهذه الأهمية ، فقد وجد فى حفريات مصر القديمة لعهد ما قبل التاريخ أدوات صيد وصور لاستعمال الشباك والجوابى فى صيد الأسماك .

ومن أقدم العصور التاريخية نجد دلائل كبيرة وكثيرة على أن السمك كان طعاما لطبقات الشعب المختلفة وذا أهمية غذائية كبيرة فى نظر القائمين بالأمر وله شأنه القومى الممتاز ، فنجد رسوما لمناظر الأسماك على جدران المقابر ، ونقرأ نصوصا كثيرة تتحدث عن السمك ، ونرى أن الأسماك كانت تصرف ضمن التعيينات لجيوش سيتى الأول ، بل أكثر من هذا ينكشف لنا أن صناعة صيد الأسماك بلغت من الشأن العظيم أن الأسماك المحفوظة كانت تصدر من مصر الى سوريا ! .

ولقد كانت الأسماك مادة خصبة للأدب المصرى القديم اتخذ منها تشبيهات واستعارات رائعة ازدانت بها آثار الجدران . نقرأ من بينها أن « قتلى الآسيويين فى موقعة (مجدو) كانوا مطروحين على الأرض كالسمك » ، وفى النصوص الدينية ما ينبىء أن السمك كان يعتبر بركة من عند الله وهبة يمنحها من يشاء ، فنرى أن الاله (بتاح) يعد رمسيس الثانى بالرفاهية والرغد فيقول له : « الثروة والحمد فى طلعتك لأن تحت قدميك الكثير من السمك والطيور » .

ومما يدل على أن صيد الأسماك من الأشياء التى كانت محببة للمصرى منذ أقدم العصور ، ان وجد فى مقبرة أمنحتب الموجودة فى طيبة نص طريف فى رثاء المتوفى الكريم يبرز صفاته أو ما كان يجب أن تكون عليه صفاته ومن بينها هواية الصيد ، كناية عن سمو هذه الهواية حتى يزاولها الملوك ويمدحون بمزاولتها فيقول : « يمر عاجلا بالأباطح . ويجرى وسط العشاش ، ويتسلى بصيد سمك البحيرات الذى تحبه المعبودة (سخت) شريكة السيدة (حب) .. ألا وهو القائد أمنحتب المرحوم » .

ويقرب من هذا ما وجد من النقوش على صندوق مومياء فى مقابر طيبة ، اذ يتحدث عن الأمان من فرس البحر ، وعندنا أن الاهتمام بذكر ذلك انما يدل على مزاولة الملاحة والصيد ، وذكره على تابوت ميت عظيم ان دل على شيء فانما يدل على أن كبار القوم كانت لهم هوايات مائية ، فيقول : « السلام عليك من قبل ساعات الليل التى تضيء من يعظمها . فالأولى هى ساعة المساء ، والأخيرة هى ساعة الفجر ، وهى تحميك الى

الأبد وتمنع عنك حصان البحر (روت) المملوك لسيدها : أنت أيها المتوفى (حتر) بين المتوفى (باسا أسيس) وابن المتوفاة (تايحر) لتكن روحك فى السماء مع الشمس ومع النفوس التى فى المركب السماوية (سكتى) .

وفى علم الفلك الذى ابتدعه المصريون وتفننوا فيه ، كان يرمز الى برج الحوت بهيئة أسماك مجتمعة فى مثلث ومخصصة بعلامة الماء ، والى برج الجدى بشكل نصفه ماعز ونصفه الآخر سمك .

ومن طريف ما يروى أيضا فى هذا الصدد ، أنه قد عثر على رسالة من الزيج من عصر الرمسيسيين تشمل على ثلثى السنة . اذ تبتدىء من ١٨ توت وتنتهى بغرة بشنس ، وهى شرح الطوالع والتحذيرات وأنواع النهى المختلفة عما يجب وعما لا يجب عمله فى مختلف أيام السنة .

ومما ورد بها : لاتأكل السمك ولا تملح منه يوم ٢٢ توت - لا تركب نهر النيل فى ١٩ هاتور - لا يلزم التفسح فى سفينة يوم ١٩ أمشير - اذا اقترب أحد من النهر يوم ٢٤ أمشير فقد الحياة - فى ٢٥ مسرى لا تأكل شيئا خرج من الماء . وهانحن فى القرن العشرين نسعد بمطالعة مثل هذه التنبؤات فى صحف العالمين ، أو ليس الانسان هو الانسان والعرق دساس من قديم الزمان ؟

وكان لصيد الأسماك عند قدماء المصريين طرق عدة : وهى الصيد بالشص، والصيد بالشبكة ، والصيد بالسلال ، وبالخطاف ، وبالنشالة، وقد رسمت الأسماك التى كانت تصاد فى النيل بالشبكة والشص بكل دقة ومهارة ، كل نوع بتفاصيله وخواصه .

كما نقرأ من أخبار الأسرة الثامنة عشرة عن ضرائب كان يؤديها الصيادون الى الدولة ، ونرى ان الصيادين الملحقين بالمعابد كانوا فى بعض الحالات معفيين من هذه الضرائب شأنهم شأن التابعين لخدمة الملك والبلاط ، وغير ذلك من النصوص التى تدل دلالة كبيرة على الأهمية الاقتصادية لمصايد الأسماك فى تاريخ مصر القديم .

وقد ذكر هيرودوت ان مصايد بحيرة موريس ((كانت بالفيوم قديما)) بلغ من انتاجها انها كانت تجلب الى خزائن الملك وزنة من الفضة يوميا عند نهاية الفيضان ، وثلث وزنة يوميا فى باقى أيام السنة . ومؤدى هذا أن الدخل الملكى سنويا من مصايد موريس كان لايقل عن ٤٦٠٠٠ جنيه ، وهذا يدل على غنى المصايد بالسمك من ناحية وعلى اهتمام الدولة بدخلها منها من ناحية أخرى .

وان ما نحت يدنا من الأبحاث والأرقام بصدد الصيد والمصايد فى النهضة المصرية الحديثة التى توجه حكومة الثورة كل عناية لزيادة الانتاج وتنمية الثروة المائية وانشاء الجمعيات التعاونية وانشاء مدارس للصيد والعمل على اسعاد الصياد وعدم استغلاله .. نهضة قامت على قواعد قديمة نظر اليها أجدادنا نظرة ذات أهمية عند النهوض بهذا البلد ونستطيع أن نستشف تحتها ما كان حاصلا فى قديم الزمن .

فقد كانت المصايد المصرية فى ساحل البحر الأبيض المتوسط ـ فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ـ يشتغل بها نحو ٢٧٠٠ رجل و٨٠٠ مركب ، فى حين كانت مصايد المياه الداخلية تضم ٦٠٠٠ رجل منهم ٤٠٠٠ رجل و ٤٠٠ مركب كانوا يعملون فى بحيرة المنزلة وحدها والباقون فى بحيرات الدلتا الأخرى والقنوات الكبيرة والنيل نفسه .

وكانت الحكومة تعتمد فى ميزانيتها اعتمادا كبيرا على موارد الصيد كباب هام من أبوابها ، فكانت تؤلف من المصايد الداخلية مناطق محددة تقطعها لشركات وأفراد نظير جعل معين . ومما يلاحظ أن أغلب الملتزمين فى ذلك كانوا من الأقباط وهم كانوا رجال الاقتصاد والمال ، وكان منهم صفوة المشتغلين بالمسائل المالية والاستغلالية ، وهذا وحده دليل على ما كانت عليه المصايد من أهمية كمورد من موارد الرزق .

وكان هؤلاء الملتزمون يملكون أو يشتركون فى حلقات يباع فيها محصول الأسماك بالمزايدة لتجار التجزئة أو للمستهلكين . وعندما يرتبط الصياد باحدى الحلقات يحصل على ترخيص بالصيد فى مياه معينة ، على أن تباع أسماكه فى تلك الحلقة بالذات ، وكانت الأرباح عادة تقسم بنسبة الثلث للملتزم والباقى للصياد .

ولقد وصل التزام بحيرة المنزلة وحده تحت هذا النظام الى ٦٠٠٠ جنيه سنويا كما ان مجموع الأسماك المصيدة فى مصر زاد على حاجة الاستهلاك المحلى حتى صدرت الأسماك المحفوظة الى سوريا وتركيا واليونان . ومما يؤسف له أن عمليات التصدير من هذا القبيل قد أخذت فى الانقراض حتى أصبح لا وجود لها الى نحو قبيل الحرب الماضية .

ومما هو جدير بالذكر أنه علاوة على مناطق الالتزام فان الآلاف من الفلاحين فى مصر العليا والسفلى كانوا يصيدون من الأسماك ما يكفى احتياجاتهم العائلية مرة أو مرتين كل شهر على طوال السنة ، مما يدل على أن السمك كان فى متناول كل طبقات الشعب ولم يكن مقتصرا على طبقات المترفين كما هو الحال الآن .

ولقد كانت الدلتا أهم مناطق الصيد فى مصر • ومع ان مصايد بحيرة موريس هى التى استلفتت أنظار المؤرخين القدامى ، فانه مما لا شك فيه أن الدلتا كانت أكثر جهات وادى النيل فى محصول الأسماك وفى انتظام حرفة الصيد •

وان كانت القرى والمدن على ضفاف النيل بها صيادوها الا أنه فى الدلتا فقط تتكتل صناعة الصيد ، فنجد جماعات كبيرة تتخصص للصيد مثلما هو حاصل فى منطقة بحيرة المنزلة وبحيرة البرلس حيث يكاد يكون جميع السكان معتمدين فى كسب قوتهم على مصايد الأسماك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

هذه الأحوال الحديثة نوعا ما تلقى ضوءا قويا على ما كان حاصلا فى قديم الأزمان ، وتقوى حجة النتائج التى حصل عليها المؤرخون القدامى فى دراساتهم للشعب المصرى من قديم عهوده •

وقصارى القول أن صيد الأسماك قد لعب دورا هاما فى حياة أهالى الدلتا بصفة خاصة ، من أقدم العصور الى وقتنا هذا ، حتى ان هذه الصناعة قد أوجدت فوارق ثقافية ومعنوية بينهم وبين سكان مصر العليا يدخلها الباحثون فى حسابهم عندما يدرسون الفوارق الأنتروبولوجية بين سكان الدلتا واخوانهم وجيرانهم الجنوبيين من أهالى الصعيد • ومما هو جدير بالملاحظة فى هذا الصدد كثرة الأدباء والشعراء فى الجهات الساحلية والقريبة من المصايد وما يقال من علاقة ذلك بأثر طعام الأسماك وفاعليته فى الناحية الذهنية والنور الفكرى فنجد أن أهالى السواحل يكثر بينهم الشعراء والأدباء ولهم صيت بعيد فى النكتة وسرعة الخاطر •

بين التقديس والتحريم :

تحدثنا عن ان السمك كان بين أطعمة المصريين من أقدم العهود ، وظهر من الحفريات فى المقابر الغنية والفقيرة على السواء فى عهد ما قبل التاريخ ، أن استهلاك السمك كان عاما وليس مقصورا على طائفة دون طائفة •

ومع ذلك نجد ان حالة مناقضة لما تقدم فى أيام المملكة القديمة ، اذ يبدو أن السمك لم يكن من الأطعمة التى يتناولها طبقات الأشراف ، ولو أن القرويين وعامة الشعب كانوا يأكلونه بكثرة •

ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد أنه لما غزا « بيانخى » ملك أثيوبيا أمراء الدلتا لم يقبل أن يمثل هؤلاء الأمراء فى حضرته لأنهم من

أكلة السمك وبذلك ينتهكون حرمة مقدسة لدى الملك واستثنى من هؤلاء الأمراء الأمير « ناملوط » وقيل عنه أنه «نقي نظيف ٠٠ لا يأكل السمك» ٠

ولقد يبدو لنا غريبا من أناس يعيشون بالقرب من مياه عامرة بالأسماك أن يمتنعوا عن أكلها ، ولكن ذلك كان شائعا في كثير من البلاد الأخرى وكان مبنيا على خرافات دينية وغير دينية ، منها ان الرجل الغنى الذى يأكل السمك يجف لبن أبقاره ـ وقد علل المؤرخون ذلك بأن هذه الخرافة مبنية على قانون غير مكتوب مفاده أنه ينبغى على الرجل الغنى الا يغتصب طعام الفقير ٠

ويحدثنا هيرودوت ان الأسماك سواء أكانت من النيل أم من البحر كانت محرمة على الكهنة المصريين ٠ وفى العهد القديم كان كثير من الأسماك له قداسة خاصة فى مصر وخصوصا الأنواع الثلاثة التى كانت تسمى قديما العبيدى ، وثعبان الماء ، والبنى(١) ٠

فكان الامتناع عن هذه الأسماك عاما على أساس اعتقاد دينى يتلخص فى أنه بعد تقطيع أوصال الاله أوزيريس القتيل التهمت هذه الأسماك جهازه التناسلى فكان امتناع الناس عنها على أساس ان بها قوة خطرة وخطيرة ، بل كانت هذه الأسماك تعبد فى بعض المناطق ٠ وقد بلغ من امتناعهم عن صيدها أنه اذا وقعت واحدة منها فى احدى الشباك يلقون بالمصيدة كلها فى البحر مفضلين الا يحصلوا على أسماك مطلقا من أن يكون لهم محصول كبير بينه واحدة من هذه الأسماك النجسة المقدسة ٠

ومع ذلك فانه بمرور الوقت وتقدم المدنية انقضت هذه الخرافات وأصبح للأسماك قيمتها الاقتصادية والغذائية حتى انه كان يقام احتفال سنوى فى اليوم السابع من كل سنة جديدة يقتصر فيه أكل المصريين على أن يتناولوا السمك أمام أبواب دورهم استجلابا للرفاهية فى باقى الاثنى عشر شهرا واعتقادا بأنهم بذلك يرزقون بمحصول وافر من السمك طول العام وكانت هذه الاحتفالات يرأسها الكهنة ويباركونها ٠

ومهما كان ما قيل عن مدى امتناع اشراف المملكة القديمة وبعدهم الكهنة عن أكل الأسماك وتأثير ذلك فى الحالة الاقتصادية للمصايد المصرية، فانه فى عهد اليونان والرومان قبل ذلك نرى ان الديانة التى كانت شائعة تنص على أكل السمك وتحدد استهلاك أنواع معينة منه فى المناطق المختلفة ٠

---

(١) الترجمة العربية [illegible] ٠

سفن الصيد وطرقه فى العهد القديم :

كانت السفن التى تستخدم فى الصيد فى العهــد القديم تصنع من أعواد البردى المربوطة بالحبال ، وبالرغم مما ثبت من كثرة استعمال ألواح الخشب فى بنــاء السفن منذ فجر التاريخ فقد ظل كثير من الصــيادين يستعملون قوارب البردى وكانت شائعة فى مصر السفلى على الأخص ٠

وينسب بلوتارك كثرة اســتعمال زوارق البردى وتفضــيلها على القوارب الخشبية الى خرافة كانت شائعة فى ذلك الحين ، تتلخص فى أنه على أثر قتل أوزيريس أخذت ايزيس تبحث عن الاله الذبيح بوساطة سفينة مصنوعة من البردى ومن ذلك ساد الاعتقاد بأن الذين يستعملون مثل هذه القوارب لا تهاجمهم التماسيح خشية من الآلهة أو احتراما لها ٠

الا أننا نرى أن الظروف هى التى كانت تقضى على الصياد بتفصيل قوارب البردى فان بناء القارب الخشبى كان أصعب وأعسر من عمل قارب البردى ، والقارب الخشبى كان آخر الأمر أقل صلاحية للملاحة فى المياه الضحلة والمنحنيات الغاصة بالنباتات من قارب البردى الذى كان يستطيع الصياد أن يحمله على كتفه ويتخطى العوائق بسهولة ٠

على أنه منذ عصر ما قبل التاريخ كان المصرى يصنع زوارقه بطريقة ساذجة وذلك بربط حزم من سيقان البردى بعضها ببعض ، وكان يصنع نماذج طينية لهذه الزوارق ويضعها فى المقابر حتى يتمكن المتوفى من أن يسبح بها فى عالم الآخرة ٠ كما كان يعمل مدة حياته فى مياه البحيرات والمستنقعات ٠

وبالرغم من بساطة تركيب قوارب البردى فانهــا كانت تصنع على طرازات مختلفة ، ولا زالت هذه الطرازات ترى فى السودان حيث تستعمل قوارب البردى ، بل انها كانت موجودة فى صعيد مصر منذ أكثر من قرن، وقد شاهدها وتحدث عنها الرحالة الفرنسى دينون ٠

وهذه الزوارق الخفيفة كانت شائعة الاستعمال فى عهد الدولة القديمة وقد كانت صغيرة الحجم لا تسع أكثر من شخصين وبعضها كان أدق صنعا، وكان يحمل الواحد منها ثورا ٠

وهذه الزوارق كانت تسير بالمدرة والمجداف وكانت صالحة للسير فى المياه الهادئة ٠ فكان يستعملها صيادو الأسماك وصيادو الطيور فى المستنقعات كما كانت تستعمل لنقل الأبقار يوميا ٠

أما فى مياه النيل التى كانت غالبا سريعة شديدة التيار فان هده الزوارق البردية لم تكن تستعمل الا نادرا وكذلك لم تكن لتستعمل فى نقل المسافرين أو الحيوانات أو البضائع الثقيلة الوزن ٠

فكان يلزم لذلك كله سفن من الخشب الصلب ، والثابت انه منذ عصر ما قبل الاسرات كانت تصنع فى مصر مثل هذه السفن ، ولا أدل على ذلك من الرسوم التى وجدناها مع الأوانى الفخارية التى يرجع عهدها الى عصر نقادة ، فضلا عما نصادفه أحيانا فى مقابر عهد الدولة القديمة من مصانع للسفن تعمل بكل نشاط اذ نشاهد على الجدران عددا كبيرا من النجارين يشتغلون حول قفص السفينة الذى قد تم بناء جانبيه ، كما نرى تجميع الألواح ونشاهد الثقوب التى نقرت لتلبس فيها القطع الثانوية وتنسيق حواف السفينة ومؤخرتها ليركب فيها المجاديف والسكان (الدفة) .

وقد كانت السفن المصرية فى عهد هيرودوت تصنع من الخشب المصرى ، فيقول : « كانت سفن نقلهم تصنع من خشب السنط المصرى الذى كان يشبه الجلجان السيرينى (برقة قديما) الذى يستخرج منه الصمغ فكان يقطع السنط ألواحا يبلغ طول الواحد منها ذراعين ونصف ذراع .

ويصف هيرودوت طريقة صنع السفن قائلا : « وهاهى الكيفية التى كانت تركب بها السفن : توضع عوارض طويلة متقاربة ويركب فيها ألواح طول الواحد ذراعان وبعد أن يتم صنع قفص السفينة بهذه الكيفية، كانت تربط حافتا السفينة بلوح يركب فوق العوارض ، وكانوا لا يسندون جانبى السفينة بقطعة خشب معين ذات فرعين بل كانوا يقلفطونه باللحمات التى فى داخل السفينة بالبردى وكانوا يصنعون دفة واحدة تثبت فى سهم قاعدة السفينة ، أما السارية فكانت تصنع من خشب السنط والشراع من البردى » .

ويقول أيضا : « وهذه السفن كان عددها عظيما وبعضها كان يحمل ما وزنه آلاف من التلنتات (نصف القنطار) » .

ويشاهد فى مقبرة (تى) القارب الذى تم صنعه يسير على النيل ، فنرى الشراع منتشرا ومعلقا فى عارضة السارية كأنه قب الميزان كما نشاهد جماعة من المجدفين فى وضع منتظم ، وكان لابد من ثلاثة رجال على الأقل فى مؤخر السفينة لادارة السكان .

الصيادون فى العهد القديم :

لما ذكر هيردوت مختلف طبقات الشعب المصرى بحسب أهميتهم لدى الشعب والدولة وبحسب أسبقيتهم فى درجات الجاه والمجد والاعتبار بدأ بالكهنة وانتهى بالفلايكية وكان يتبع فى ذكرها الترتيب التنازلى وقد عد الصيادين من ضمن الفلايكية ، ومع ذلك نرى ان الصيادين كانوا لهم

الطبقة الدنيا من الناس ونجد سخرية بهم فى كثير من النصوص الهزلية ولا شك ان ذلك راجع الى أثر الكهنة فى العهد القديم عندما كانوا يعتبرون صيادى السمك منبوذين ، يصطادون السمك الذى أكل الاله أوزيريس كما أوضحنا .

وقد قرر المؤرخون ان الصيادين المصريين من أقدم العصور قد استعملوا الحربة والنشاب والبوص والسنار والجوابى والطراحة والجرافة، وتكاد تكون هذه الأدوات فى أشكالها وطريقة استعمالها مشابهة لمثيلاتها فى العصر الحديث .

وكان معروفا فى مصر من العهود القديمة طريقة تمليح السمك المجفف على غرار المعروف الآن بالبكلاه ، وقد وجد فى الآثار القديمة رسوم تبين تفاصيل هذه العملية وكيفية القيام بها كنوع من أنواع الصناعة المصرية .

وكان الصيادون يزاولون أيضا مهنة صيد الطيور ، لأن المياه التى كانوا يعيشون على مقربة منها ـ كما هو الحال الآن ـ يؤمها الألوف المؤلفة من الطيور البرية والبحرية ويكثر تواجد هذه الطيور فى الفصل نفسه الذى تشح فيه أسماك المصايد .

وكلتا العمليتين (عملية صيد الطيور وعملية صيد الأسماك) كانتا مرتبطتين تمام الارتباط لدرجة ان هناك كلمة مصرية واحدة تطلق على (صيد السمك أو الطيور المائية) .

وكان الصيادون يتصرفون فى محصولاتهم فى الأسواق الصغيرة التى يؤمها القرويون من أقدم العهود لبيع وشراء حاجياتهم ، وقد وجدت صور ورسوم تمثل هذه الأسواق وما يجرى فيها من مساومات البيع والشراء الى غير ذلك .

وملابس الصيادين كانت على أبسط ما تكون ، ولم يكن هناك فرق كبير بينهم وبين القرويين على وجه العموم ، وكانوا يعيشون فى أكواخ من البوص ، وقد ظل رعاة الغنم فى الدلتا يسكنون مثل هذه الأكواخ حتى عهد الرومان .

والصور التى عثر عليها للصيادين تمثلهم عراة أو بلباس قصير أو ليس عليهم الا مئزر يغطى الحقوين .

ضرائب على الصيد :

ذكرنا فى المبحث السابق ان الصيادين فى أيام الأسرة الثامنة عشرة كانت تفرض عليهم ضرائب يؤدونها للدولة ، وعرضنا الى ما ذكره

هيرودوت عن دخل خزائن الملك من بحيرة موريس ، وتدل الدلائل على أن ضرائب الصيد قد اندمجت فى آخر أمرها فى متحصل الاقطاعات والالتزامات ، وخرجت عن كونها مصايد بالذات بقدر ما هى قطعة من الأرض تشمل مصائد أو غير ذلك ويؤخذ الخراج عنها جملة بحسب دخلها أو بقيمة انتاجها من أى نوع من أنواع مختلفة .

ولعل النظام الأخير هو ما وجده العرب وساروا عليه بعد فتحهم مصر ، ونستطيع أن نستشف منه ما كان حاصلا قبل عهودهم .

قال المقريزى : « وكان من خير أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها ، واستيطانهم وأهاليهم فيها ، واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا ، وانقياد القبط الى اظهار الاسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين ان متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى كانت تتهيأ قبالة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك ، فاذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمها الى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى ابانه على أقساط ، ويحسبون من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفعه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بضرائب مقدرة فى ديوان الخراج » .

ولكن لم يلبث العرب أن تنبهوا الى الأهمية الاقتصادية والمالية لمنتجات المصايد وما يمكن أن تدر على خزينة الدولة من خير .

قال المقريزى : « أعلم ان مال مصر ينقسم قسمين : أحدهما يقال له خراجى ، والآخر يقال له هلالى فالمال الخراجى ما يؤخذ مسانهة(١) من الأراضى التى تزرع حبوبا وعنبا ونخلا وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف ، والمال الهلالى عدة أبواب أحدثت شيئا فشيئا . وأول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد بن مدبر ، ولى خراج مصر بعد ستة وخمسين ومائتين فانه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب ، ابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرة بعده لا تنقض فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس وقرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعى ، وقرر

---

(١) من كل سنة.

على ما يطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد الى غير ذلك • فانقسم حينئذ مال مصر الى خراجي وهلالي •

وقد صير للمصايد ديوانا واحتشم من ذكر المصـــايد وشناعة القول فيها فأمر بأن يكتب في الديوان خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك ، فاستمر ذلك ، وكان يندب لمباشرتها مشد وشهود وكاتب الى عدة جهات مثل خليج الاسكندرية ، وبحيرة الاسكندرية ، وبحيرة نسترو (بالبرلس) وثغر دمياط ، وجنادل ثغر أسوان ، وغـــير ذلك من البرك والبحيرات فيخرجون عند هبوط النيل ورجوع الماء من المزارع الى بحر النيل بعد أن تكون أفواه الترع قد سكرت وأبواب القناطر قد سدت عند انتهاء زيادة النيل كما يتراجع المـــاء ويتكاثف مما يلي المزارع • ثم تنصب الشباك وتصرف المياه فيأتي السمك وقد اندفع الماء الجارى فتصده الشباك عن الانحدار مع الماء ، ويجتمع فيها فيخرج الى البر ويوضع على أنخاخ ويملح ويوضع فى الأمطار فاذا استوى بيع وقيل له الملوحة والصير ، ولا يكون ذلك الا فيما كان من السمك في قدر الأصبع فما دونه ويسمون هـــذا الصنف اذا كان طريا (بالبسارية) ، ويصاد من بحيرة نسترو وبحـــيرة تنيس وبحيرة الاسكندرية أسماك تعرف بالبورى •• وقد بطل فى زمننا اليوم أمر هذه المصايد الا من بحيرة نسترو بالبرلس وبحيرة تنيس بدمياط فقط ، وهاتان البحـــيرتان تجريان في ديوان خاص وهما مضـــمنتان ، وما يخرج منهما من البورى وغيره من أنواع السمك فللسلطان ، لا يقدر أحد أن يتعرض لصيد شيء منه الا أن يكون من صياديهما القائمين بالضمان وما عدا هاتين البحيرتين من البرك والأملاق والخلجان فليست للسلطان »

نخلص من هذا كله الى أن مصايد الأسماك قد تراوحت بين الاعفـاء والتقييد فنراها في عهد الأسرة الثامنة عشرة فرضت عليها ضرائب يؤديها الصيادون ، ثم نراها بعد ذلك لم تعد لها أهمية فأعفيت واعتبرت من ضمن الأراضي المقطعة التي تعطى بالتزام الخراج ، ثم نراها فى آخر الأمر عادت الدولة تستغل انتاجها ، وبعد ذلك نراها أعفيت من جديد الا فيما يختص ببحيرة البرلس وبحيرة المنزلة فقد استولت عليهما الخزانة العامة تتصرف فى أمرهما بما يعود عليها بالدخل المجزى ، ولقد بلغ ايراد الدولة فى سنة ١٨٣٣ من « عوائد أسماك بحيرة المنزلة » ٢٥٠٠٠٠ فرنك أى عشرة آلاف من الجنيهات •

وقد ظلت هذه الحالة الى العصر الحديث فكانت بحيرتا المنزلة والبرلس مصدر ايراد كبير للدولة بل ان بحيرة المنزلة كانت لهـــا مصلحة خاصة تديرها وتتولى شئونها الى أن عدلت أنظمة رسوم الصيد كما هو جار الآن•

الفصل الأول

بحيرة تنيس بين أنقاض الزلازل

من خليج بيـــلوز ..

فى شمال مصر ، ومن رأس دمياط غربا الى رأس كاسياس بالقرب من فم بحيرة البردويل شرقا ، يمتد خليج بيلوز القديم ويعرف باسم خليج الطينة أو التينة وطوله نحو ٧٥ ميلا وعمقه نحو ١٤ ميلا وهو فى الواقع منقسم الى خليجين صغيرين ، يقسمهما رأس صغير متقدم فى البحر عند بورسعيد فمن الجهة الشرقية خليج بيلوز بالذات « خليــج الطينة أو التينة » ومن الجهة الغربية خليج الديبة المكون من ســـاحل بحيرة المنـــزلة .

ويتكون شاطىء هذا الخليج من شريط ضيق لايزيد عرضه عن ١٠٠ ـ ١٥٠ مترا يرتفع عن منسوب الأرض بنحو متر ونصف متر ، وتقـــع خلف هذا الشريط الى شرق رأس كاسياس سلسلة من التلال الرملية تنمو عليهـــا غابات قديمة من شجر الأثل والبوص والى غرب رأس كاسياس بحيرة المنزلة التى تمتد من مدينة بيلوز القديمة الى مدينـــة دمياط بطول قدره ٨٤ كيلو مترا وبشكل مستطيل قطره فى اتجاه خط دمياط ـ القنطرة نحو ١٣٥ كيلو مترا .

هذه هى بحيرة المنزلة الآن أو بحيرة تنيس فيما مضى من الزمان — تلك البحيرة التى تصل الماضى بالحاضر ، وتطوى فى أعماقها حقبات من تاريخ مصر حافلة بعجائب الدهر وغرائبه .

فى ظلال النخيل والأعناب ..

قبل القرن السادس الميلادى لم تكن هناك بحيرة بتلك المناطق ، فلا بحيرة تنيس ولا بحيرة المنزلة وانما كانت تلك المنطقة أراضى زراعية خصبة لاتكاد تضارعها فى بلاد مصر كلها أرض أخرى فى جودة الهواء ولا فى الخصب ولا الغنى ، تنبت نباتا طيبا موفور الثمار من النخيل والأعناب والقمح وسائر الشجر ، ترويها فروع من النيل لاتنضب وهى فرع النيل البيلوزى . وفرع النيل التنيسى . وفرع النيل المنديسى ، وكلها كانت تصب فى البحر الأبيض المتوسط وتعرف آثار فتحاتها باسم البواغيز .

وبالقرب من كل هذه البواغيز كانت توجد مدينة مصرية زاهرة لها شهرة خاصة معروفة بها فى العالمين كما هو الحال الآن فى مدينةدمياط أو مدينة رشيد اذا اكتسبت كل منهما من موقعها على مصب فرعالنيل شهرة خاصة ومقومات معينة :

١ — فكانت مدينة بيلوز التى بلغ عدد سكانها فى العصر الفرعونى مائة الف نسمة تقريبا تقع بالقرب من مصب فرع النيل البيلوزى ،وقد ذكرت بيلوز فى التوراة باسم «سين» وعرفت فى العصر المسيحى باسم برما أو برمون ، وفى العصر العربى باسم فرما أو الفرماء ، وقد اندثرت. ومكانها الآن تل الفرما شرقى بور سعيد .

٢ — وكانت مدينة صان واقعة على فرع النيل التانيسى . وقدذكرت صان فى التوراة باسم « صو عن » وعرفت فى العصر اليونانى باسم تانيس ، وهى معروفة الآن باسم صان الحجر بمركز فاقوس محافظة الشرقية . وكانت صان عاصمة من عواصم الهكسوس أثناء حكم الاسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، كما أنها غدت عاصمة القطر المصرى من سنة ١٠٩٠ الى سنة ١٩٤٥ ق.م تحت حكم الأسرة الواحدةوالعشرين لمدة مائة وخمسة وأربعين .

وكان فرع تانيس يصب فى البحر الأبيض المتوسط فى الفتحة المعروفة قديما باسم بوغاز تانيس وحاليا باسم أم فرج نسبة الى قلعة قديمة كانت موجودة بهذه الجهة على بعد عشرين كيلو مترا شرقى بورسعيد .

٣ ـ وكانت منديس على فرع النيل المنديسى . وكان هذا الفرع يصب فى الفتحة المعروفة قديما باسم بوغاز منديس وحاليا باسم فم الديبة نسبة الى قلعة قديمة كانت موجودة هناك . وعلى أثر ارتدام هذه الفتحة أخذت الفتحة المجاورة لها تتسع حتى وصل عرضها الى ٣٨٥ مترا وهى المعروفة باسم بوغاز أشتوم الجميل .

الحدائق الغارقة ..

هذه المنطقة الفيحاء الغناء التى نرى حديثا عنها فى كل تاريخ واشادة بغناها وثرائها فى كل كتاب ، واعجابا بها يصل أحيانا الى حد المبالغات الخارقة ، هذه المنطقة السعيدة المسعدة عصفت بها الطبيعة وكتب عليها الغرق واختفت جناتها وآثارها ، وتكونت على أرضها بحيرة مترامية الأطراف ، تطوى فى أعماقها مدائن الحدائق . هذه هى بحيرة تنيس التى عرفت فيما بعد باسم بحيرة المنزلة .

وذلك أنه فى أثر الزلازل التى حدثت فى أواخر القرن السادس للميلاد ، أنخفضت أراضى تلك المنطقة فطغى عليها البحر واقتحم كثبان الرمل التى كانت تفصل بينه وبين الأراضى الزراعية ، وأخذت المياه تغشاها عاما بعد عام حتى غمرت المنطقة كلها وعدت على ماكان بها من حقول ومن قرى فلم ينج منها الا ماكان عاليا لاتناله المياه ، ولم تخلف على وجه البحيرة الناشئة الا عددا من الجزائر .

وأعظم مانجا من بلاد هذه المنطقة مدينة تنيس الشهيرة وكانت عظيمة المبانى متسعة الأرجاء عامرة بالتجارة والرزق واشتهرت بالمنسوجات الدقيقة .

وكان فى تلك المنطقة مدائن أخرى اشتهرت ببراعة صناعها فى النسيج مثل تونة ، وكانت تساهم مع تنيس وشطا فى دقة المنسوجات وجودة أنواعها وقد اندثرت تونة ومكانها اليوم جزيرة ببحيرة المنزلة تسمى كوم ابن سلام على بعد أربعة كيلو مترات شرقى بلدة المطرية .

وهكذا نشأت بحير المنزلة ، وكان حادث الزلزال فى القرن السادس للميلاد فاتحة صفحة جديدة فى تاريخ تلك المنطقة حولتها من نوع من المدنية الى نوع آخر مختلف كل الاختلاف ، فأخذت تبيد صناعات المنسوجات الدقيقة البارعة كما تزول النخيل والأعناب الفارعة وتتخذ الأسماك والطيور المائية مكانها نحو ثروة اقتصادية من نوع جديد ، وبدل الله أقواما بأقوام ، أصبحت لهم سماتهم الخاصة وأوضاعهم الذاتية بل مدنيتهم المعينة المحددة والله على كل شىء قدير .

الفصل الثانى

الصناعات والمدن البائدة على ضفاف البحيرة

مدينة تنيس ...

قال المسعودى فى كتابه مروج الذهب أن تنيس كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة ، وكان بها الجنات والنخل والكروم والشجر والمزارع وكان فيها مجار على ارتفاع من الأرض ، وكان الماء منحدرا اليها لا ينقطع عنها صيفا ولا شتاء ، وسائره يصب فى البحر من جميع خلجانه ومن الموضع المعروف بالأشتوم ولم ير الناس أحسن منها ولا أحسن اتصالا من جناتها وكرومها .

فلما مضت لدقلديانوس من ملكه مائتان واحدى وخمسين سنة هجم البحر على بعض المواضع التى تسمى بحيرة تنيس فأغرقه وصار يزيد كل عام حتى أغرقها جميعها ، فما كان من القرى التى فى قرارها غرق ، وأما الذى كان منها على ارتفاع من الأرض فبقى ، منه تونة وبورا وبعض المواقع الأخرى التى هى جزائر فى البحيرة الآن وكان استحكام غرق هذه الأرض كلها قبل أن تفتح مصر بمائة سنة .

وقال المسعودى أيضا انه كان لملك من الملوك التى كانت دارها الفرما « وسيأتى الكلام عنها » مع أركون من أراكنة البلينا وما اتصل بها من

الأرض حروب عملت فيها خنادق وخلجان فتحت من النيل الى البحر يمتنع بها كل واحد من الآخر ، فكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الأرض .

سقناكل هذا – وان كان فيه تكرار لبعض ماذكر فى الفصول السابقة لنحدد نقطة التحول فى تاريخ هذه المدينة العظيمة .

وقد قال المقريزى فى خططه أن هذه المدينة سميت بتنيس بن حام بن نوح ويقال بناها قليمون من ولد أتريب بن قبطيم أحد ملوك القبط القدامى وكان بينها وبين البحر الشىء الكثير ، وحولها الزرع والشجر والكروم والقرى ومعاصر الخمر ، وكان بها عمارة لم يكن بأحسن منها وبنى للملك فى وسطها مجالس ونصب عليها قباب زينت بأحسن الزينة والنقوش ، فاذا بدأ النيل يجرى انتقل الملك اليها فأقام بها الى النوروز ثم رجع وكان كل ملك يأتى ، يأمر بعمارتها والزيادة فيها ويجعلها له متنزهاً .

ويقال أن الجنتين اللتين ذكرهما الله فى كتابه العزيز اذ يقول : «واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا وكان له ثمر ، فقال لصاحبه وهو يحاوره انا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ، قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا ، ولولا اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة الا بالله ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا ، فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا ، وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ..»

قيل هاتان الجنتان كانتا لأخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع فى تلك المنطقة فأحسنا عمارته وهندسته وبنيانه ، وكان الملك يتنزه فيها ويؤتى منهما بغرائب الفواكه والبقول ، ويعمل له من الأطعمة والأشربة مايستطيع ، وكان أحدهما كثير الضيافة والصداقة ، ففرق ماله فى وجوه البر ، والآخر ممسكا يسخر من أخيه اذا فرق ماله ، وكلما باع من قسمه شيئا اشتراه منه حتى بقى لايملك شيئا وصارت جنته لأخيه واحتاج الى سؤاله فانتهره وطرده وعيره بالتبذير وقال له : قد كنت أنصحك بصيانة مالك فلم تفعل ، ونفعنى امساكى فصرت أنا أكثر منك مالا

ولدا ، وولى عنه مسرورا بماله وجنته . فأمر الله البحر فركب تلك القرى واغرقها جميعا فأقبل صاحبها يولول ويدعو بالثبور ويقــول « ياليتنى لم أشرك بربى أحدا . قال الله جل جلاله « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله » ـ صدق الله العظيم .

وقد كانت تنيس موضــع اعجــاب المؤرخــين ومحل حديثهم فرووا عنهــا المعجب والمطــرف فقــد قال المســعودى فى كتاب أخبــار الزمان أن تنيس كانت مدينــة عظيمــة لهــا مائة باب وفيها آثار كبــيرة للأوائل وكان أهلهــا مياســير أصــحاب ثراء ، وأكثرهم حاكة وبها تحــاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا وكان للسلطان بها مناسج خاصة به تنسج فيها الأثواب له وحده ، وكان الثوب لعمامته تبلغ نفقته ٤٠٠٠ دينار وكان يصنع للخليفة ثوب يقال له البدنة لايدخل فيه من الغزل سدى ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمةلا تحوج الى تفصيل ولا خياطة ، وتبلغ قيمته ألف دينار وكان مما يصنع فى تلك المدينة نوع من النسيج اسمه «بوقليون» من الحــرير المتغــير اللون الزاهى اللمعــة حتى قيــل أنه كان يبـدو فى الوان مختلفة فى كل ساعة من ساعات النهار .

وكانت تجارة تنيس من الأقمشة مع العراق وحده تبلغ من عشرين الف دينار الى ثلاثين الفا . وكانت صناعة السلاح الصلب من الصناعات التى كادت تبلغ فى تنيس مبلغ منسوجاتها . فكانت على ذلك مدينــة من أعجب المدائن وأعظمها شأنا حتى أن امبراطور الروم طلب أن يأخـذ تنيس ويعوض عنها بمائة مدينة من مدائن دولته فلم يجب اليه طلبه .

وقال صاحب كتاب نشق الازهار أن تنيس طيبة الهواء يندر بهــا الأمراض الوبائية ويقال أن من يدفن بها الأموات لايبلى جسمه الا بعـد بطء ويبقى شعره . وطول المدينة من الجنوب الى الشمال ٣٢٢٧ ذراعا كبيرة وعرضها من الشرق الى الغرب ٣٠٨٥ ذراعا كذلك وطول سورها ٣٢٧٠ ذراعا ولها ١٩ بابا مصفحة بالحديد الثقيل وبها جامع طوله ١٠٠ ذراع وعرضه ٧١ ذراعا ويوقد فيه كل ليلة ١٨٠٠ قنديل وبها ١٦٠ جامعا أخرى وكلها ذات منائر وبها ٧٢ كنيسة و ٣٦ حماما و ١٠٠ معصرةزيت و ١٦٦ طاحونا ومخبزا و ٥٠٠٠ منسج لنسج الأقمشة .

وقيل أن تنيس كان لايزال بها الى القرن العاشر آثار قديمة سوى ماكان بها من المساجد والكنائس ، وقد زارها الرحالة الفارسى «ناصرى خسرو » فى عام ١٠٤٧م فعجب مما رآه من ثرائها ورواج اسواقها . فهو يذكر انه كان بها ١٠٠٠ متجر و ٥٠٠٠٠ ســاكن وكانت فى مراسى

جزيرتها الف سفينة ولم يكن بها شيء من الزرع بل كانت تعتمد فى كل أقواتها على تجارتها .

وقال صاحب نشق الأزهار أن فى بحيرة تنيس ٣٦٠ نوعا من السمك يظهر فى كل يوم من السنة نوع منها . ولكل نوع اسم يخصه ، وخليل الظاهرى يسمى بحيرة تنيس باسم بحيرة المنزلة وهو الاسم الذى تعرف به للآن ..

ولكن العرب لم يجدوا مايحبب لهم المقام فى هذه المدينة واشباهها من الجزائر التى كانت وسط البحيرة فبقيت الى أن قضى عليها وزالت أخبارها . ويروى عن اندثارها نهائيا أن جزيرة تنيس كانت مكشوفة للغزو من البحر على أنها كانت محصنة وفيها رباط قوى فأمر صلاح الدين باخلائها سنة ١١٩٢ م ثم جاء الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب سنة ٦٢٤ هـ - ١٢٢٧م فهدم حصونها واسوارها وتركها أطلالا وذلك لكيلا يتمكن الصليبيون من الاقامة فيها . وهكذا اختفت الى الأبد تلك المدينة الصناعية الهامة ولم يبق منها الا رسومها فى وسط البحيرة .

وقد ذكر المسعودى ان « بحيرتها الآن يصطاد منها السمك وهى قليلة العمق يسار فيها بالعادى وتلتقى السفينتان هذه صاعدة وهذه نازلة بريح واحدة وقلع كل منهما مملوء بالريح وسيرهما فى السرعة مستو . وبوسط البحيرة عدة جزائر تعرف اليوم بالعزب سكنها طائفة من الصيادين . وفى بعضها ملاحات يؤخذ منها ملح عذب لذيذ ملوحته وقد يحلو أيام النيل ..»

تانيس أو صورعن :

مدينة تانيس مدينة قديمة كانت من المدن الشهيرة فى الوجه البحرى يقال انها كانت تخت مصر فى زمن موسى عليه السلام ، وقد ذكرت فى التوراة باسم صورعن وهى غير مدينة تنيس التى تقدم ذكرها.

وقد أقام أمنمحعت الأول فى عصر الأسرة الثانية عشرة معبدا فخما كشفه بترى فى سنة ١٨٨٤م ، وقد وجد بمعبد من معابدها شاخص حجرى عليه « قانون كانوب » المشهور وكان مكتوبا باللغة اليونانية واللغة الديموطيقية مثل حجر رشيد الذى سمح لشامبليون بتفسير الرموز الهيروغليفية .

وقد وجد استرابون مدينة صوعن مدينة عظيمة وقصبة اقليم شهير ولكن فى زمن المؤرخ « فلاقيوس يوسفوس » كانت قد انحطت عن قدرها وأخذت فى التقهقر وأصبحت قرية لا أهمية لها . وفى عهد الحملة

الفرنسية كانت مجرد سوق يتبادل فيه الصيادون الفسيخ ببلح الصالحية .

ويرجع سبب تقهقرها الى قربها من مدينة تنيس التى كانت قد أخذت فى الشهرة واتسعت دائرة تجارتها لقربها من البحر حتى وردها كثير من الأعراب وانتقل اليها كثير من أهالى تانيس ، وهذا هو سبب ذكر مدينة تنيس فى كتب العرب أكثر من ذكر تانيس مع أن مدينة تانيس كانت من مساكن الملوك وكانت مقر فراعنة الأسرتين الحادية عشرة والثالثة والعشرين .

ولم يتسن معرفة الوقت الذى خرجت فيه هذه المدينة الكبيرة وأول من عين موضعها هو الأب سيكار وقال أنها فى الجنوب الغربى من مدينة الطينة وعلى بعد يوم منها وبها آثار سبع مسلات وبعض تماثيل يرى عليها اسم منفتاح الثانى .

وهى الآن صان الحجر قرية من بلاد محافظة الشرقية أغلب تكسب أهلها من صيد السمك وبيع الجبن المنزلاوى وبها آثار قديمة وأغلب أطيانها رمال والصالح منها يزدع شعيرا وجلبانا وبسلة .

الفرماء ((مدينة آمون)) ..

قال المقريزى : كانت الفرماء على شط بحيرة تنيس وكانت مدينة حصينة وبها قبر جالينوس الحكيم ، وبنى بها المتوكل على الله حصنا على البحر عندما بنى حصن دمياط وحصن تنيس .

وقال ابن الكندى : الفرماء أكثر عجائب وأقدم آثارا من غيرها . ويذكر أهل مصر أنه كان منها طريق الى جزيرة قبرص فى البر يسار عليه بالدواب فغلب عليه البحر .

كما ذكر ابن الكندى أيضا أن بها ((مجمع البحرين)) وهو البرزخ الذى ذكره الله عز وجل فقال : ((مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان)) .

وقال ابن قديد : توجه ابن المديد وكان بتنيس الى الفرماء وهدم أبواب من حجارة كانت شرقى الحصن احتاج أن يعمل منها جيرا ، فلما قلع منها حجرا أو حجرين خرج أهل الفرماء بالسلاح فمنعوه من قلعها وقالوا ان هذه الأبواب هى التى قال الله فيها على لسان يعقوب عليه السلام ((يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة))

وقال ابن قديد أيضا : والفرماء بها النخل العجيب الذى يثمر حين ينقطع البسر والرطب من سائر الدنيا ، ويكون فى هذا البسر ماوزن البسرة الواحدة فوق العشرين درهما ، وفيه ماطول البسرة نحو الشبر والفتر .

وفى العصر الفرعونى كانت الفرماء تعرف باسم برآمون أى مدينة آمون ثم أنشأ اليونان ضاحية لها سموها بيلوز « أى الطينة » لـكثرة الأوحال التى كانت محيطة بها . وقد طغى هذا الاسم على المدينة كلها فى العصر اليونانى وعرفت به وفى العصر المسيحى سماها القبط برمون أو برما ومنها اسمها العربى الفرماء ولا يزال مكانها معروفا للآن باسم تل الفرما.

وسبق أن قلنا أن هذه المدينة ذكرت فى التوراة باسم « سين » ومعناها « قوة مصر » أو ربما يكون اسم شبه جزيرة سيناء مشتقا من اسم هذه المدينة . وقد كانت أعظم مدينة فى هذه المنطقة فى العصر الفرعونى .

وكان بجوارها قرية مصرية قديمة تسمى « حات أورات » أقام بها الهكسوس عاصمتهم ذات الحصون والقلاع . وسموها « أوارت »وحرفها اليونان كعادتهم الى « أواريس » أو « افاريس » وكان بها حامية من الجند عددها مائتا ألف جندى وربما كانت بعد اتساعها قد اتصلت بمدينة سين القديمة « الفرماء » واندمجت فيها .

والظاهر أن رمسيس الثانى أقام بين سين وأوارت مدينته الملكية الجديدة بير رمسيس فتكون من المدن الثلاث : سين وبير رمسيس وأوارت مدينة ضخمة تخلفت عنها التلال المنثورة فى هذه المنطقة .

ويعرف مكان أوارت أو أفاريس حاليا باسم « تل الحير » وهو تحريف ظاهر للجزء الأول من اسم القرية المصرية « حات اوارت » .

وكان لمدينة الفرماء شأن كبير اذ كانت مفتاح مصر من الشرق تشرف على الطريق القادم من الصحراء وتملك ناصية البحر ويجرى اليها فرع من النيل يؤدى الى مصر السفلى ، وكان الفينيقيون يدخلون مصر بمراكبهم من هذه الميناء . وكانت أيضا رأس الطريق الى بلاد العرب.

وكانت الفرماء أول موضع قوتل فيه عمرو عند فتح مصر . قاتله الروم الذين أرسلهم المقوقس قتالا شديدا نحو شهر ثم اقتحم حصنها فى ١٣ يناير سنة ٦٤٠م ، وفى هذه المعركة أحرقت السفن التى كانت بالمرفأ ، وفطن عمرو الى أن الامداد لن تستطيع أن تخلص اليه الا عن طريق الفرماء ، ولما لم يكن له من الجند من يتركه لحراستها فقد اضطر لأن يهدم أسوارها وحصونها حتى لا ينتفع بها العدو اذا عاد اليها .

وقد أعيد بناؤها فيما بعد ولم تدمر نهائيا الا على يد بلدوين الأول ملك بيت المقدس أثناء غارات الصليبيين فى القرون الوسطى اذ دمرها قبل تقهقره سنة ١١١٨م .

وهكذا اندثرت مدينة بيلوز القديمة أو الفرماء واختفت الى الأبد.

وفى أثناء عمل المباحث الخاصة بفتح قناة السويس وضع التصميم الأول على أن تبدأ القناة عند موقع مدينة بيلوز القديمة ضاحية الفرماء، ولاحت فكرة بعث هذه المدينة من جديد ولكن ظهر أثناء التنفيذ أن الرواسب الطينية المتراكمة فى هذا الموقع محل فرع النيل البيلوزى القديم ، وقلة عمق مياه البحر فى هذه المنطقة تحول دون ذلك ، فنقل فم القناة مسافة ٣٠ كيلو مترا الى الغرب مع أنه ترتب على ذلك زيادة فى طول القناة قدرها سبعة كيلو مترات تقريبا .

وهكذا نشأت هناك مدينة بورسعيد الحالية وهى تقوم الآن بدل مدينة بيلوز أو الفرماء القديمة التى اندثرت .

الطينة :

مدينة كانت من أعظم مدن مصر فى النهاية الشرقية من بحيرة المنزلة وكانت تسمى أولا «بيلوز» ومعنى بيلوز « الطينة» فلذا سماها العرب فى مؤلفاتهم الطينة .

وسبق أن ذكرنا أنها كانت فى ضواحى برآمون « الفرماء فيما بعد » وبسبب وقوعها فى حدود مصر من الجهة الشرقية كان معتنى بها من حاكم مصر لاسيما فى زمن الفراعنة ، فكانت من الحصون المنيعة بها العساكر وأنواع السلاح وكانت عامرة بأنواع المتاجر لها ميناء لاتخلو من السفن الواردة والصادرة بأنواع السلع المختلفة .

وقد لاقت مدينة الطينة من الحروب زمن الرومانيين واليونان والعرب ، أهوالا ومصائب من نهب وسلب وقتل ، ومع ذلك ظلت عامرة آهلة ذات أهمية الى حرب المقدس ، حيث أغار عليها امراء النصارى ونهبوها مرارا فضاقت على اهلها الأرض بما رحبت فولوا عن مدينتهم وفارقوها الى دمياط وغيرها وخرجت من ذلك الحين ولم يبق منها غير آثار قلعة من مبانى العرب تعرف بقلعة الطينة كانت مقاطعة على فم بحر الطينة دخول المراكب بها .

شطا :

قال ابن حرقل ان شطا مدينة قريبة من تنيس ودمياط وفيها تعمل الثياب الشطوية . ويقال ان اسمها مأخوذ من اسم شطا ابن الهاموك عم المقوقس .

ومن امر شطا بن الهاموك انه بعد ان استولى عمرو بن العاص على قلعة تلك المدينة وعلى بلاد مصر ارسل عسكره وحاصر دمياط واستولى

عليها وخرج شطا مع الفين من أصحابه (وكان هو حاكم مدينة شـطا) ولحق بالمسلمين وكان قبل ذلك محبا للخير . ولما سمع بالاسلام أحبـه ودخل فيه وساعد على الفتح الاسلامى .

وقد قتل فى احدى الوقعات ودفن فى خارج البـلدة فى المحـل الذى هو به الآن وقد بنيت عليه قبة يزورها أهل البلاد فى ١٥ شعبان من كل سنة حيث قد توفى بالقرب من هذا التـاريخ (وقيل يوم ١١ شـعبان) .

وفى شطا كان يعمل طراز الكعبة ـ وهى الآن قرية من ضـواحى دمياط .

دميـاط القديمـة :

يقال انها سميت دمياط من ولد أشمن بن مصرايم بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام . وقيل ان دمياط كلمة سريانية معناها «القدرة» اشارة الى مجمع الماء العذب والماء الملح وقيل ان دمياط بنيت فى زمن قليمـون بن أتريب بن قبطـيم بن مصرايم . على اسم غلام كانت أمه ساحرة لقليمون .

ولعل دمياط قد شهدت من الحروب ومن مواقع الكر والفر أكثـر مما حدث لأية مدينة أخرى فى القطر كله .

فلما قدم المسلمون الى أرض مصر كان على دمياط رجل من أخوال المقوقس يقال له الهاموك فلما افتتح عمرو بن العاص مصر امتنع الهاموك بدمياط واستعد للقتال فأنفذ اليه عمرو بن العاص المقداد بن الأسود فى طائفة من المسلمين ، فحاربهم الهاموك فهزموه وقتل ابنه من تلك الموقعة فعاد الهاموك الى دمياط يستعد لمعاودة القتـال ولم يستمع لنصـح الناصحين ، وكان له ابن عاقل سمع بالاسلام فأحبه وكانت داره ملاصقة لسور المدينة فخرج الى المسلمين فى الليل ودلهم على عورات البـلد ومسالكها ، فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها ، ولما برز الهـاموك للحرب ماراعه الا ان يرى المسلمين وهم يكبرون على سور البلد ، وعندما رأى شطا بن الهاموك المسلمين فوق السور لحق بهم فى عدة من اصحابه . ففت ذلك فى عضد أبيه ، فاستأمن المقداد وسلمه المدينة ، وخرج شطا ابن الهاموك وقد أسلم ، الى البرلس والدميرة وأشمون طناح فحشـد أهل تلك النواحى وقدم بها مددا للمسلمين وعونا لهم على عدوهم ، وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس وجزائرها فبرز لأهلها وقاتلهم قتالا شديدا حتى قتل ودفن فى المكان المعروف باسمه خارج دمياط كما ذكرنا عند الحديث عن مدينة شطا .

وقد هاجم الروم دمياط سنة ٩٠ هـ ثم فى سنة ١٢١ هـ ثم حوالى سنة ٢٠٠ هـ .

وفى سنة ٢٨٣ هـ — فى عهد خلافة المتوكل على الله وكان أمير مصر عنبسة بن اسحق — هاجم الروم دمياط فملكوها وما فيها وقتلوا فيها عددا كبيرا من المسلمين وسبوا النساء والأطفال وأهل الذمة ، فنفر اليهم عنبسة بن اسحق فى جيش كبير فلم يدركهم ومضى الروم الى تنيس فلم يتبعهم عنبسة فقال يحيى بن الفضل للخليفة المتوكل :

أترضى بأن يوطا حريمك عنوة
وأن يستباح المسلمون ويحربوا

حمار أتى دمياط والروم وثب
بتنيس رأى العين منه وأقرب

مقيمون بالاشتوم يبغون مثل ما
أصابوه من دمياط والحرب ترتب

فما رام من دمياط شبرا ولا درى
من العجز ما يأتى وما يتجنب

فلا تنسنا أنا بدار مضيعة
بمصر وأن الدين قد كاد يذهب

فأمر المتوكل ببناء حصن دمياط فابتدىء فى بنائه فى ٣ رمضان سنة ٢٣٩ وانشأ من ذلك الوقت اسطولا بمصر .

وتتابعت الهجمات والمواقع على مدينة دمياط لا تكاد تفيق من واحدة حتى تبلى بأخرى نذكر من بينها ما يسميه المؤرخون العرب (وقعة دمياط الكبرى) .

وذلك أنه فى سنة ٦١٤ هـ تتابعت امداد الافرنج من رومه وغيرها من البلاد وقصدوا الى القدس فانتزعوها من ايدى المسلمين ، وفى سنة ٦١٥ هـ ركبوا بجموعهم البحر الى دمياط وكان يبلغ عددهم نحو سبعين ألف فارس وأربعمائة الف راجل ، فخيموا تجاه دمياط فى البر الغربى ، وحفروا على معسكرهم خندقا وأقاموا عليه سورا وشرعوا فى قتال برج دمياط وكان برجا منيعا فيه سلاسل من حديد غلاظ تمد على النيل لتمنع دخول المراكب اليه من البحر ، فصنع الافرنج الآلات والمراسى واقاموا ابراجا يزحفون بها فى المراكب الى برج السلسلة ليملكوه ، وكان هذا البرج مشحونا بالمقاتلة فتحيل الافرنج عليه وعملوا برجا من الصوارى على بسطة كبيرة واقاموا بها حتى اسندوها اليه وقاتلوا من به حتى اخذوه وقطعوا السلاسل بالرغم من قتال المصريين

لهم قتالا شديدا ، وعمد المصريون بعد ذلك الى نصب جسر عظيم بدل السلاسل لمنع الفرنج من عبور النيل ، فقاتل الفرنج عليه قتالا شديدا حتى قطعوه فأغرق المصريون عدة مراكب فى النيل لمنع الافرنج من سلوكه ، فعمد الفرنج الى خليج هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجرى فيه قديما فحفروه وعمقوا حفره واجروا فيه الماء الى البحر واصعدوا مراكبهم فيه الى بورا على أرض جزيرة دمياط مقابل المنزلة – وكان بها السلطان – ليقاتلوه من هناك فلم يظفروا منه بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شيء لأن الميرة والامداد متصلة اليهم والنيل يحجز بينهم وبين الأفرنج وظلت أبواب المدينة مفتحة وليس عليها ولا على أهلها أى حصر واستخف العرب بالأفرنج فكانوا يتخطفونهم فى كل ليلة حتى امتنعوا عن الرقاد خوفا من هذه الغارات الليلية وزاد استخفاف العرب حتى صاروا يخطفون الافرنج نهارا ويأخذون الخيم بمن فيها . فأخذ الافرنج ينصبون للعرب الكمين حتى قتلوا منهم عددا كبيرا .

ولما جاء الشتاء هاج البحر على مخيم المسلمين وغرقهم وانقلبت عليهم آية الحرب وألح الفرنج فى القتال وكادت تكون لهم الغلبة الساحقة لولا ان بعث الله ريحا قطعت مراسى مرمة الافرنج فمرت الى بر المسلمين فأخذوها واذا بها من العجائب . مصفحة بالحديد لا تعمل فيها النار ومساحتها خمسمائة ذراع وبها مسامير زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا .

وظل الفرنج فى الحصار وقد جعلوا حول معسكرهم الخنادق واحدقوا بدمياط برا وبحرا وضيقوا الخناق على اهلها وسدوا باب وصول الأقوات عليهم وأهل دمياط يقاتلونهم ويمانعونهم ، وما جاءت سنة ٦١٦ حتى كان الحال قد اشتد على أهل دمياط فقد كان بها نحو عشرين الف مقاتل فنهكتهم الأمراض . وغلت الأسعار حتى بلغت بيضة الدجاجة عدة دنانير ، والبقرة ٨٠٠ دينار ، ورطل السكر ١٤٠ دينارا ، والدجاجة ٣٠ دينارا ، والقبر يحفر بثلاثين مثقالا ، ولم يبق بها سوى قليل من القمح والشعير وامتلأت المساكن والطرقات بالموتى، ولم تبق قوة على المقاومة فتسور الفرنج واستولى على البلد ومدة الحصار ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما .

ولما أخذوا البلد وضعوا السيف فى الناس فتجاوزوا الحد فى القتل وأسرفوا فى النهب والسلب ، وحولوا المسجد الى كنيسة . ولكن المسلمين كانوا قد جمعوا جموعهم وجاءوا من كل صوب ، وحدثت بينهم وبين الافرنج وقائع هائلة كسر الافرنج فيها شر كسرة وسلموا بلا قيد ولا شرط وسلموا دمياط الى أهلها وعادوا الى بلادهم .

الا انه سنة ٦٤٦ وصل نبأ الى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بأن جيوش الفرنج البحرية قادمة لغزو مصر فجهز الاسطول وشحنه بالرجال والسلاح والمؤن والمستلزمات وسيره الى ان نزل فى بحيرة دمياط من برها الغربى وصار النيل بينه وبينها ، وجمع فى مدينة دمياط من الأقوات والازواد والأسلحة وآلات القتال شيئا كثيرا خوفامن أن يجرى على دمياط ما جرى عليها فى المواقع السابقة .

وبعد ظهر ٩ صفر من تلك السنة وردت مراكب الفرنج وفيها جموعهم الكبيرة وقد انضم اليهم فرنج الساحل وأرسوا بازاء المسلمين وبعث ملكهم الى السلطان كتابا هذا نصه :

« اما بعد فانه لم يخف عليك انى أمين الأمة العيسوية ، كما أنه لا يخفى على انك أمين الأمة المحمدية ، وغير خاف عليك ان عندنا أهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الهدايا والأموال ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ، وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح حتى النهاية ، فلو حلفت لى بكل الايمان وأدخلت على الاقساس والرهبان وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، لكنت واصلا اليك وقاتلك فى أعز البقاع عليك . فاما ان تكون البلاد لى هدية حصلت فى يدى ، واما ان تكون البلاد لك والغلبة على فيدك العليا ممتدة الى ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصا وهم مرسلون بأسياف القضاء » .

فرد عليه السلطان بالخطاب الآتى :

« اما بعد فانه قد وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد ابطالك ، فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ، ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ، ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منك الحصون والسواحل، وتخريبنا ديار الاواخر منكم والأوائل ، لكان لك ان تعض على اناملك بالندم . ولابد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون . فاذا قرأت كتابى هذا فتكون فيه على سورة النحل « اتى امر الله فلا تستعجلوه » وتكون على آخر سورة ص « ولتعلمن نبأه بعد حين » ونعود الى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » وقول الحكماء ان الباغى له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام » .

والتحمت الجيوش بعد ذلك فدارت الدائرة على العرب وهرب الامراء وجيوشهم الى أشموم فخاف من كان فى دمياط من الاهالى وخرجوا منها فى وجوههم بالليل لا يلتفتون الى شيء ، وتركوا المدينة خالية من الناس ولحقوا بالعسكر فى اشموم وهم حفاة عرايا جياع حيارى بمن معهم من النساء والأولاد ، ومروا هاربين الى القاهرة فأخذ منهم قطاع الطريق ما عليهم من الثياب ، ولما أصبح الفرنج قصدوا دمياط فوجدوا ابواب المدينة مفتحة ولااحد يدافع عنها فظنوا ان ذلك مكيدة [illegible] فدخلوا اليها بلا ممانع ولا مدافع . [illegible] الاسلحة العظيمة وآلات الحرب والأقوات [illegible] .

[illegible] وكانت قد احدثت [illegible] كانت عليه دمياط من الاستعداد [illegible] الجيوش واخذ فى اصلاح [illegible] وفى الوقت نفسه كان جيش العرب [illegible] ويأسرون منهم العدد بعد العدد والفرنج [illegible] دمياط .

ثم قدمت جيوش الفرنج من دمياط الى فارسكور فتجمعت جموع المسلمين وقدمت من القاهرة فتقابل الجمعان عند المنصورة وبينهم النيل ودار القتال برا وبحرا وأبلى عوام الأهالى فى قتال الفرنج بلاء كبيرا . وانكوهم نكاية عظيمة ، وصاروا يقتلون ويأسرون منهم فى كل وقت . ويعومون فى الماء الى الجانب الذى فيه الفرنج ويتحايلون على اختطافهم لايهابون الموت . حتى ان أحد الأهالى قور بطيخة وحملها على رأسه وغطس فى الماء حتى حاذى الفرنج فظنه بعضهم بطيخة ونزل ليأخذها فخطفه وأتى به للمسلمين .

ثم صنع المسلمون مراكب وحملوها على الجمال الى المحلة وألقوها فى النيل وشحنوها بالمقاتلة فعندما حاذت مراكب الفرنج بحر المحلة وتلك المراكب كامنة فيه ، خرج عليهم العرب ووقع القتال بين الفريقين وقدم الأسطول الاسلامى فى المنصورة وأحاط بالفرنج فظفر باثنين وخمسين مركبا من مراكبهم ، وقتل وأسر منهم نحو ألف رجل ، وحاصرهم وقطع عنهم المؤن ، وطال الحال على الفرنج فوهنت قوتهم وطلبوا الهدنة على أن يسلموا دمياط ويأخذوا بدلها القدس وبعض بلاد الساحل فلم يجابوا وأرادوا الرجوع الى دمياط للتحصن فيها فتعقبهم المسلمون ، وأحاطوا بهم وقتلوا منهم وأسروا أكثر من مائةالف، فاستسلم ملك الفرنج فقيد واعتقل فى دار ابن لقمان فى المنصورة ووكل به

الطواشي صبيح المعظمى الى ان حصل التفاهم على تسليم دمياط فأخلاها الفرنج وسلموها للمسلمين وأفرج عن ملك فرنسا وعن أخيه وزوجته وبقية أصحابه فأقلعوا الى عكا .

وفى ذلك يقول الوزير جمال الدين يحيى بن مطروح .

قل للفرنسى اذا جئته
مقال نصح عن قئول نصيح

أجرك الله على ما جرى
من قتل عباد يسوع المسيح

أتيت مصرا تبتغى ملكها
تحسب أن الزمر ياطبل ريح

فساقك الحين الى أدهم
ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم
بحسن تدبيرك بطن الضريح

خمسون ألفا لا يرى منهمو
الا قتيل أو أسير جريح

وفقك الله لأمثالها
لعل عيسى منكمو يستريح

ان كان باباكم بذا راضيا
فرب غش قد أتى من نصيح

قل لهمو أن أضمروا عودة
لأخذ ثأر أو لنقد صحيح

دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق والطواشى صبيح

ومن طريف ما يروى ان ملك الفرنسيين هذا بعد خلاصه من هذه الواقعة جمع عدة جموع وقصد الى فتح تونس ، فقال شاب من أهلها يسمى أحمد بن اسماعيل الزيات :

يا فرنسى هذه أخت مصر
فتأهب لما اليه يصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر
وطواشيك منكر ونكير

فكان هذا فألا حسنا . اذ مات ذلك الملك وهو على حصار تونس .

وبعد ذلك اتفق المماليك البحرية — وكانوا أرباب الدولة فى مصر — على تخريب مدينة دمياط خوفا من مسير الافرنج اليها مرة أخرى فسيروا اليها الحجارين والفعلة فوقع الهدم فى اسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة حتى خربت كلها ومحيت آثارها ولم يبق منها سوى جامع الفتح وبضعة أخصاص على النيل سكنها الناس الضعفاء وسموها المنشية .

وفى أيام الملك الظاهر بيبرس خرج من مصر عدة من الحجارين فى سنة ٦٥٩ هـ لردم فتحة مصب فرع دمياط فألقوا فيه كثيرا من القرابيص حتى ضاق وتعذر دخول المراكب منه الى دمياط .

وأما دمياط الآن فانها حدثت بعد تخريب مدينة دمياط القديمة وكانت نواتها تلك الاخصاص التى اشرنا اليها فما برحت تزداد وتتوسع الى أن صارت البلدة الكبيرة التى نراها اليوم بأسواقها ومدارسها ومساجدها ودورها وبساتينها ومصانعها .

ودمياط فى زمانها كانت مشهورة بالمنسوجات الدقيقة الجميلة على مثل ما تحدثنا به عن تنيس . قال ابن الكندى : اخبرنى بعض وجوه التجار انه يبيع حلتان دمياطيتان بثلاثة آلاف دينار .

ونختتم الحديث عن دمياط بهذه الرواية الطريفة عن عبد اللطيف البغدادى فى معرض الحديث عن أفراس البحر اذ يقول :

« فرس البحر توجد بأسافل الأرض وخاصة ببحر دمياط ، وهو حيوان عظيم الصورة هائل المنظر شديد البأس ، يتبع المراكب فيغرقها ويهلك من ظفر به منها ، وهو بالجاموس أشبه منه بالفرس لكنه ليس له قرن . وفى صوته صهلة تشبه صهيل الخيل بل البغل ، وهو عظيم الهامة هريت الاشداق ، حديد الأنياب عريض الكلكل ، منتفخ الجوف قصير الأرجل شديد الوثب قوى الدفع ، مهيب الصورة مخوف الغائلة ؛ وخبرنى من اصطادها مرات وشقها وكشف عن اعضائها الباطنة والظاهرة انها خنزير كبير ، وأن اعضاءها الباطنة والظاهرة لا تغاير من صورة الخنزير شيئا ، الا فى عظم الخلقة ورأيت فى كتاب نيطواليس فى الحيوان ما يوضح ذلك : قال خنزيرة الماء تكون فى بحر مصر وهى تكون فى عظم الفيل ، ورأسها يشبه رأس البغل ولها شبه خف الجمل ، وقال : وشحم متنها اذا اذيب ولت بسويق وشربته امرأة أسمنها حتى تجوز المقدار . وكانت واحدة ببحر دمياط قد خرجت على المراكب لتغرقها وصار المسافر فى تلك الجهة مغررا ، وضربت أخرى بجهة أخرى على

الجواميس والبقر وبنى آدم تقتلعهم وتفسد الحرث والنسل واعمل الناس فى قتلها كل حيلة من نصب الحبائل الوثيقة وحشد الرجال بأصناف السلاح وغير ذلك فلم يجد شيئا ، فاستدعى بنفر من المريس (صنف من السودان) زعموا انهم يحسنون صيدها وأنها كثيرة عندهم. ومعهم مزاريق فتوجهوا نحوها وقتلوها فى أقرب وقت وأتوا بها الى القاهرة فشاهدتها فوجدت جلدها اسود أجرد تخينا جدا ، وطولها من الرأس الى الذنب عشر خطوات معتدلات ، وهى فى غلظ الجاموس نحو ثلاث مرات ، وكذلك رقبتها ورأسها ، وفى مقدم فيها اثنى عشر نابا ، ستة من فوق ، وستة من أسفل ، المتطرفة منها نصف ذراع زائد ، والمتوسطة أنقص بقليل ، وبعد الأنياب أربعة صفوف من الأسنان على خطوط مستقيمة فى طول الفم ، كل صف عشر كأمثال بيض الدجاج ، المصطف صفان فى الأعلى وصفان فى الأسفل على مقابلتهما ، واذا فغر فوها وسع شاة كبيرة ، وذنبها فى طول نصف ذراع زائد أصله غليظ ، وطرفه كالاصبع اجرد كأنه عظم شبيه بذنب الورل . وأرجلها قصار طولها نحو ذراع وثلث ولها شبيه بخف البعير الا انه مشقوق الأطراف بأربعة أقسام وأرجلها فى غاية الغلظ ، وجملة جثتها كأنها مركب مكبوب لعظم منظرها ، وبالجملة هى أطول وأغلظ من الفيل الا ان أرجلها أقصر من أرجل الفيل بكثير . ولكن فى غلظها او أغلظ منها .

المنزلة :

قال كترمير : هى مدينة كانت من المدائن الكبيرة الشهيرة فى الوجه البحرى واقعة فى برك قريبة من البحر الرومى ، وكانت تسمى فى كتب الأقباط والأروام « اتينيزوس » أو « ايتغينزيس » وهى غير مدينة تنيس وينسب اليها بركة المنزلة التى بجوار بركة دمياط ، وكان يصب فيها خليج اشمون المعروف الآن بالبحر الصغير وكان فمه يقرب المنصورة وجوجو . ثم سد فى زمن عباس الأول . ووصل بترعة المنصورية ، وهى بركة واسعة جدا لكنها قليلة العمق ، وكان ماؤها يعذب وقت فيضان النيل ويملح بعد هبوطه ، وكان فى وسطها مدينة تنيس وجزائر أخرى فيها عدة قرى وهى : نيلية ، تونة ، سمناء ، حصن الماء ، شطا ، دبيق ، بورا ، قس الحيف .

وكان أكبر الجزائر جزيرة تنيس وجزيرة تونة ، وجميع هذه الجزائر كانت تشترك مع تنيس كمدينة المنزلة فى كيفية المعيشة والبراعة فى المنسوجات وأنواع التجارات وغير ذلك ، فطالما صنعت الكسوة الشريفة أيام بنى العباس فى تونة ، وكان للثياب القسية شهرة ، وكانت عمائم دبيق تتخذ من الكتان وتنسج بالمقصب . وكان طول الطاقة الواحدة مائة

ذراع ومخيشها القصب يساوى خمسين دينارا غير ثمن الحريروالخيط، والى بورا ينسب السمك البورى والعمائم البورية وبنو البورى الذين كانوا بالاسكندرية .

وقد اندرست تلك المدن . ولم يبق سوى بعض اطلالها . وبعد ان كانت أرضها خصبة كثيرة الأشجار ، أضحت قحلة ، غير صالحة للزرع وحدث فوق سطحها طبقة من الملح مثل الثلج الجامد بحيث صار يسمع له عند المشى خشخشة الا مدينة المنزلة .

وكان تكسب أهلها من التجارة وزرع الأرز والقطن وأنواع الحبوب وصيد الطير والسمك . وأكثر سكانها ملاحون فى المراكب وصيادون وفسخانية . وهناك موردة بها سفن كثيرة تشحن الارزاق الى نحو دمياط والمنصورة من السمن والجبن والطيور وغير ذلك وتأتى ببضائع من دمياط كالدخان ومن البلط (بورسعيد) كالفواكه . انتهى كلام على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية .

وقد عد خليل الظاهرى فى أقاليم الدقهلية أربع مدن : المنصورة ـ أشمون الرمان ـ فارسكور ـ المنزلة . وقال : فاما المنزلة وفارسكور فمتحصلهما فى كل سنة ينيف على سبعين ألف دينار لديوان المفرد الشريف . وأقليمها يقول عنه سليم حسن ، ان العارفين فضلوه على جميع أقاليم الديار المصرية وبه طيور حسان الهيئة شهب الالوان مطوقة بالسواد ، حمر المناقير والارجل ، تسمى بالدراج ولها أصوات شجية تقول فى تصويتها مفسرا يفهمه أهل ذلك الاقليم « طاب دقيق السبل ـ سبحان القديم الازلى » حتى ان من يسلك تلك الأرض ولم يكن قد سلكها من قبل يظن انه صوت انسان .

وقال : ومن جملة خواص هذا الاقليم ان غالب أهل بلاده يزرعون القصب والقلقاس والأرز على الماء السائح ، وبالقرب من مدينة المنزلة ملاحة عظيمة يجلب الملح منها الى البلاد ، ويجلب من هذا الاقليم رمان كثير جدا ـ أ هـ .

ومدينة المنزلة الآن هى مدينة قديمة نصف متهدمة تقع على نهاية البحر الصغير الذى يجرى مكان فرع النيل المنديسى بعد اندثاره . وتبعد المنزلة عن جزيرة المطرية حوالى ١٢ كيلو وهى الآن مركز من مراكز محافظة الدقهلية . وعدد سكانها نحو ٢٠,٠٠٠ نسمة ومساحتها مع توابعها ٤٠ كيلو مترا مربعا .

هذه هى مدن بحيرة المنزلة قديما ، ولم يزل بها للآن بلدة المطرية وهى على جزيرة تبعد ٣٢ كيلو مترا عن دمياط وهى متصلة بطريق

زراعى بمدينة المنزلة ويسكنها حوالى ٢٢٫٠٠٠ نسمة كلهم يعتمدون فى كسب عيشهم على صيد الأسماك ، ويرجع عنصرهم الى الأصل الهكسوسى كما سيجىء الكلام فيما بعد . وهم يجدون فى الطيور المائية التى لا عداد لها فى بحيرة المنزلة مغنما كبيرا فى مواسم الصيد .

***

وهكذا تحولت هذه المنطقة الى منطقة أسماك واندثرت فيهاصناعة المنسوجات الدقيقة الجميلة التى كانت موضع العجب والاعجاب بل انها كانت حديث الشعراء . ومضرب امثالهم .

***

مصرع أوزوريس
على ساحل بيلوزا
(الطينة)

أسطورة من الأساطير القديمة بعيدة الغور ، عميقة المعنى فياضة بالاحساسات الانسانية حافلة بروح الخيال الذى كان يجيش فى صدور الاقدمين ، يشكل لهم وجوه الخير والشر فى صور اخاذة بالألباب .

فقد كان الاله (رع) فى سالف الازمان يحكم الالهة والناس على السواء ، وليس فوق مستواه مستوى آخر ، يأتمر الجميع بأمره وينتهون بنواهيه ، ولا يصدرون الا عن ارادته ومشيئته . وكانت عظامه من فضة وأعضاؤه من ذهب وشعره من اللازورد الحقيقى .

وعلى مر الأيام وكر الأعوام طعن فى السن ووهنت قوته ، وظن الناس انه قد فقد خصائصه الفلابة فتآمروا عليه ان يذهبوا بسلطته ويتخلصوا من ربقته ويقضوا على ملكه الشامل الكامل .

وشعر الاله العظيم بهذه النوايا الخبيثة الشريرة ، فاعتزم أن يضرب الثعبان فى جحره وأن يقضى على المؤامرة فى مهدها . فقال لأحد أتباعه ناد عينى وشو ، وتفنت ، وجب ، ونوت ، وكذلك الآباء والامهات الذين كانوا معى وقت ان كنت فى ماء المحيط (نون) ، وكذلك ناد الاله (نون) واجعلهم يأتوا خفية حتى لا يراهم الناس وحتى لا يستولى على قلوبهم الفزع وعليك ان تحضر مع هؤلاء الالهة الى القصر ليعرضوا وجهة نظرهم فى موضوع ما اقترف الناس من الخبث واللؤم ومقابلة الخير بالشر .

فحضر هؤلاء الالهة وسجدوا أمام جلالة الاله (رع) وقالوا : تكلم الينا حتى نسمع ما تقوله لنا .

وعندئذ قال (رع) الى (نون) : انت ايها الاله اقدم الكل والذى منه ولدت ، وانتم ايها الاجداد المقدسون ، انظروا الى بنى البشر الذين خلقوا من عينى ، لقد تآمروا ضدى ، قولوا لى ما الذى تصنعونه ضد هذا العمل فاننى لن اقتلهم قبل ان استمع الى ما تريدون ان تقولوه.

فقال جلالة الاله (نون) : يا بنى (رع) انت الاله الذى يفوق والده وكل مخلوقاته فى العظم ، ابق على عرشك ، فان الخوف الذى تنشره عظيم اذا صوبت عينك نحو المتآمرين .

وعندما صوب الاله (رع) عينـــــه على بنى البشر ، نزعوا الى الصحراء واستولى عليهم الهلع مما قاله ، ومع ذلك فان الالهة اشاروا عليه أيضا أن يرسل عينه تقتفى أثر المتآمرين لتبطش بهم .

فارسل (رع) عينه ، فنزلت الى الأرض بصفتها الالهة (حتحور) ، فاعملت فى الناس تقتيلا وتشريدا فى الصحراء حتى اتت على أكثرهم ، ولما عادت قال جلالة الاله : اهلا بقدومك يا حتحور . فاجابته : بحياتك لقد كنت شديدة البأس بين الناس ولقد سر ذلك قلبى .

وخشى (رع) ان تهلك (حتحور) الناس عن بكرة ابيهم فى الغد ، فقال لاحد اتباعه : ايت لى على وجه السرعة برسل سريعين يعـــدون مثل هذا الظل . فأحضر اليه رسلا من هذا النوع ، فقال لهم جلالته : اغدوا لى الفنيين ، واحضروا لى مقدارا عظيمـــــا من مادة « ديدى » وأعطيت هذه المادة حامل الخصلة فى عين شمس فطحنها هذا الملاك وفى الوقت نفسه كان الخدم يحضرون الجعة بالشعير ، وبعدئذ صبت هذه المادة (ديدى) فى الجعة فأصبح لونها كلون الدم ، وشربت منهـا (حتحور) حتى ثملت ، وبذلك كفت عن فناء العالم .

ولكن الاله (رع) المسن — بعد أن خلص البشر من الفناء التام — لم يعد يرغب فى الاستمرار فى حكم هذه المخلوقات التى لا وفاء لها ، وقال: بحياتى ان قلبى قد مل البقاء معهم .

ونادى الاله اليه بنته (نوت) التى على شكل بقرة ، واعتلى ظهرها فرفعته الى السموات العلى وصارت منذ ذلك الوقت هى السماء . ولكن عندما اطلت (نوت) من هذا العلو الشاهق ارتجفت اوصالها من هـذا الارتفاع فنادى (رع) الاله (شو) وقال له : يا بنى (شو) ضع نفسك تحت بنتى (نوت) واحملها على رأسك ، ففعل (شو) ما امر به . ومنذ ذلك العهد ترى فى الرسوم فيها الاله (شو) يحمل البقرة السـماوية التى تسطع على بطنها النجوم وتسبح الشمس فى سفينة عليها ، كمـا

نرى (رع) يحمل على جبهته الثعبان السام وهو الصل المخيف الذى ينفث النار فى وجه الأعداء .

وحدث بعد ذلك ان اتفقت المعبودات الثلاث الأصلية فى مصر وهى (اوزيريس) أى الشمس و (ايزيس) أى القمر و (تحوت) أى هرمس، ان يتركوا السماء لقصد اصلاح الأرض والبشر بعد ان فســـد حالهم وساءت امورهم .

فلما هبطوا الى الأرض أوجدت ايزيس القمح ، وأوجد أوزيريس عدد الفلاحة وأدواتها ، فكان أول من علق الثور فى المحراث وأخرج للناس انواع الثمـــــار .

ولما صار ملكا على مصر أنقذالمصريين من وهدةالفقروالفاقة وحضيض الذل والعوز وعلمهم الفلاحة والزراعـــة ، وسن لهم قوانين اغنتهم عن التناحر وحمل السلاح ، اذ مهدت للوفاق واستتباب الأمن والراحة ، فكان ذلك سببا فى تهذيبهم وتلطيف اخلاقهم .

ولما غمر وادى النيل بفيض احساناته ومبراته ، اخذ يســـعى فى اصلاح باقى البلاد فتغلب على جميع الشعوب بجيش عظيم لا يحمـــل السلاح وانما يستعمل الموسيقى ولين الكلام والأخذ بالمعروف .

وكان له أخ شقى يدعى (تيفون) أو (ست) ، فلما تغيب اوزيريس عن مركزه فى فتح الشعوب واصلاحها ، زين اليه حقده وطمعه أن ينزع الملك من اخيه ، فتولاه بغير حق ، واراد ان يدبر قتلة لاخيـــه فاحبطت ايزيس مكائده وكانت ساهرة متيقظة فلم تمـــكنه من نيل اغراضـــه الشريرة .

ولكن تيفون لم ينزع خاطر الحسد والطمع من نفســـه ، وما زاده الفشل الا رغبة فى تحقيق غرضه ، وقرر ان يأخذ الأمر بأسباب الحيلة والمـــكر .

فاتخذ له اثنين وسبعين رفيقا ، واطلعهم على نيتـــه ، واخذ منهم البيعة على تحقيقها . وقاس طول جسم أخيه خفية ، وصنع صندوقا جميلا على قياسه وزينه بالزخرف الثمين .

واقام حفلة كبيرة فاخرة ، دعا اليها علية القوم ووجهائهم ، وافعمها بكل سار وبهيج ، فكانت تبهر الانفاس من الروعة . وفى أثناء الحفـــلة استحضر الصندوق الجميل الى قاعة الضيافة واعلن على سبيل التسلية انه يعطى مكافأة قيمة وهدية لمن يكون قياسه موافقا للصندوق تماما ، فاخذ المدعوون واحدا واحدا يختبرون انفسهم والصندوق لينظروا من

يوافق قياسه هذا الصندوق فينال الجائزة فلم يجدوا منهم احدا .

فلما جاء الدور على أوزيريس فعل كما فعلوا ، فتمدد فى الصندوق، ففاجأه جميع المتآمرين وأغلقوا الصندوق عليه وسمروه وختموه برصاص مذاب ، وحملوه فألقوا به فى اشتوم الطينة (بيلوز) فهوى فى البحر ، ومن ثم كان هذا الاشتوم مكروها .

ولما تناهى الخبر الى ايزيس ذهبت الى بيلوزتستقصى وترودالجهات وتسأل كل من قابلها عن الصندوق ، فصادفها غلمان فسألتهم وكانوا قد شاهدوا المتآمرين يلقون الصندوق فى الاشتوم فدلوها عليه. فاستعانت بانوبيس بن اوزيريس وباختها نفتيس التى كانت زوجة لتيفون مدة من الزمان ، واخذوا يبحثون عن الصندوق طويلا فلم يجدوه ، لان البحر كان قد القاه على شاطىء ببلوس فى فينيقيا وانبت هناك فأصبح شجرة عظيمة بسبب جسامة القوة التى كانت تنبعث من اقنوم المعبود .

واتفق ان الملك الفينيقى ببلوس ادهشه عظم هذه الشجرة ، فقطع فروعها من اكنافها ، وكانت تظل الصندوق المغشى فيها ، واخذ الجذع وكان فيه الجثة ونصبه عمودا لسقف منزله .

فلما بلغ الخبر انوبيس اخبر ايزيس ، فذهبت الى ببلوس وجلست هناك على حالة سيئة من المسكنة والبكاء بجوار اجمة ، وقيل بجوار جدار مدينة ببلوس ، ولكنها تكتمت امرها ، ولم تخبر احدا بما عندها .

واتفق ان رأت ابنة الملك فأخذت تعانقها وتقبلها وتضفر شعرها فى صور جميلة وتعطره بعطور طيبة العرف ، فلما نظرت الملكة ابنتها على هذه الحالة الجميلة اشتاقت لرؤية المرأة الاجنبية التى عطرت شعر ابنتها بهذا العطر النفيس ، فاستدعت ايزيس لديها ووقع حبها فى قلبها، فاتخذتها نديمة لها .

وضعت الملكة غلاما ، فاختارت ايزيس مرضعة له ، فكانت تعطى الصبى اصبعها لا ثديها ، واذا جن الليل واسبل ستره ، وضعت النار على جسمه . واستمرت هكذا الى ان تمثلت ذات ليلة فى شكل سنونية وطارت وناحت حول مهد الصبى ، وكانت الملكة مستيقظة فهالها هذا الأمر الفظيع ، اذ ظنت ان ايزيس قد احرقت ابنها . ولم تدر ان مافعلته ايزيس كان سببا فى تاليه الغلام وجعله ابديا سرمديا .

ولما أيقنت الملكة تأليه ابنها ارادت مكافأة ايزيس على هذا الفعل الجميل فسألتها عن بغيتها ، فطلبت ايزيس جذع الشجرة . فلبت سؤالها .

فأخذت ايزيس الجذع برأفة وشفقة وحنو ، وجعلته فى قطعة من القماش ووضعت فوقه دهانا ، ثم استخرجت الصندوق وأنزلتـــه فى سفينة وابحرت بها الى بيلوز ، فلما صارت فى معزل خبأت الصندوق فى مكان مستتر ، وقيل فى غابة كانت أشجارها متكاثفة ، وذهبت تبحث عن ابنها حوريس ، وكان عند مرضعته فى مدينة بوتو .

واتفق ان تيفون كان يصطاد ليلا فى نور القمر بتلك الغابة فعثرت رجله بالصندوق فعرفه وعرف الجثة التى فيه ، فاخرجها فى الحـال وقطعها اربع عشرة قطعة والقى بها فى اليم ، فلما بلغ ذلك ايزيس ذهبت فى سفينة للبحث عن هذه القطع فوجدتها كلها الا عضو التناسل لانه بمجرد أن سقط فى الماء اغتاله سمك يقال له ليبيدوت (البنى) وسمك يقال له اكسير نكوس (العبيدى) ونوع ثالث هو ثعبان الماء ، ولذلك كانت هذه الأنواع الثلاثة مبغوضة عند المصريين .

فجمعت ايزيس الثلاث عشرة قطعة وركبتها فى مواضعها من البدن ثم استكملت عضو التناسل من خشب الجميز ، فلما تكامل جسمه بهذه الحالة انبعثت فيه الحياة فكان آخر من حكم من المعبودات على الخلق .

وقد أوردت الآثار الجهات التى حلت فيها أعضاء أوزيريس ، فكان هدبا المعبود وحدقتا عينيه من نصيب مدينة بيلوز أى الطينة .

الفصل الثالث

معارك الغزو والحروب فى منطقة المنزلة

خبرت هذه المنطقة مواقع الغزو والحروب من أقدم العهود ، سواء منها الحروب الداخلية أو الخارجية • وقد سبق ان ذكرنا ما رواه المسعودى من انه على أثر حرب داخلية عملت فى تلك المنطقة خنادق وخلجان للتحصن فكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الأرض •

وسبق ان قلنا أيضا ان الفرما كانت مفتاح مصر من الشرق ، تشرف على الطريق القادم من الصحراء ، وتملك ناصية البحر • وهى تتوسط طريق الغزو المشهورة التى تبدأ من رفح الى العريش وتصل الى الفرما ومنها الى الصالحية فالقرين فالعباسية فبلبيس فعين شمس وتنتهى عند بابليون حصن منف الأمامى •

وكان هذا الطريق وما زال محجة الحرب وطريقها الواضح ، وهو طريق القوافل منذ القدم قبل أن يلوح فجر التاريخ ، شهد مقدم ابراهيم الخليل ومعه سارة زوجته ونزولهما فى صوعن (تانيس) فى عهد الأسرة الثانية عشرة حوالى سنة ٢٠٠٠ ق٠م٠ وهناك أهداه فرعون الجارية المصرية الجميلة هاجر فأخذها وعاد بها الى برية سينا ، كما شهد هذا الطريق أيضا تسرب الهكسوس ومقدم قافلة يوسف الصديق ثم يعقوب وآل بيته ، كما شهد مقدم قمبيز والاسكندر المقدونى ثم وطأتها جيوش كسرى —

وبعد سنوات قليلة شهد عمرو بن العاص وهو يقود جيوش العرب وبعدهم الصليبيين والمماليك والترك والفرنسيين والانجليز .

وفى مدينة سين أوبر آمون أو الفرما حصلت معارك كبيرة بين المصريين والاشوريين بقيادة (سينا شريب) ، كما حصلت بها معـــارك هائلة بين المصريين والفرس بقيادة (اكاثمينيس) ، وفى هذه المعركة الأخيرة وصلت نجدات يونانية للجيش المصرى فانتصر على الفرس .

وسبق ان قلنا أيضا ان الفرما أول موضع قوتل فيه عمرو ، وقاتله فيها الروم قتالا شديدا .

وسنجتزىء هنا بسرد موجز لدخول جيوش العرب مصر بقيادة عمرو ابن العاص ثم معارك الجيوش الفرنسية فى منطقة المنزلة .

عمرو بن العاص وفتح مصر :

لمـــا فتح العرب فلسطين والشـــام وانتصروا على الروم فى موقعة « اجنادين » حضر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من المـــدينة ليتسلم بيت المقدس وتدبير أمور الفتوح الجديدة بمشورة قواده . وتنفيذا لهذه الفكرة كان عمر يعقد مجلسا للشورى قرب دمشق ، وقد انتهز عمرو بن العاص فرصة وجوده فى هذا المجلس فعرض على أمير المؤمنين فتح مصر ، ووصف له عظيم ثروتها وهون عليه أمرها وأشار بضرورة القضاء على حاكم الروم فى بيت المقدس وكان قد هرب قبل تسليمها ولاذ بمصر .

فكر عمر مليا وتردد أولا لأن العرب لم يكونوا قد استقروا فى فتوحاتهم الجـــديدة ولقلة الجنود التى يمكن تسييرها الى مصر . ثم كأنه تخوف أن يفاجئه الروم من تلك الناحية ، فكتب الى عمرو « أن اندب النـــاس الى المسير معك الى مصر ، فمن خف معك فسر به » وسار عمرو من غزة سرا ، قاصدا الى مصر .

وكان أمير المؤمنين قد عاد الى المدينة ، واستشار عثمان رضى الله عنه فقال له عثمان : يا أمير المؤمنين ان عمرا لجرىء وفيه اقدام وحب للامارة فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لايدرى تكون أم لا - فندم عمر على كتابه الأول وكتب الى عمرو «ان أدركك كتابى قبل أن تدخل مصر فارجع الى موضعك ، وان كنت دخلت فامض لوجهك » .

فلما كان عمرو قرب رفح رأى رسلا يقبلون عليه ففطن الى أنهم قد يحملون خبرا لا يوافقه وتخوف ان هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه

الانصراف ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش فسأل عنها فقيل انها من مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ، وقال لمن معه ألستم تعلمون ان هذه القرية من مصر ؟ قالوا : بلى ، قال فان أمير المؤمنين عهد الى وأمرنى أن لحقنى كتـــابه ولم أدخل أرض مصر ان أرجع ، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا على بركة الله ٠

وقيل بل كان عمرو بفلسطين لما لحقه كتاب عمر ، فتقـــدم عمرو بأصحابه الى مصر بغير اذن ، فكتب فيه الى عمر رضى الله عنه ، فكتب اليه وهو دون العريش فحبس الكتاب فلم يقرأه حتى بلغ العريش ففتح الكتاب واذا فيه «من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ، أما بعد فانك سرت الى مصر ومن معك وبها جموع الروم وانما معك نفر يسير ، ولعمرى لو ثكل بك ما سرت بهم ، فان لم تكن بلغت مصر فارجع » فقال عمرو : الحمد لله ، أية أرض هذه قالوا من مصر ، فتقدم كما هو ٠

ومن العريش سار الجيش فى منتصف شـــهر ديسمبر سنة ٦٣٩ م بعيدا عن الشاطىء فى طريق القوافل المألوفة حتى بلغ بيلوز (الفرما) ـ وهى قرب بور فؤاد الحـــالية ـ وكانت حصينة كثيرة الآثار والكنائس فحاصرها العرب شهرا حتى سلمت وأحرقوا سفنها وهـــدموا حصونها كما أسلفنا القول ٠

وقد انضم الى عمرو عدد من البدو عوضوا عليه من قتل من جيشـــه أو زادوا قليلا ، فسار عن طريق الصحراء الى قرب موضع القنطرة الحالية واجتاز وادى الطميلات قرب التل الكبير ، ومن ثم وصـــل الى بلبيس فحاصرها شهرا وفتحها بعد قتال عنيف ٠

وبعد بلبيس قصد عمرو حصن بابليون ، كما سبق الاشارة اليه ٠

معارك الجيوش الفرنسية فى منطقة المنزلة :

عنى نابليون باخضاع بلاد البحر الصغير الواقعة بين المنصورة وبحيرة المنزلة وارتياد الجهات الموصلة للبحيرة ٠ وكان يرمى من جهة الى اخضاع تلك البلاد ، ومن جهة أخرى الى تأمين المواصلات بين دمياط والمنصـــورة والصالحية وبلبيس حتى يطمئن على حـــدود مصر الشرقية ، وبعث الى الجنرال دوجا بعدة رسائل تظهر مبلغ اهتمامه بهذا القطاع ٠

وفى ١٧٩٨/٩/١٤ جرد الجنرال دوجا حملة عسكرية، وأنفذ الجنرال داماس فى قوة من الجنود الفرنسية ، وأمره بأن يمضى رأسا الى بحـــيرة

المنزلة لارتيادها واخضاعها • وصدرت تعليمات خاصة الى الجنرال داماس بأن يمر فى بحر أشمون (البحر الصغير) الى بحيرة المنزلة ، ويقيس عمقه على طول البحر ، ويخضع البلاد الواقعة على شاطئه ، ويأخذ رهائن من كل البلاد التى لم تدفع الضرائب المفروضة عليها أو تسلم الخيل المطلوبة منها • كذلك كان على الجنرال أن يجمع كل ما يمكن العلم به من غور بحيرة المنزلة والترع التى تصب فيها والبلاد الدانية من مصبها والفتحات التى تصل البحيرة بالبحر الأبيض وعمقها وعرضها وطبيعة الجزر الواقعة بالبحيرة وسكانها ، ثم يعود للمنصورة •

تنفيذا لهذه التعليمات تحرك الجنرال داماس والجنرال دستنج على رأس الجنود الفرنسية من المنصورة يوم ١٧٩٨/٩/١٦ الساعة السادسة مساء وساروا بالبحر الصغير على ظهر السفن ، وأرسوا ليلا على مقربة من منية محلة دمنة ، ومضى الجنرال داماس الى المنزلة تنفيذا للمهمة التى كلف القيام بها ، ومعه من الجنود نحو ٣٠٠ جندى بأسلحتهم وذخيرتهم ، ولما بدأ الجنرال سيره جاءته رسالة من الجنرال دوجا انه موافيه بعدد من الجند ، فانتظر داماس فى المرساة حتى جاءه المدد ليلا • وفى اليوم التالى سار بمفرده وانتظر غير قليل فى ميت السودان (من بلاد دكرنس على البحر الصغير) لتموين جنوده ، ثم وصل مساء الى برمبال الجديدة (من بلاد دكرنس) •

عسكر الجنود ليلا فى برمبال الجديدة ، وغادروها قبل شروق الشمس • فوصلوا بحرا تجاه الجمالية فى نحو الساعة العاشرة صباحا ، فوحلت سفنهم فى بحر أشمون من قلة المياه ، وانتهز الأهالى هذه الفرصة فهاجموا السفن الفرنسية وكانوا يتبعونها من بعيد ، واشترك فى الهجوم أهالى الجمالية ، فأطلقوا النار على السفن وأمطروها وابلا من الحجارة ، من أعلى سور بلدتهم • فأمر الجنرال داماس بانزال الجنود الى البر لرد هجوم الأهالى ، وأمكنه أن يفرق الجموع التى أحدقت بالقوة الفرنسية ، ولكنه بعد قتال أربع ساعات انسحب من الموقع الذى نزل به ، ورأى انه لا يستطيع الثبات به ولا متابعة السير فى بحر أشمون فأضرم النار فى الجمالية • وعاد ادراجه الى المنصورة ومعه جرحاه وقتلاه •

وسلك الجنرال داماس فى عودته الى المنصورة طريق البحر الصغير ، ومر فى طريقه بميت سلسيل ، فأمر باحراقها وكان أهلها قد تمردوا وأخلوا بلدتهم وأوغلوا بعيدا عنها ، بحيث كانت تفصلهم مياه الفيضان والمستنقعات عن خط سير الحملة فلم يستطع داماس اللحاق بهم •

وقد تكرر فى كثير من رسائل وتقارير القواد الفرنسيين فى المنصورة ودمياط اسم حسن طوبار شيخ بلدة المنزلة فى ذلك الحين كزعيم

للمحرضين وخصم عنيد لا يستهان به ومدبر لحركات المقاومة فى هـذه الجهات ، كما تردد اسم الأمير مصطفى وعلى العديسى كمحرضين فى واقعة الاعتداء على حامية المنصورة ٠

ولقـــد كان اقليم المنزلة بزعامة حسن طوبار جياشا بمتاعب كثيرة للفرنسيين ٠

كتب ريبو يقول : ان الجهات المجـــاورة لبحيرة المنزلة يسكنها قوم أشداء ذوو نخوة ولهم جلد وصبر وهم أشد بأسا وقوة من سائر المصريين، ثم هم أغنياء بما ينهلون من الصيد ، ولهم فى البحيرة ٥٠٠ أو ٦٠٠ مركب تجعل لهم السيادة على البحيرة ، ولهؤلاء الجزائريين أربعون رئيسا منهم ، وكل هؤلاء الرؤساء يتبعون حسن طوبار شيخ بلد المنزلة ، وهو الزعيم الأكبر لهذه المنطقة ٠

ونختتم هذا الفصل عن الغزو والحروب برواية طريفة عن هيرودوت ٠

فقد حكى انه لما أتى سخاريب ملك العرب والاشوريين وهاجم مصر بجيش عرمرم ، خشى الجيش هذه الكثرة الساحقة ،وامتنع رجال الحرب عن الدفاع ، فتحير عند ذلك الملك سيمثوس ودخل الهيكل وجعل يبتهل ويتضرع أمام تمثال الاله ، ليفرج عنه ما أحـــدق به من الخطر والكرب العظيم ٠

وبينما هو يشكو سوء حظه ويضرع ويدعو أخذته سنة من النوم ، فرأى فى منامه ان الاله يشجعه ويعده بأنه لن يمسه سوء لو توجه للقـاء العرب ، وانه سيمده بنجدة من لدنه ٠

فاستبشر سيمثوس بهذه الرؤيا ووثق بصدقها فخرج من حينه ودعا قومه الى رد عدوان المغيرين ٠ فاستجاب له زمر من التجار وأرباب الصنائع والحرف وعامة القوم ولم يكن بينهم أحد من الجنود أو رجال الحرب ، فخرج سيمثوس فى مقدمتهم ٠ ولما وصلوا بيلوسة مفتاح الديار المصرية فى ذلك الوقت عسكر بهم هنالك ٠

وفى تلك الليلة انتشرت فى معسكر الأعداء ألوف مؤلفة من اليرابيع (نوع من الجرذان) أتلفت الخوذ والقسى وسيور التروس ، فأصبح العرب وليس عندهم سلاح يدفعون به عن أنفسهم فهلك أكثرهم وباءوا بالهزيمة وسلمت الديار من غزوهم ٠

الى أن قال : والى الآن يشاهد فى هيكل فلكانوس تمثال من الحجر يمثل الملك سيمثوس وعلى يديه يربوع وكتابة هذا معناها : أيا علمت من النظر الى فالتزم احترام المعبودات ٠

الفصل الرابع

الاصل الهكسوسى لصيادى المنزلة

الهكسوس شعب خليط مكون من قبائل سامية يهودية ، جاءت من الشمال واختلطت فى الصحراء مع القبائل العربية ، ونتج من امتزاجهم هذا الشعب الغريب الذى سماه القدماء « الملوك الرعاة » .

ومنذ عهد الأسرة السادسة الفرعونية بدأ المصريون يشعرون ان هذا العنصر الآسيوى الأجنبى يتسلل الى مدنهم ويفسد عليهم حياتهم الهانئة ، بما يصطنعه من ضروب اللصوصية والسلب والنهب ، فقام ملوك الأسرة الثانية عشرة والأسر التالية بتأديب هؤلاء الأجانب ، حتى كسروا شوكتهم ، ولكنهم لا يزالون فى داخل البلاد خطرا كامنا ينتظر ساعة العمل ليهب من مخابئه .

وقد انتهز الهكسوس فرصة ضعف الحكام المصريين ، فقاموا فى الداخل ومن الخارج ، واحتلوا المدن وأقاموا على مصر ملكا منهم يسمى «سياليتيس» فأقام هذا الملك بمنفيس ، وانتخب قرية « حات أوارت » بجوار الفرماء فجعلها قاعدة لملكه وأحاطها بأسوار منيعة ، وبنى بها ثكنات هائلة لاقامة جنوده ، وكان عددهم ٢٤٠٠٠٠ جندى . وكان سياليتيس يمضى فصل الصيف فى « حات أوارت » سواء لحصاد غلال وادى الطميلات ودفع

مرتبات الجنود أو لحضور المناورات العسكرية لجيوشه التى كان يخيف بها الشعب المصرى والشعوب المجاورة ٠

وكان احتلال الهكسوس لمصر من سنة ١٦٦٠ الى سنة ١٥٨٠ ق٠م٠ ويظهر ان ثلاثة من ملوكهم كانوا يملكون فى وقت واحد : الأول فى صان الحجر ، والثانى فى سخا ، والثالث فى أفاريس « حات أوارت » . وقد تخلقوا بأخلاق المصريين واعتنقوا دينهم وعبدوا آباءهم ٠ وتعلموا لغتهم وفنونهم ، وتمثلوا بالفراعنة . وأقاموا التماثيل والمسلات فى صوعن (صان الحجر) وبوباست (تل بسطة) وافاريس تل « الحير » وخاسوت « تل سخا » ٠

ولما ركن الهكسوس الى الدعة والترف ، وفقدوا كثيرا من صفات آباءهم العسكرية ، وفى الوقت نفسه تقوى المصريون . وأخذوا بأسباب الفنون الحربية ، بدا أمراء طيبة يرفعون رءوسهم وأجمعوا على طرد المغتصب الدخيل ٠

ومن طريف مايروى ان ملك الهكسوس ، لما تواترت اليه أنباء هذه الروح الناهضة ، أراد أن يأخذ الحركة قبل أن تستفحل ، ويقضى عليها قبل أن تقضى عليه ، فحاول أن يستعمل فى ذلك ما نسميه اليوم « حرب الأعصاب » فأرسل يتحدى « سكننرع » أمير طيبة بقوله : « ان صياح أفراس البحر فى بحيرة طيبة ، يطن فى أذن الملك طنينا يزيد شغله نهارا وسهره ليلا . فأسكت أفراس البحر فى طيبة ٠٠٠ » ٠

وبعد هذه الحادثة الطريفة بقليل امتشق سكننرع الحسام بمظاهرة الأمراء ، ونشبت حرب الاستقلال ٠

وتتابعت الهزائم على الهكسوس ، وأخذ عليهم المصريون مهاربهم ، فاعتصموا بأفاريس عاصمة ملكهم وكانت عزيزة المنال ، وعرة المرام .

فضرب المصريون نطاقا حولها ، وحاصروها وطال حصارهم ، لأن الهكسوس دافعوا عنها دفاع المستميت ٠

ولكن الهكسوس اضطروا آخر الأمر الى التسليم ، وأخرجوا من مصر وهم أذلة صاغرون ، وتركوا من أهلهم من احترفوا الزراعة واختلطوا بالمصريين وارتبطوا بهم بصلة المصاهرة ، ولا يزالون يفلحون الأرض فى شمال الدلتا ويصطادون الأسماك من بحيرة المنزلة ، تعرفهم بسيماهم الهكسوسية ٠

وهم فوق ذلك من أمهر صيادى البط ببحيرة المنزلة ، ولهم فى ذلك طرق غريبة ، سنأتى على شرح أهمها فيما بعد ٠

الفصل الخامس

الحالة العامة فى بحيرة المنزلة

حدودها ومساحتها :

تحد بحيرة المنزلة شمالا بالبحر الأبيض المتوسط ، وشرقا بقناة السويس ومدينة بور سعيد ، وجنوبا وغربا بأراض زراعية .

ومسطح البحيرة كان يتراوح بين ٤١٠٠٠٠ر٤٠٧٠٠٠ فدان ، ولكنها أخذت فى التناقص حتى أصبحت الآن ٣٤٥٠٠٠ فدان(١) ، بسبب تجفيف شواطئها واستصلاحها للزراعة ، بمعرفة الحكومة عن طريق طلمبات أولاد حمام وطلمبات السرو ، وكذلك بمعرفة الأهالى من ناحية أخرى .

ومتوسط عمق المياه بالبحيرة متر واحد ، الا فى المناطق التى كانت تمر بها مجارى فروع النيل البيلوزى والتانيسى والمنديسى التى اندثرت ، فان عمق المياه فى هذه المناطق يبلغ خمسة أمتار تقريبا . وعند مصب هذه الفروع توجد البواغيز المعروفة بأسماء : فم بيلوز أو فم الطينة ، وفم أم فرح ، وفم اشتوم الجميل ، وفم الديبة التى سبق الكلام عنها .

---

(١) وقد جفف جزء كبير الآن من هذا القدر لاعداد اراض زراعية واستصلاحها .

أسماك البحيرة :

تحتوى هــذه البحيرة على شتى أنواع الأسماك • أهمها وأشهرها : البورى ــ القاروص ــ الوقار ــ اللوت ــ الطوبار ــ الجران ــ الحناشة ــ الجمبرى ــ سمك موسى ــ الدنيس ــ السهيلى ــ البلطى ــ القشر ــ البياض ــ الشيلان ــ القراميط ــ البنى •

ويقدر محصول البحيرة من الأسماك بسدس محصول القطر المصرى •

ومن طريف ما يروى عن أسماك بحيرة المنزلة ما ذكره المقريزى من أنه فى سنة ثمـــان وسبعين وثلاثمائة صيد باشتوم تنيس حوت طوله ثمانية وعشرون ذراعا ونصف ذراع ، من ذلك طول رأسه تسعة أذرع ، ودائرة بطنه مع ظهره خمسة عشر ذراعا ، وفتحة فمه تســـعة وعشرون شبرا ، وعرض ذنبه خمسة أذرع ونصف ، وله يدان يجذف بهما طول كل يد ثلاثة أذرع ، وهو أملس أغبر غليظ الجلد مخطط البطن ببياض وسواد ، ولسانه أحمر وفيه خمل كالريش طوله نحو الذراع يعمل منه أمشاط شبه الذيل ، وله عينان كعينى البقر • وكان من أمير تنيس أبو اسحاق بن لدبه ان أمر به فشق بطنه وملح بمائة أردب ملح ، ورفع فكه الأعلى بعمود طويل من الخشب ، وكان الرجل يدخل الى جوفه بثقاف الملح وهو قائم غير منحن ، وحمل الى القصر حتى رآه العزيز بالله •

وروى المقريزى أيضا : انه فى ليلة الجمعة ثامن عشر ربيع الأول سنة تسع وسبعين وثلاثمائة ، شاهد أهل تنيس تسعة أعمدة من نار تلتهب فى آفاق السماء من ناحية الشمال ، فخرج الناس الى ظاهر البلد يدعون الله تعالى حتى أصبحوا ، فخبت تلك النيران ،وفيها صيد ببحيرة تنيس حوت طوله ذراع ، ونصفه الأعلى فيه رأس وعينان وعنق وصدر على صورة أسد ، ويداه فى صدره بمخالبه ، ونصفه الأدنى صورة حوت بغير قشر • فحمل الى القاهرة •

مواسم صيد السمك :

يظهر ان كل جهة من البحيرة تتواجد فيها أنواع مخصوصة من الأسماك، فمثلا الجزء الجنوبى الغربى وهو المكان المعروف ببحيرة أم الريش والجهات والمصارف القريبة منها والواقعة فى الأجزاء الباقية من الشواطىء الجنوبية الغربية من البحيرة يمكن اعتبارها مصايد نيلية ، ويصـــاد منها اللفش واللبيس والبنى والراى وأنواع نيلية أخرى من فصيلة البياض والقرموط أما الأصناف البحرية فانها تميل دائما الى التواجد فى المناطق القريبة من مدخل البحيرة • وأما صنف البلطى فيكثر وجوده فى جميع أجزاء البحيرة •

وكثرة الأسماك المصيدة وقلتها تتبع فصول السنة ، فيصاد الطوبار بكميات عظيمة فى الصيف ، ولكن فى أشهر الخريف يبتدىء فى الاستعداد للهجرة من البحيرة حتى انه لا يبقى فى أواسط ديسمبر الا الأسماك التى لا يكون قد تم نضج بويضاتها (بطارخها) ، وأما الشبار فبالعكس فيقل المصيد منه فى الصيف الذى هو وقت تفريخه ، وهو يقضى طول الوقت بين الحشائش والبردى والحفر التى يعدها لهذا الغرض فى الطين .

وفى وقت انخفاض الفيضـــان فى الخريف تظهر الأسماك الصغيرة فى البرك بكميات وافرة جدا ، وفى أثناء ديسمبر ويناير وفبراير يكون معظم الصيد . وتصاد الحناشة والقاروص غالبا من شهر ديسمبر الى شهر مايو ، والصنف الأول يصاد النوع الأبيض منه بالشباك عند هجرتها (من نوفمبر الى مارس) والنوع الأصفر يصاد بالسنار المطعوم بالسمك البطحيش . وبعد شهر ابريل لاتصاد منه كمية تذكر بهذه الحرفة .

وأما القاروص فيصاد اما بالسنار الغير المطعوم أو بالشباك وعنـدما تقع الواحدة منها فى الشباك تحفر لها طريقا تحتها ، فيبحث عنها الصياد بأصبع القدم ويغطس وراءها . وفى شهر ديسمبر ويناير تكون على وشك قذف بطارخها ، وحينئذ يرتفع ثمن الأنثى منها لما فيها من البطارخ .

الطيور المـــائية :

يوجد ببحيرة المنزلة أنواع مختلفة من الطيور المائية أهمها : الغر ـ الحمراوى ـ الزرقاوى ـ البلبول ـ الخضيرى ـ أبو منازل ـ الشرشير ـ الرقاب ـ البجع ـ البشاروش .

وهى تصاد فى الفترة بين أول نوفمبر لغاية مارس من كل سنة .

ويكثر تواجدها فى الجهات الغربية للبحيرة بالقرب من مصبات الأنهر والمصارف التى تكثر فيها الحشائش والمراعى .

وتقدر مساحة الأجزاء التى تتواجد فيها الطيور بربع مساحة البحيرة تقريبا .

مراكب الصيد والنقل بالبحيرة :

نظرا لاختلاف المراكب بالبحيرة ، واختـلاف الأغراض التى تستعمل فيها فقـد قسمت الى درجات يشتغل بكل منها عدد محدود ، وتقدر الرسوم على المركب بحسب درجتها .

وفيما يلى بيان هذه الدرجات والأنواع والرسوم المقدرة على كل منها فى الوقت الحاضر :

الرسوم السنوية		الدرجة	عدد البحارة
مليم	جنيه		
—	١٦	أولى	١٢
—	٨	ثانية	٦
—	٤	ثالثة	٣
—	٥	مركب نزهة	
—	٣	مركب للنقل (مكارى)	
—	١	الصياد بالقدم	

وبصفة خاصة يجوز لأصحاب مراكب النقل الذين لا يشتغلون بمهنتهم طول السنة أن يدفعوا رسـما شهريا قدره ٢٥٠ مليما فى الشهور التى يعملون فيها بالبحيرة ٠ ويعمل فى البحيرة ٢٥٠٠ رخصة صيد ، ولمنطقة أم الريش ٣٥٠ رخصة صيد ٠

مراكب ممنوعة فى البحيرة :

من المقرر لصالح البحيرة ألا تصرف رخص للصيد والملاحة بها لأنواع المراكب الآتية :

١ ـ المراكب التى تسير بالماكينات أيا كان نوعها ٠

٢ ـ مراكب الصيد ذات القاع المسطح التى ليس لها قرينة (عمود مد) مهما كان مقاسها ٠

٣ ـ مراكب الصيد التى يقل طولها من القدم للمؤخر عن ثمانية أمتار ٠

٤ ـ مراكب النقل (المكارى) والنزهة التى يقل مقاسها من القـدم للمؤخر عن ١١ مترا ٠

ومع ذلك فالمركب ذات القاع المسطح والمراكب التى يقل طولها عن ثمانية أمتار يمكن الترخيص لها بالصيد فى بحيرة أم الريش فقط ، بشرط الا يسمح لها بالصيد أو السير فى أية جهة أخرى من البحيرة .

مناطق الصيد الممنوعة فى بحيرة المنزلة :

لما كانت الأسماك تأوى فى فترات تفريخها الى بعض أماكن البحيرة وخاصة فى اللجج الموجودة على شواطئها ، فقد رؤى محافظة على الثروة

المائية بها منع الصيد فى تلك الجهات تبعا لما تقتضيه المحافظة على محصول البحيرة ·

وقد كان المنع نوعان : منع دائم فى المناطق المشـــار اليها ، ومنع موقوت فى المنطقة المؤدية الى اشتوم الجميل فى الفترة التى ينتظر خروج أسماك البورى والطوبار فيها بما تحمـــله من البطارخ للفقس ثم العودة بصغارها الى البحيرة ·

فالصيد ممنوع بصفة دائمـــة فى جميع اللجج الواقعة على شواطىء البحيرة · وقـــد كان ممنوعا أيضا فى لجة سعيدة الواقعة بزمام نواحى البستان وكفر طبيخة وأولاد حمام وفى لجة الجولية الواقعة بزمام الطراحة والغوابين ولكن هاتين اللجتين قد تحولتا الى أراض زراعية الآن ·

وقد عدل المنع المؤقت فى منطقة اشتوم الجميل أخيرا بحيث يمنع الصيد منعا باتا فى فتحة اشتوم الجميل ولمسافة كيلو متر من ناحية البحيرة أو البحر · كما منع الصيد منعا باتا فى أية فتحة موجودة ما بين البحيرة والنيل أو بينهما وبين الترع والمصارف والمسافة كيلو متر واحد سواء من جهة البحيرة أو النيل أو الترعة أو المصرف ·

الفصل السادس

أهم طرق صيد الأسماك ببحيرة المنزلة

أهم طرق الصيد المستعملة ببحيرة المنزلة هى الآتى بيانها :

شباك الحبل :

هى عبارة عن غزل ذى طبقة واحدة مركب به قطع رصاص من الاسفل ولكنه بدون فل من الأعلى . ولاستعمال هذا النوع من الشباك فى الصيد تجتمع مراكب يكون بكل منها حوالى ٤٠ مترا من الغزل وتربط جميعها ببعضها وتأخذ مركبان منها جميع الغزل معهما وتبدآن برميه فى المياه كل فى اتجاه مضاد للآخر بواسطة صالات مصنوعة من البوص بحيث يأخذ الغزل شكل دائرة ثم يقف بعض صيادى هذه المراكب فى المياه على مسافات متناسبة لرفع الطرف الأعلى من الشباك فوق سطح المياه ، وعندما يتم وضع الغزل يأخذ باقى الصيادين بالضرب فى المياه لجلب الأسماك لداخل دائرة الغزل وحالما يتم ذلك تشرع بعض المراكب بسحب الغزل من طرفيه وبعضها يرفع (الكلس) من الوسط وذلك بجمع جانبى الغزل أحدهما على الآخر والصيادون الواقفون فى المياه يسيرون وهم حاملون الغزل الى أن يتقابلوا وبعد ذلك ترفع الحبال المركبة فى أسفل جانبى الغزل ثم يجمع الغزل على ظهر احدى المراكب من كلا الطرفين ٠

اللـــوات :

عبارة عن غزل ذى طبقة واحدة مركب به رصاص من الأسفل وفـل من الأعالى ولاستعمال هذا النوع من الغزل فى الصيد تجتمع طواقم مركبين ويكون بكل منهما نصف الغزل ثم يربط هذان النصفان أحـدهما بالآخر ويسير المركبان بالشراع مع رمى الغزل فى المياه على شكل دائرة وعندما تتم الدائرة يأخذ أحد المركبين كلا طرفى الغزل والمركب الآخر يأخذ الغزل من الوسط فى اتجاه مضاد للآخر وذلك لجمع جانبى الغزل أحدهما مع الآخر ثم ينزل بعض الصيادين فى المياه لجمع الأحبال المركبة فى أسفل الغزل وبعد ذلك تسحب الشباك على ظهر المركبين من كلا الطرفين .

الطوانس :

لاستعمال هذا الغزل فىالصيد يحتاج الأمر على الأقـــل الى خمسة مراكب لتشغيله وهو مركب من فرقة غزل ذى طبقة واحدة بدون رصاص وفل وفرقتين آخريين من غزل ثلاث طبقات ومركب مع كل منهما بوص لتعويمه على سطح المياه . ولاستعماله فى الصيد توضـــع الفرقة الأولى بشكل رأسى مثبت بالبوص على أبعاد متناسبةوالفرقتان الثانيتان توضعان أفقيا على سطح الماء وتأخذ قطعة الغزل ذى الطبقة الواحدة شكل نصف دائرة بحيث أن طرفيها يكونان شكلا حلزونيا وتربط كل قطعة من قطعتى الغزل ذى الثلاث طبقات كل واحـــدة من طرف الغزل المكون للشـــكل الحلزونى ، وبعد ذلك يقف مركبان فى محل مناسب لموقع الغزل ثم تتقدم المراكب الأخرى من مسافة بعيدة مقتربة نحو الغزل بقصد طرد الأسماك داخله ، وبكل من هذه المراكب طراحة يرمى بها داخل دائرة الغزل ثم يتقدم المركبان الأولان كل الى أحد طرفى الغزل ويبدآن بجمعه على ظهريهما .

خداوى الغيطان :

عبارة عن غزل ذى ثلاث طبقات مركب به رصاص من أسفل ولكن ليس به فل .و يوضع هذا الغزل فى المياه بشكل رأسى بواسطة غرايز من البوص مثبتة على أبعاد متناسبة على طول الغزل يترك هـذا الغزل فى المياه عدة ساعات ثم يرفع ثانيا وهكذا .

السنار بدون طعم :

هو عبارة عن خيط طويل لا يتجاوز مترا طولا ، مركب عليه سنارات كبيرة منزوع منها شفراتها ولا يزيد عددها عن ١٢ سنارة فى كل متر ،

وتوضع هذه السنارات فى قاع البحيرة بطريقة غير منتظمة وتثبت بغرايز على أبعاد متناسبة تترك فى المياه عدة ساعات ثم يجمع بعد ذلك بما يكون معلقا بها من أسماك ٠

السنار بالطعم :

هو عبـــارة عن قطعة من الخيط يبلغ طولها حوالى ١ر٥ مترا مركب فى أحد طرفيها سنارة ومربوطة من طرفها الآخر بغرزة مثبتة فى قاع البحيرة ، وتوضع الغرائز فى عـــدة صفوف وتطعم كل سنارة بسمكة صغيرة ، وتترك الخيوط فى المياه لعدة ساعات ثم تجمع بعد ذلك ٠

الطراحة :

هى عبارة من غزل رمية مخروطى الشكل يبلغ طوله من مترين الى ثلاثة أمتار ومركب به رصاص على طول دائرته السفلى ٠

الشبكة والكنف :

هما أيضا غزل رمية فيعتبران كأنهما طراحة ولكنهما يزيدان فى الطول على الطراحة ٠ الأول منهما مركب فى داخلها خيوط مثبتة فى محيط قاعدة المخروط للمساعدة على جمع الغزل وانطباقه على بعضه البعض والثانية بها جيوب من أسفل بدلا من الخيوط ٠

غزل النشة :

هو عبارة عن غزل ذى ثلاث طبقات مركب به رصاص من أسفل وفل من أعلى ولتشغيل هذا النوع من الشباك تستعمل عادة مركب واحدة يكون بها من ١٠٠ الى ١٥٠ مترا من الغزل وارتفاعه يجب ألا يزيد عن ٧٥ سنتيمترا ويستعمل هذا الغزل لصيد البلطى ٠ وطريقة استعماله أن يرمى الغزل فى المياه بحيث ينتهى عند طرفيه بشـــكل حلزونى ثم تخبط المياه بالمدارى ثم يبدأ بجمعه ٠

غزل الجمبرى :

هو غزل من طبقة واحدة ليس بها رصاص من أسفل ولا فلين من أعلى ويتكون من جزءين ، الجزء الأول ويطلق عليه المداد وهو غزل طوله ١٥٠ مترا وارتفاعه ١٥٠ سم ٠ وينصب فى المياه مستقيما على شـــكل رأسى ومثبتا على غرائز من بوص لا تقل المسافة بين كل غريزة وأخرى عن متر

واحد ولا تزيد ماجته عن ٣٥ عينـــا فى الذراع ، والجزء الثانى وهو الصندوق كالمداد تماما فى نوعه وارتفاعه الا انه ينصب على شكل دائرى مفتوح عند تلاقيه بأحد طرفى غزل المداد ولا تزيد ماجته عن ٤٥ عينا فى الذراع .

غزل الحنشان :

غزل الحنشان هو جرافـــة ذات كيس وأجنحـــــة بها فل من أعلى ورصاص من أسفل وطول الـكيس حوالى ثلاثة أمتار وماجته ٤٠ عينا فى كل ذراع وطول الأجنحة ٧٥ مترا وماجتها ٣٥ عينا فى كل ذراع

ومن أهم طرق الصيد المفيدة التى ألف اسـتعمالها صيادو عزبة البرج انهم يصطادون دائما مع بعضهم جماعة واحدة . أى أنه من ٦٠ الى ٨٠ مركبا تشتغل معا وكل مركب ترمى شبكتين طول كل منهما ١٨ مترا وبذا يكون مجموع طول شباك جملة المراكب المشتغلة معا يربو على ٢٠٠٠ متر فى مساحة ٢٥٠ فدانا ، فهى كشبكة هائلة الحجم يشتغل فيها ٣٥٠ رجلا وولدا ويستمرون فى عملهم أربع ســـاعات فى النوبة الواحدة ومتوسط ما يصاد فى هــــذه النوبة فى فصل الصيف ٣٠٠٠ أو ٣٥٠٠ كيلو جرام .

وقد اعتاد صيادو بحيرة المنزلة على الاشتغال باشتراك مراكبهم مع بعضها وهــــذه الطريقة توفر عليهم كثيرا من ثمن الشباك ، وعنـــدما يشتغلون بحرفة الدبة لصيد الشبار فى الشتاء تنضم كل ثلاثة مراكب لبعضها .

طرق الصيد الممنوعة :

يمنع فى بحيرة المنزلة استعمال طرق وآلات الصيد الآتى بيانها :

١ ـ غزل الهبلة
٢ ـ غزل الجرافة
٣ ـ غزل رفيع
٤ ـ غزل بلة
٥ ـ غزل خداوى بورى
٦ ـ غزل خداوى طوبار
٧ ـ غزل القشور
٨ ـ غزل قطاع
٩ ـ غزل طارة
١٠ـ غزل قنيار

هذا علاوة على منع الصيد بطريق الحوش والسدود والزلاليق .

الفصل السابع

أهم طرق صيد البط ببحيرة المنزلة

سبق أن قلنا أن صيد الطيور المائية كان منذ أقدم العهود شديد الارتباط بصيد الأسماك ، لدرجة أن هناك كلمة مصرية معناها (صيد الأسماك والطيور المائية) .

وقلنا أيضا ان لصيادى بحيرة المنزلة طرقا غريبة فى صيد البط .

ونأتى فيما يلى على أهم هذه الطرق :

١ – الصيد باللبدة :

وذلك بأن يقام خص صغير وسط نباتات الغاب والهيش ، ليختفى الصياد خلفه فيصطاد الطير بالبندقية عندما تقترب من موقعه .

وكثيرا ما يقف الصيادون خلف اللبدة ليلا ، ويقلدون أصوات الطيور ، فتقبل عليهم ، فيصطادونها بالبندقية .

٢ – الصيد بالتغريق :

وهى أن يضع الصياد فوق رأسه شكل طير مستعار ، ثم يغطس فى الماء حيث يندمج فى جماعة الطير العائمة على سطحه ، ثم يقبض

ومما يعمد اليه الصيادون فى هذه الطريقة انهم يدهنون الصالات فى الليالى المقمرة باللون الأبيض لـكيلا تراها الطيور فتهرب .

استعمال الطرق المذكورة :

تستعمل طريقة الصيد بالعلفة فى جهة غيط النصارى ، وتستعمل ضريقة الصيد بالزرة فى جهة اشتوم الديبة .

أما الطرق الأخرى فتستعمل فى جهات مختلفة من بحيرة المنزلة .

الفصل الثامن

دراسة حديثة

بيئــة بحــيرة المنزلة (١)

بحيرة المنزلة ــ هى احدى بحيرات خمس ، ترصع الجانب الشمالى من أرض الوطن وتقع فى شمال شرقى الدلتا ، ولقد كانت تعرف قبلا ببحيرة « تنيس » نسبة الى بلدة بها . كانت ذات تاريخ ومدنية معروفة ومازالت تحمل هذا الاسم جزيرة مشهورة بالبحيرة .

وقد كان يقطع البحــيرة ثلاثة من أفرع النيل الســبعة التى كانت تنهى النيل العظيم وتصب فى بحر الروم . وهذه الأفرع الثلاثة هى : البيلوزى والتانيتى والمنديسى . وتثبت المصورات القديمة ، التى عملها مؤرخون معاصرون ، منهم المعلم جرجس القبرصى (٢) فى القرن السابع الميلادى ، أى ابان فتح العرب لمصر والتى أعاد طبعها سمو الأمير عمر

(١) نقلا عن الـكتاب السنوى التاســع للمجمع المصرى للثقافة العلمية بقلــم الدكتور عبد الحليم منتصر .

(٢) هو مؤرخ بيزنطى يعتبر تاريخه أدق تاريخ وصفت به مصر ويمكن اعتباره وصفا لحالتها عند استيلاء العرب عليها لقربه من تاريخ دخول العرب بها فى سنة ٦٤١م ـ سنة ٢٠هـ .

طوسون : أقول تثبت هذه المصورات هذه الحقيقة بجلاء وهى ان فروع النيل هذه كانت تقطع البحيرة فى طريقها الى البحر .

والمعتقد أن البحيرة ليست بحرية الأصل بمعنى انها ليست مكونة من ماء البحر ، ولـكنها تكونت نتيجة لتجمع مياه النيل ، فى هذه البقعة المنخفضة التى تحتلها ، ولقد اختلط ماء النيل بماء البحر التى كانت تدفعه الرياح الشمالية ، والشمالية الشرقية ، والشـمالية الغربية ، وهى الغالبة فى هذه الجهة ، ويؤيد هذا الرأى تربة قاع البحيرة المكونة أغلب الأمر من الطمى الذى يحمله النيل والرمال التى تحملها مياه البحر مع أصداف القواقع والقشريات الأخرى . فالتربة هناك مزاج من هذا كله ، كما أن ماء البحيرة ليس ملحا أجاجا كماء البحر فينسب اليه وهو فى الوقت نفسه ليس عذبا فراتا كماء النيل . انما هو بين بين وان كان الى العذوبة أقرب خصوصا اذا وزن بماء البحر .

ويقول «هيرودت» ان فرع دمياط قد حفره الانسان وانه انما زاد اتساعا على حساب البيلوزى والتانيتى ، فقد سدت فوهتا هـذين الفرعين لتجمع الغرين عنـدهما لمواجهة الرياح الشمالية الشـديدة لهما والتى كان من أثرها رجوع مياهها لتغذى النيل الرئيسى ، ولتزيد فى مياه فرع دمياط .

ويقول الجنرال «اندروسى» أحد الأعلام الذين صاحبوا نابليون اثناء حملته على مصر ، وقد أتى على وصف دراسى ممتع لهذه المنطقة فى أحد أجزاء الـكتاب الجامع الذى قام بوضعه فى سنة ١٧٩٩ العلماء الذين صاحبوا الحملة وهو كتاب « وصف مصر » يقول « أندروسى » فى معرض الحديث على بحيرة المنزلة ان أطول أقطارها هو ذلك الذى يصل دمياط على شاطئها الغربى ببلوز على الشـاطىء الشرقى ويبلغ طوله ٨٣٨٥٠ مترا ، وان أقصر أقطارها هو ذلك الذى يصل المطرية فى جنوبها ، ببور سعيد فى شمالها ، ويبلغ طوله ١٧٠٠٠ متر وذكر أن « تنيس » كانت أكبر جزر البحيرة . وأنها كانت آهلة بالسكان وكذلك كانت جزائر « ابن سـلام » وكوم الذهب وغيرهما . وتحدث عن مـاء البحيرة فقال أنه أقل ملوحة من ماء البحر وانه يستعمل للشرب فى زمن الفيضان . وذكر ما رآه من نباتات ملحية عصيرية تنمو على شواطىء البحيرة ، وعلى حفافى جزرها .

ولم يكن عمق البحيرة ليجاوز المتر الا حيث مجرى فروع النيل التى كانت تقطعهـا فماؤها ليس بعيـد الغور . وقد اعتبر « اندروسى » الفتحتين اللتين تصـلان البحيرة بالبحر وهما « الديبا وأم فارج »

اعتبرهما تمثلان فتحتين للفرعين المنديسى . والتانيتى ، وقد رأى عدا هاتين الفتحتين ، أخرى صغيرة بينهما . أما الأرض التى تفصل البحيرة عن البحر فانما هى طريق ضيقة متعرجة كانت تصل دمياط ببلوز ويبلغ طولها نحو أثنين وتسعين من الكيلو مترات .

وما أظن أن البحيرة قد زارها كثيرون منذ أيام نابليون لأغراض علمية دراسية . اللهم ما ورد عن زيارة بعض الأجانب أيضا مثل مشلر وشتكر وغيرهما عن بعض نباتات البحيرة . ولعل كثيرين غيرهما قد زاروها بغية التعرف للأسباب التى من أجلها فقدت البحيرة أهميتها كمصيد عظيم للسمك . فقد كانت الى عهد قريب ذات شهرة فائقة بسمكها العظيم الوافر ، ولكن شهرتها تلك قد زالت تقريبا . ودالت دولتها وأصبح انتاجها من هذه الناحية ضعيفا غاية الضعف لايكاد يقاس الى ما كان عليه فى الأيام الخالية .

وأخيرا جاء دور الجامعة وتحدد مجال كلية العلوم لتقدم حسابها بين يدى الوطن وليعمل رجالها على دراسة أرضه شبرا شبرا وليدرسوا خواصه جيولوجيا وكيميائيا وطبيعيا ونباتيا وبيئيا . وليقولوا بعدئذ لأبناء وطنهم « هاؤم اقرءوا كتابيه » .

وبحيرة المنزلة واسعة الأرجاء ممتدة الرقعة تبلغ مساحتها بضع مئات من آلاف الأفدنة يحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط وشرقا قناة السويس . ويحدها من الجهتين الجنوبية والغربية مديريتا الشرقية والدقهلية وتقع بين خطى عرض ٣١ و ٣٠ و ٣١ وخطى طول ٤٥ و ٣١ و ٢٠ و ٣٢ .

وهى قليلة الغور قلما تجاوز المتر عمقا الا فى مجرى قناة المنزلة الذى يصل غيط النصارى قرب دمياط والمطرية ومنها الى بور سعيد وتستغل هذا الخط شركة المنزلة . وتسير فيه قوارب بخارية فى مواعيد منتظمة .

وشواطىء البحيرة كثيرة التعاريج وتتصل بالبحر عند اشتوم الجميل ويقع على بعد بضعة كيلو مترات غرب بور سعيد . وهناك فتحات أخرى تصل بين البحيرة والبحر منها « حلق الوحل » والدنا والدوابير .

كما أن كثيرا من الأفنية والترع والمصارف تصب كميات هائلة من الماء فى البحيرة وخاصة فى زمن الفيضان . فالواقع ان كل المصارف الرئيسية والفرعية التى تقع فى شرقى الدلتا تصب فى البحيرة . ومن

هذه أبو جريدة ، فارسكور ، بحر البقر ، الرياح ، السرو ، باغوص باشا ، المقطع والهرنة وغيرها .

وبالبحيرة عـــدد عظيم من الجزر بعضها طينى « كفرى » وبعضها رملى ، وبعضها الآخر مكون فى الغالب من أصداف وبقـايا القواقع . منها ما هو ممتد الرقعة ، كبير المساحــة ، قد تصل مساحته الى نحو الخمسين فدانا ، وأغلب هذه الجزر كفرية من ابن سلام وكوم الذهب والجصة وغيرها والمعروف ان هذه الجزر كانت آهلة بالسكان فى الأيام الخالية وبعضها له تاريخ يعرفه أهــل تلك المنطقة ويتوارثه الخلف عن السلف ويتنادرون ويتفكهون بأخبار أسلافهم من قطان البحيرة . أما الجزر الرملية فهى فى الغالب صغيرة الحجم نوعا ، وان اختلفت أشكالها وتباينت مساحاتها الى غير حد ، كذلك الجزر ذات الأصداف والقواقع متعرجة غير منتظمة ، وهناك غير هذه وتلك مساحات هائلة جدا تمتد طولا فى غير عرض كبير ويسمونها « بو » كبر الرمل والخمار وسورجان وغيرها ، وان أحدها لتبلغ مساحته ماينوف على المـائتى فدان .

هذه فذلـكة تاريخية وصفية عن البحيرة ، وقصارى فيما يلى من حديث أن أعرض صورة لبيئة البحيرة من حيث مائها ومناخها وأنواع نباتاتها ، وصورة حياته فيها ، وسأعرض الى جانب ذلك بعض التحاليل الكيميائية للمـاء والتربة مبينا أثر ذلك فى الجزر المختلفة على توزيع النباتات واطرادها كثرة وقلة . مشيرا بنوع خاص الى المحتوى المائى وكمية اللمبال ، والكربونات، ثم الأملاح والكلوريدات والقلويات ثم درجة الحموضة أو القلوية أى ما اصطلح على تسميته « الجهد الايدروجينى » ثم أبين العناصر التى تحويها التربة من جير وحديد ومغنسيوم والومنيوم وصوديوم وبوتاســيوم وغيرها . كذا أنواع الأملاح التى تكثر بهــا من أزوتات أو فوسفات أو كبريتات أو سلـكات ، ومن الخير بعد ذلك كله أن نعرض لأثر هـــذه الظروف على الضغط الاسموزى للعصير الخلوى بالنبات ، على أن ذلك كله سيكون موجزا للنتائج فحسب ، دون أيراد التفاصيل العملية .

ميــاه البحيرة :

قدمنا أن ماء البحيرة غدق غير بعيد الغور ولهذا كان لنا أن نتوقع أن تكون صفحتها أبدا هـــادئة وأديمها سليما غير متكسر لا تصطخب امواجها الا أن تهب نسائم الآصال والأسحار فتلاطم الأمواه فى دعة ورفق ولا تنفك مع ذلك تفعل فى هـــذه الشواطىء الهاربة فتزيد فى

تآكلها وتعاريجها أو تضيف اليها فى بعض الأحيان ، على أن شـواطىء الجزر لا تتعرض لتـأثير متساو فى هذا الصـدد وذلك لأن الرياح الشمالية ، والشمالية الشرقيـة أو الشمالية الغربيـة هى الغالبة ، ويستبين أثر ذلك على شكل الجزر وتعاريجها وانحناءاتها ، واتجاهاتها وكذلك على توزيع النباتات ، فبعض الشواطىء عامر بالنباتات ، وبعضها غامر لا أثر لها فيها ، اللهم الا من أعواد متناثرة متكسرة لا تكاد تبين . وقد تأيدت هذه الحقائق لدى برحـلة جوية فوق البحيرة علاوة على الملاحظات التى كنت أسجلها فى رحلاتى فى القوارب البخارية أو الشراعية التى كنت أرتاد بها أرجاء البحـيرة من حين لآخر فى فصول السنة المتعاقبة ، بل وفى سنين متتابعـة ، وليس فى البحيرة تيارات مدية وجزرية منتظمة على الصورة التى نعرفها فى البحر الأحمر مثلا أو فى غيره من البحار والمحيطات ولـكن تتعرى الشواطىء أحيانا ، اذا دام هبوب الرياح فى اتجاه واحد مدة طويلة .

وطبيعى أن تختلف درجة حرارة المـاء فى الصيف عنها فى الشتاء فهى تتراوح فى الصيف بين ٢٥ و ٣٠°م وفى الشـتاء بين ١٠ و ٢٠°م ولـكنها لا تتغير على الأغوار المختلفة وذلك لقرب القاع فليس ثمة سبيل لتغير ذى بال ، أما التيـارات المـائية الدافئة فلا وجود لهـا فى مياه البحيرة .

وكذلك قدرت درجة ملوحة المـاء فى فصول السنة المختلفة وفى مناطق كثيرة بالبحيرة وخاصة قرب الجزائر التى عـكفت على دراستها نباتيا وتحليليا فظهر أن درجـة الملوحـة تتراوح بين ٨ر٠٪ وبين ١٪ وهى تعتبر عذبة كما قدمنا اذا ووزنت بمياه البحر الأحمر أو الأبيض حيث درجة الملوحة حوالى ٤ ٪ وتنخفض هذه الدرجة كثيرا بالقرب من مصاب الترع والجداول التى تنتهى الى البحيرة ، فتصل هذه النسبة الى ١ر٠ ٪ و ٣ر٠ ٪

وماء البحيرة قلوى التفاعل يبلغ جهده الايدروجينى حوالى الثمانية ويزيدها قليلا فى بعض الأحيان ، وبه نسب لا بأس بها من الكلوريدات والكبريتات والبيكربونات وقليل من الأزوتات وبه أيضا الصوديوم والجير والمغنسيوم والسليكون .

وقـد قـدرت الوزن النوعى للماء بواسطة «الايدرومتر» فى زمن الفيضان ثم فى غير الفيضان ، وقد ظهر ان الوزن النوعى للماء لا يجاوز

النوعى للماء كلما توغلنا فى البحيرة ولكنه لا يجاوز ١٫٠٢ أو ١٫٠٣ فى مدى بضعة كيلو مترات وترتفع هذه النسبة فى أيام التحاريق الى ١٫٠٥ أو ١٫٠٧ ولم يثبت وجود تغيرات مافى الوزن النوعى على الأعماق المختلفة وان ثبت ان الوزن أميل الى الزيادة فى قليل من الأحوال . وذلك حيث يزداد العمق .

مناخ البحـــيرة :

جو البحيرة ساحر فى الصيف ، بارد فى الشتاء ودرجات الحرارة التى تسجلها المراصد المثبتة فى غير جهة من أطراف البحيرة تنبىء عن هذا الاعتدال الذى أشرت اليـــه . وقد كان متوسط درجات الحرارة العالية خلال سنوات ١٩٣٣ و ١٩٣٤ و ١٩٣٥ بين ٢٥ و ٣٠°م . أما متوسط الدرجات المنخفضة فيتراوح بين ١٤ و ٢٠° م . وهى على كل حال تختلف فى حدود ضيقة جدا خلال كل فصل من فصول السنة .

ودرجة الرطوبة عالية ، فيندر أن تسجل أقل من ٧٠ ٪ أو أكثر من ٨٠ ٪ ومتوسطها خلال السنوات الثلاث هو ٧٣ ٪ و ٧٢ ٪ و ٧٦ ٪ على التعاقب .

أما كمية المطر فانها ضئيلة ، وان كانت تعتبر عالية بالنسبة لجهات أخرى كثيرة فى أرض الوطن . فهى لا تكاد تقـــارب أو تجـاوز العشر سنتيمترات فى أى من هذه السنين الثلاثة وكان مقدارها ٥٧٫٨٨٫٤٧ من المليمترات فى السنين السالفة الذكر ، والشهور المطيرة فى السنة هى يناير وفبراير وديسمبر وتتراوح كمية المطر المتساقط ابان أى منها بين ٥ و ٢٠ ملليمترات . وقليلا ما تصل هذه الكمية الى ثلاثين ملليمترا وقد يتساقط خلال ابريل ومايو بعض المطر ، وهى حالة نادرة ، وفيما عدا ذلك فلا يجاوز المطر صفة الرذاذ ان وجد . وأما سرعة الرياح فانها تختلف بين عشرة وعشرين كيلومترا فى الساعة ، وهى فى الغالب نسائم هادئة لا تصل الى درجة الريح العاصف الا قليلا ، كما أن منطقة البحيرة ليست عرضة لأيام غائمة متصلة بمعنى ان ضوء الشمس وهو الذى يهمنا من الوجهة النباتية ، لا يحتجب عن النباتات فى النهار كثيرا بل ان ذلك نادر ويكون فى الشتاء فقط .

نباتات البحيرة :

قبل أن نستعرض نباتات بحيرة المنزلة ، يجدر بى أن أتحدث اليكم فى ايجاز عن حياة النبات فى الماء وما قد يعتـوره من صـعاب فى هذا

الوسط الجديد وكيف يتغلب عليها ، ويوائم بين حاجات عيشته وظروف بيئتــــه .

فالنبات فى المـاء غيره على الأرض ، فالضوء الذى يتسرب اليـه مختلف ، ألم يتعرض فى طريقه الى النبات المغمور الى عوامل الانعكاس والانكسار والامتصاص ؟ ثم أى أطياف الضوء سيصل الىالنبات المغمور؟ والحرارة فى المـاء أليست غيرها على الأرض ؟ والهواء فى الماء غير الهواء الجوى ، بمعنى ان الأكســـجين الذائب فى المـاء قليل جدا اذا ووزن بأكسجين الهواء ، وكذلك التيارات المـائية والعناصر الذائبة فى الماء . كل هذه ظروف تكتنف النبات المـائى ، ولابد له لـكى يحيا حياة هانئة هادئة ، أن يتخذ لهذه الحياة أهبتها، فيختزن الأكسجين، ويقاوم الأملاح الـكثيرة فى هذا المـاء الملح ويستعد لمواجهة التيارات المـائية ، ويتكاثر بطرائق خاصة .

وجـــدير بى كذلك أن أشير الى فقر البحـــيرة المدقع فى الطحالب ، وأنه ليبدو غريبا حقا ان رقعة هائلة كهذه من الماء لايوجد بها الا بضعة أنواع من الطحالب • ولا تكاد ترى بها الا فى أماكن قليلة ، وأغلب هـذه الدياتوم وكلادوفرا وانترو مرفا • وبعض الطحالب الزرقاء ، ولعل السبب فى هذا الفقر الطحلبى انما يعزى الى تغير ملوحة الماء المستمر نظرا لتعاقب فصلى الفيضان والتحاريق أو لأثر مياه المصارف التى تصب فى البحيرة وما قد تحمله هذه من بقايا أملاح لفظها النبات • ولفظتها التربة أو لعلها هى طبيعة تربة البحيرة الهاربة المتفككة التى لايهىء مربى صالحا للطحالب•

وأستطيع أن أغزو ما أصاب البحيرة من جدب بالغ كمصيد للسمك ، الى هذا الفقر الطحلبى الشنيع حيث لايجد السمك غذاء يقتات به • كما أنه لايجد من الطحالب واضرابها هذه الأوكار التى قـــد يتخذها للبيض أو الأفراخ وبالجملة فأنا أرى أنه لابد أن تكون ثمة علاقة وثيقة بين الفقرين السمكى والطحلبى • ولقد كان الثانى ضربة لازب للأول •

وقد يسألنى سائل • وفيم اذن كان غناء البحيرة الســابق ومجدها العظيم كمصيد للسمك الى ثلاثين أو أربعين سنة خلت ؟ فأقول انما أصاب الأرض الزراعية فى شمال الدلتا وخاصة فى هذه البقعة من فلاح ونجاح ، وذلك لنظام الصرف المتسق ، انما صاحب هذا النجاح فى الأرض خسارة فى البحيرة وهذا الغنى فى الزراعة • فقر فى السمك ، أعنى ان الفـلاح قد أثرى على حساب صائد السمك والمسألة بطبيعة الحال نسبية ، فليس هناك ثراء وخاصة فى هذه الأيام • وبالجملة فقد كان هذا التقدم الزراعى النسبى على حساب البحيرة •

ونباتات البحيرة ملحية . عصيرية فى الغالب . وهى قليلة الأنواع كثيرة الأفراد ومن أكثرها انتشارا الحجنة ، والبردى ، والغاب ، والسعد ، والسمار ، والزينة ، والسويدة ، والدلق ، والخريزة ، والذنون ، والبوال ، والملوح والحدادى ، والندوة ، والطرفة وغيرها . ويمكن تقسيمها حسب طبيعتها وشكلها الى نباتات ذات ريزومات أو سوق أرضية زاحفة مثل الغاب والحجنة والسعد والثمار . ولها سوق هوائية أخرى وتحت شجيرات ورقية كالملوح وهو نبات معمر ذو أوراق عصيرية داكنة وتحت شجيرات لا أوراق لها كالحدادى والخريزة والزيتة .

قدمت ان بالبحيرة جزرا مختلفة الأشكال والحجوم والتربة . وقد يكون من المناسب أن أعرض صورة لنباتات احداها ودرجة انتشارها ففى جزيرة كوم الذهب التى تبلغ مساحتها بضعة أفدنة ويبلغ ارتفاع الماء الذى يحوطها من ٢٥ر٠ الى ٨ر٠ مترا عن سطح البحر أما أرض الجزيرة نفسها فانها على ارتفاع ٢ر٠ الى متر أو مترين وترى مغطاة فى بعض الجهات بطبقة رقيقة من الأملاح . أما النباتات فانها كثيفة على الشاطىء ، وتقل تدريجيا كلما ابتعدنا عنه فى مسافة لا تكاد تجاوز المتر أو المترين أحيانا ، وقد تصل الى بضع عشرات من الأمتار فى بعض الأحايين . وبينما نرى الشاطىء عامرا بالحجنة ، اذا هى تنقرض على قيد خطوات منه لتظهر أفراد الملوح والخريزة والزينة « والانيولة » والحدادى ، وعندما نتقدم مبتعدين عن الشاطىء تختفى هذه النباتات رويدا . وتظهر الندوة قليلة أول الأمر ثم تكثر . لتختفى بعد ذلك . وبعمل مربعات متنقلة من الشاطىء حتى تختفى النباتات يمكن عمل حساب لبيان توزيع الأفراد النباتية فى المربعات المختلفة . وبمقارنة هذه الأرقام فى فصول السنة المختلفة يمكن معرفة مواسم ازدهار هذه الأنواع النباتية ودرجة انتشارها ، ولقد لوحظت كثرتها ونموها زمن الفيضان . وقد أتيحت لى زيارة الجزيرة بضع مرات فى مواسم مختلفة . كذلك جزيرة الحصة وسورجان والدمالون . وابن سلام . وتنيس وغيرها من الجزائر ذات التربة الطينية . كذلك جزر غنيم وحجر وبتلتيش . والظهر وبطيخ وجميل والسمريات والجزائر والقرعة وعجاج ودياب وحطب والسرجة وغيرها من الجزائر ذات التربة الرملية القوقعية .. وكنت آخذ فى كل زورة عينات من التربة بعضها بالقرب من السطح والآخر على أعماق تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ سنتيمترا ملاحظا أن تكون هذه العينات من الطبقات التى يتفرع الجذر فيها ويأخذ منها حاجته من الماء والأملاح . وذلك كى أقدر المحتوى المائى فيها فى درجة الحرارة العادية ثم فى درجة ١٠٠° م ثم لتعيين كمية الدبال التى تحويها التربة . ولتقدير كمية الكربونات باستعمال جهاز خاص هو «الكالسيمتر»

كذلك معرفة درجة الحموضة أو القلوية • ثم تقـــدير نسبة الأملاح التى بالتـــربة ومن أى العناصر والمركبات تتكون ثم نسبة الأملاح القــلوية والكلوريدات فيها حيث تأثير هذه وتلك على درجة الحموضة أو القلوية (الجهد الأيدروجينى) معروف لأنه ينخفض بزيادة أملاح مثـل كلورور الصوديوم أو كلورور الكلسيوم بسبب حدوث تبادل قاعدى بين الأملاح المضافة • والعناصر المعدنية التى بالتربة • ويختلف هذا الأثر حسب نوع التربة • فهو فى الأرض الطينية الثقيلة أبلغ منه فى الأرض الخفيفة • وكانت طريقة تعيين الكلوريدات بوساطة التعادل مع محلول عيــارى من نترات الفضة • أما تعيين الأملاح القلوية (عدا الكربونات) فعن طريق المعادلة مع محلول عيارى من حامض الكلوردريك ، كما انى لجأت فى تعيين درجـــة الحموضة أو القلوية الى الطريقة اللونية أى بتأثير محاليل كشافة خاصة على محلول التربة الذى يحضر باذابة وزن معين منها فى خمسة أمثاله ماء متعادل ثم يرج مدى ساعة ويرسب فى آلة التركيز الطــاردة وذلك كى نحصل على محلول صاف نقيس درجة قتامة لونه عند اضـــافة الكشاف فنعرف منها مقدار الجهد الأيدروجينى المطلوب ، وهى طريقة لا غبار عليها مطلقا فى مثل هذا البحث المقارن وتصل دقتها الى جزء من عشرة أجزاء من الواحد الصحيح • أما الطريقة الكهربائية التى قد تصل الدقة فيها الى جزء من مائة أو ألف من الواحد الصحيح فليس ثمة ما يدعو اليها فى مثل هذه الحالة •• ولقد كان من المناسب كذلك تحليل التربة ميكانيكيا وايجـاد نسبة ذرات الرمل الى ذرات الطين وهذه وتلك توجد بحجوم مختلفةونسب متباينة فى هذه الجزر • وقد وافقت الجمعية الدوليـــة لعلم التربة سنة ١٩٢٧ على اتخاذ المقاييس الآتية وحدات لتميز أنواع التربة ومكوناتها :

النـــوع	القطـــر
رمل خشن	من ٢ — ٠,٢ مم
رمل ناعم	من ٠,٢ — ٠,٠٢ مم
طمى	من ٠,٠٢ — ٠,٠٠٢ مم
طين ناعم	من ٠,٠٠٢ — الى ما دون ذلك •

يطول بنا الحديث اذا أنا حاولت أن أستقصى النتـــائج التى حصلت عليها بمثل هذه التحليلات ، ولذا أرى أن من الخير أن أقتصر على اجمالها •• فقد بينت أن الشواطىء هى فى الغالب وحدها العامرة بالنبـات على أن هناك تدرجا بديعا كان يلاحظ دائما ، فالغاب والحنجة والبردى والسعد والسمار هى التى تعمر الشاطىء ثم تنقرض هذه بالتدريج وتظهر النباتات العصيرية الملحية مثل الملوح والخريزة والزينة والسويدة والذنون ثم تخف

هذه بالتدريج بعد أن تبلغ غاية تكاثفها ليظهر الحداذى الذى أثبت أنه أقدرها على احتمال الجفاف فقد كان المحتوى المائى للتربة التى ينمو بها هو الأقل • وبالطبع ليست هناك حواجز أو فواصل تحدد هذه المجاميع • فهى متداخلة مع بعضها بطبيعة الحال ، ولكن النسبة العددية التى أنتجها الحساب الدقيق بطريقة المربعات هى التى جعلتنا نرتب هذه النتيجة وأشباهها على توزيع النباتات فى جزر البحيرة •

ولقد كان النقص فى كمية الدبال ملازما أبدا للنقص فى المحتوى المائى وأثر الدبال على امتصاص الرطوبة والاحتفاظ بها معروف • كما أن نسبة الماء المتبقى بالتربة الطينية بعد تركها لتجف فى درجة الحرارة العادية تعتبرعالية اذا قورنت الى المحتوى المائى الكلى • أما نسبةالكربونات فى التربة الطينية فهى منخفضة ، وفى الحالات القليلة التى كانت تزيد فيها على ١٠٪ كان يلاحظ وجود آثار قواقع وأصداف فى التربة •

وقلوية التربة ظاهرة لا لبس فيها ولا ابهام انما هى متعينة واضحة، على انها تقل كلما تعمقنا فى التربة • ومن السهل الميسور تعليل هذه الظاهرة • اذا لاحظنا أن مصر بلد جاف وان جوها تسطع فيه الشمس الصاحية معظم أيام السنة وأن أمطارها نادرة مسرفة فى الندرة أحيانا ، على حين أن الجهات التى أشرت اليها فى أوربا وأمريكا مطيرة فيغسل المطر هناك الأملاح مبعدا اياها عن سطح التربة • أما فى مصر فان الحرارة والبخر نتيجة لها يرفع الأملاح الى الطبقات السطحية • ونحن عندما نتحدث عن الحموضة أو القلوية فى التربة انما نعنى بطبيعة الحال هذه الأملاح ذات الأثر الفعال فى ابراز هذه الحالة أو تلك وقد كانت هذه الدرجة تتراوح بين ٧ر٧ — ٢ر٩ فى أغلب الحالات •

أما درجة الملوحة فقد كانت عالية جدا وقد نيفت فى كثير من الأحيان على ٢٠٪ وهى نسبة مرتفعة • ما فى ذلك من شك • وسنرى كيف استطاع النبات الملحى العصيرى أن يزدهر فى هذه الظروف وكيف أمكنه أن يواجهها وأن يتسلح لمجابهتها • وكانت نسبة الكلوريدات من هذه الأملاح مرتفعة كذلك • تزيد على خمسين فى المائة فى كثير من الحالات • أما الأملاح القلوية عدا الكربونات فكانت قليلة كما ثبت وجود الأزوتات والكبريتات والفوسفات وأملاح الأحماض العضوية •

وقد ثبت كذلك أن الضغط الأسموزى لعصير النبات يزداد مع زيادة الأملاح ونقص كمية الماء الذى بالتربة • ولكنه مع ذلك صفة خاصةبالنبات يتغير بظروفه فقد كان الضغط الأسموزى لنبات الخريزة يوازى ٨٤ر٥٥ من الضغوط الجوية فى مكان ما على حين كان فى بقعة أخرى ٢٢ر٥٦ ثم ٨ر٦٧ فى جهة ثالثة ثم ٤٦ر٧٨ فى مكان رابع •

ويتضح أثر المحتوى المائى وكمية الأملاح على الضغط الأسموزى من النتائج الآتية التى حصلت عليها بالنسبة لنبات واحد فى أماكن مختلفة وهو نبات الخريزة :

محتوى مائى	درجة ملوحة	ضغط اسموزى
٣٢ر٠٥	٢ر٧	٥٥ر٨٤
٣٥ر٢٢	٣ر٨	٥٦ر٢٢
٣٠ر٧٨	٥ر٨	٦٧ر ٨
٢٤ر٨	١٧ر٦	٧٨ر٤٦

ولما قيست الضغوط الأسموزية لنباتات الأنيولة والخريزة والزيتة والملوح التى تنمو فى بقعة واحدة ، ظهر انها ٦٤ر٨٢ ، ٥٥ر٨٤ ، ٤٩ر٦٥ ، ٤٣ر١٥ على الترتيب ، وفى بقعة أخرى حيث الخريزة والحدادى كان ضغطاهما ٥٦ر٢٢ ، ٧٢ر٣٥ على الترتيب .

تدلنا هذه النتائج على ما أسلفت الاشارة اليه من ارتفاع الضغط الأسموزى كأثر لارتفاع كمية الأملاح . ولا شك أن النباتات الملحية العصيرية تستغل هذا الضغط الأسموزى العالى ليعاونها على انتزاع الماء من المحلول المركز فى الأرض كما أنه يساعدها على حبس الماء والاقلال من النتح .

أما فى الجزر الرملية ، فان المحتوى المائى قليل بالنسبة لما كان عليه الحال فى الجزر الطينية ، وهذا طبيعى لسهولة بخر الماء من تربة الأولى، كما أن كمية الدبال قليلة هى الأخرى أما نسبة الكربونات فانها عالية وخاصة فى الجزر التى تكثر فيها بقايا القواقع والأصداف ، ولقد تميزت هنا أيضا قلوية التربة ولكنها بزت فى ذلك الجزر الطينية . وتتفق هذه النتيجة وما ذهب اليه «ورسلى» عام ١٩٢٩ فالجهد الأيدروجينى يزيد مع زيادة المحتوى الطينى للتربة وذلك فى غير الأراضي الملحية . أما فى الأراضى الملحية فان النتيجة تطابق هذا الذى ذكرت عن أراضى البحيرة . ولا ينبغى أن ننسى فى هذه الحالة خاصة ، اثر كربونات الجير التى تخلفت عن الحيوانات القوقعية فهى تغمر الجزر الرملية وتزيد فى هذه الأملاح القاعدية . ودرجة الملوحة فيها قليلة نوعا ولكن نسبة الأملاح القلوية عالية عنها فى الجزر الطينية .

ومما ينبغى ملاحظته ازدهار النوع النباتى الواحد فى ظروف مختلفة ودرجات متباينة من المحتوى المائى والدبال . والكربونات والأملاح والجهد الأيدروجينى وغيرها من العوامل ..

وتستبين هذه الظاهرة من النتائج الآتية لنبات « الملوح » :

العينة	كمية البلل	الكربونات	الجهد الأيدروجيني	الأملاح	الكلوريدات	القلويات
٨٨	٣ر٥	٥٤ر٦	٨ر٠	٢ر٤	٥٣ر١	٠ر٣٧
٨٤	٤ر٨٨	٥٩ر٦	٨ر٢	١ر٦	٤٨ر٨	٠ر٩٣
٩٠	٦ر٥٧	٦٣ر٧	٧ر٨	١ر٤٥	٢٩ر٨	١ر٠٢
١٠	٨ر٢٩	٢٣ر٢	٧ر٨	٢ر٧	٢٤ر٤	٠ر٨٥
٤٢	٢ر٨٤	٤ر٦٨	٨ر٠	٤ر٥	٥٥ر٦	٠ر٤٤

ونستطيع أن نستخلص من خلال البحث العديد من هذه الأمثلة التى تدل على مرونة النبات وعلى قدرته على الملاءمة بينه وبين ظروف بيئته.

كما أن تحليل التربة قد أثبت وجود الكلسيوم والفسفور والحديد ، والمغنسيوم ، والصوديوم ، والسليكون ، كذا الفوسفات ، والكبريتات ، والكلوريدات ، والكربونات ، وقليل من الأزوتات ، وفى بعض الحالات ثبت وجود الألومونيوم والاسترنشيوم وقليل من البوتاسيوم ، وتختلف نسب هذه العناصر بطبيعة الحال فى الجزر المختلفة تبعا لنوع التربة .

من الواضح اذن أن تربة البحيرة جيدة غير خالية من العناصر الضرورية لنمو النبات . وقد أحسنت الحكومة المصرية صنعا بتعميم مشروع الصرف الكهربائى فى شمال الدلتا ، والذى يرمى مع الزمن الى تجفيف مساحات واسعة من البحيرة ثم غسل ما بها من الأملاح وتهيئتها للزراعة .

يلذ للباحث أن يستقصى كيف أتيح لهذه المجموعة من النباتات الملحية العصرية أن تعمر البحيرة ؟ وهل كانت هذه المجموعة التى عمرتها أم لا ، أى منذ كانت ماحلة من أى أثر للنبات ؟

فمن المعلوم أن الطبيعة تهيىء للنبات ما هو بحاجة اليه من ماء عذب، يصب من السحاب فتهتز الأرض وتربى وتخرج خبأها، ومن أملاح بالتربة، يذيبها هذا الماء ، ويأخذ منها النبات حاجته ، وكذلك تهيىء له هذا الهواء الرقيق الذى يعمر ما حوله فيأخذ منه ما يروقه من غازات كالأكسجين للتنفس . وثانى أكسيد الكربون ليهيىء منه مع الماء فى ضوء الشمس غذاءه على طريقته .

ومثل هذا الكائن الذى لا تجد حياته قوانين ولا تكبح من جماحه تقاليد ، ولا يعترض حريته معترض، بل انه لينمو حيثما شاءت له الظروف

ويحط رحاله حيثما كان تنتشر بذوره فتذروها الرياح الى مكان ما • وعندما يسقيها الغيث ، أو يفيض عليها الماء من جدول ، ينزع رداء الخمول عن حواشيه ، وينفض غبار السبات عن أجزائه • وينهض ليعلن عن حياة كامنة ، وليستأنف جهاد أسلافه منذ أحقاب غابرة •

هذه هي حياة النبات ، حياة طبيعية لا صنعة فيها ولا اصطناع ولذا فان الجهاد بين أفراده يكون عنيفا ، ويكون الصراع بين جماعاته قويا مسرفا فى القوة حينا وذلك حين تكثر الأفراد وتشتجر الفروع وتشتبك الجذور ، ومهادنا حينا آخر وذلك اذا ما وجد بسطة فى الأرض ووفرة فى الماء وفسحة فى الجو •

وطبيعي أن مثل هذه الكائنات التى تحيا هذه الحياة الحرة لا بد من تنافسها وتناحرها ، ولا بد أن يحترب أفرادها اذا ما ضاقت سبل العيش فى البيئة التى تكتنفها من ماء وهواء وتربة ، فهى تتنازع تنازعا صامتا هادئا للحصول على أكثر ضوء تطيقه ، وأوفر غذاء تسيغه ، وأكثر ماء تحتاجه وأفسح مكان تجول فيه وتصول •

وطبائع النبات تختلف من حيث قدرة أنواعه على احتمال تغير البيئة فالنبات الأكثر مرونة ، الأقدر على التكاثر ، يستطيع أن يستعمر المكان الماحل قبل غيره ، وينشر سلطانه به قبل أن يعرف سواه طريقه اليه • فاذا ما بدأ احتلاله يؤثر على نمو غيره بطبيعة الحال ، وربما اضطر هذه الأنواع التى تلقيها الظروف فى طريقه الى الهجرة منه ، الى غيره من الأماكن• فالقدرة الاستعمارية للنبات تتوقف على شكله وطبيعة وأحوال البيئة الجوية • فلكل بيئة مرتبة خاصة من النباتات يلائمها النمو بها ، وفيها يفوز النبات الأكثر مرونة والأقدر على مغالبة الظروف ، الأقوى مراسا والأوفر انتاجا •

وعلى ذلك نستطيع أن نتصور بحيرتنا تلك وهى بعد بركة صغيرة أو مجموعة من البرك خالية تماما من الأنواع النباتية فانها تستعمر بالنباتات المغمورة تنمو متكاثفة على أغوار مختلفة من الماء ، كما ان أنواعا كثيرة من الطحلب والنباتات المائية المختلفة لا تلبث أن تعمر البحيرة ، ويرسب حول أجزائها ما تحمله روافد البحيرة من مصارف وجداول من طين ورمال ، كما ان بقايا هذه النباتات تتحلل وتتعفن مزيدة فى المواد الدبالية وتتجمع حولها الحيوانات المتحللة ، ثم تظهر النباتات العائمة أغلبها له ريزومات تسعى فى التربة • وأوراق عريضة عائمة على سطح الماء • وهى تكون أول الأمر على وفاق مع النباتات المغمورة ولكنها اذا ما تكاثرت وتفرعت حجبت الضوء عن النباتات المغمورة • فتنقرض هذه تدريجيا ويشاهد ذلك فى

المصارف القريبة من البحيرة التى يطفو على سطحها الزقيم والياسنت المائى وعدس الماء .

ثم يقل العمق تدريجيا بالقرب من الشاطىء وتظهر الجماعات البوصية التى تنمو كثيفة مكتظة كالحجنـــة والبردى والغاب والسمار وهذه تؤثر تأثيرا سيئا على الجماعات العائمة ولكنها تزيد فى التربة بما يتجمع حولها منها وتزيد فى الدبال وتمسك الشواطىء والجسور الهارية ، ثم تظهـر هذه الجماعات العشبية والشجيرية التى رأيناها فى البحيرة ملحيةعصيرية تتحمل هذه الظروف التى أوضحت تفاصيلها فى هذا الحديث .

وكذلك هى سنة الحياة ، فبعد أن كان المكان عامرا بالماء لا يرتع فيه سوى الطحلب ، اذا به أخيرا بعد عراك صامت عنيف ، وبعد مجالدة قوية، عامرا بهذه الأنواع النباتية التى رأينا طرفا من صورها ورسومها وطرائق صراعها فى سبيل الحياة الهانئة التى تحياها ، تعاقبت عليـــه الجماعات النباتية المختلفة واحدة بعد الأخرى حتى مكن فيه لأصلبها عودا وأعظمها احتمالا وأكثرها مرونة . وكذلك هى سنة الحياة .

وكذلك هى سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الفصل التاسع

بحيرة المنزلة
بين مصلحة المطرية ومصلحة خفر السواحل

كانت بحيرة المنزلة فى القرن التاسع عشر موضع اهتمام الدولة من حيث ما تستفيده الخزانة العامة من ايراد البحيرة · فأنشئت لها مصلحة قائمة بذاتها أطلق عليها اسم « مصلحة المطرية » تابعة لوزارة المالية كان يطلق على رئيسها « مأمور » فى حين أن عوايد الدخولية والملاحة والدخان فى تلك المناطق كانت محولة على محافظة دمياط ·

ومن بين من تولوا رياسة هذه المصلحة داود باشا وعثمان بك فهمى واسميعلوم بك (وكان هذا آخر من تولوا رياسة المصلحة المذكورة قبل الغائها) وأحيانا كان محافظ دمياط يتولى رياسة مصلحة المطرية أيضا وبذلك تولاها حسين باشا عاصم وشكيب باشا ومحمد كامل باشا وغيرهم ·

وكان نظام استغلال البحيرة فى عهد مصلحة المطرية يختلف عما هو جار الآن فقد كانت جهات مراح السنارة وأم الريش والجميل تؤجر بالالتزام أما باقى جهات البحيرة فالصيد فيها مباح بدون رخصة ولا

ضريبة بشرط أن الصياد يورد أسماكه الى حلقة المصلحة بغيط النصارى حيث يجرى بيعه وتتقاضى الحكومة ٦٥٪ من الثمن • ويخص الصياد ٣٥٪ فقط يخصم منها ١٠٪ للدخولية وضريبة الجبانات والذى يتبقى له بعد ذلك ٢٥٪ من قيمة صيده •

ولم يكن يسمح للصياد بالاستيلاء على جزء من أسماكه لطعامه أو طعام أسرته فكان عليه أن يشترى ما يلزمه من السمك الذى يباع بالحلقة بالسعر الذى يرسو به المزاد شأنه شأن أى شخص آخر فكان الصيادون يلجئون الى مختلف الطرق لتهريب بعض السمك من الرقابة فبعضهم كان يتناول السمك طعاما قبل دخول المركب الى الموردة وبعضهم كان يطهو الأسماك فى قدور أثناء وجودهم فى البحيرة ليأخذوه مطبوخا الى عائلاتهم• وكان من جراء ذلك أن موظفى مصلحة المطرية كانوا يدققون فى التفتيش ويتشددون فيه حتى بلغ من أمرهم ما يروى من أنهم كانوا يستعملون أسياخ الحديد يغمسونها فى الأوساخ ثم يدخلونها فى القدور التى تحتوى على السمك المطبوخ •

وكانت تعسكر فى أنحاء البحيرة نقط ثابتة تعرف بمراكب الخفر وبها كميات من الملح لتوزيعه على الصيادين لتمليح أسماكهم • وكان على الصياد أن يورد أسماكه لحلقة المصلحة كما أسلفنا • وضمانا لعدم تلاعبه كان يقضى النظام بأن كل صياد يتأخر ثلاثة أيام عن توريد أسماك للحلقة تصادر مركبه • فكان هذا الشرط الشديد يدفع الصيادين الى أن يقترضوا الأسماك من بعضهم البعض ليقدموه للحلقة حتى لا تصادر مراكبهم •

وكان من أثر هذه الشروط القاسية وتشدد مندوبى مصلحة المطرية مع الصيادين ان ثار الأهالى وهاجموا مصلحة المطرية وحصل شغب اضطرت الحكومة فى اخماده الى استخدام القوات العسكرية وحوكم زعماء الثائرين والمهيجين وكان من بينهم كثير من أعيان البلد ووجهائها وفى طليعتهم المرحوم حسن بك عزام (الذى كان عضوا بمجلس الشيوخ) ومحمود بك الريس وآخرون . وقد حكم على أكثرهم بالحبس لمدة ثلاثة أشهر عدلت فى الاستئناف الى شهر واحد .

وعلى اثر هذا الحادث ـ وكان فى آخر سنة ١٨٩١ ـ أنيط بمصلحة خفر السواحل المحافظة على ايرادات الصيد بالبحيرة ، مع بقاء مباشرة تحصيل الايرادات لمصلحة المطرية بحسب النظام الذى شرحناه .

وفى عهد رياسة اسميعلو بك لمصلحة المطرية ظلت الشروط المفروضة على الصيادين قاسية وكان التشدد كبيرا وفى الوقت نفسه

انصرف اسميعلو بك الى اللهو والمجون بالاشتراك مع مستشارى المالية والداخلية برمبل وغورست وغيرهما فكانوا يستعملون الاستراحة الفخمة « المقامة بغيط النصارى لاقامة المأمور » مباءة للفجور ، فتأذى الأهالى من هذه الحالة وبلغ تذمر الصيادين أشده فحدثت ثورة وهياج مرة ثانية . وهاجموا اسميعلو بك وكان فى مركب بالبحيرة وتعدوا عليه ودارت بينهم وبين رجال الحكومة معركة أسفرت عن قتل أحد الصيادين بعيار نارى .

ووصل أمر هذه الثورة وحوادثها الى الجهات المسئولة ، فتقرر الاستغناء عن خدمات اسميعلو بك مع منحه مكافأة وصدر الأمر العالى المؤرخ ١٨٩٧/١٢/٢٣ يعدل طريقة استغلال البحيرة من أول يناير سنة ١٨٩٨ تعديلا من شأنه ترك الصيادين أحرارا فى التصرف فى محصولات صيدهم على أن تصرف للمراكب رخص تحصل بموجبها رسوم سنوية تدفع على أقساط شهرية ، وقسمت المراكب من حيث الرسوم الى ثلاث فئات : مراكب النقل « مكارى » ورسومها ٣٦ جنيها ، ومراكب الصيد بالشركة « مقايا ومعامل » ٣٠ جنيها ، ومراكب الصيد الوحادة « لا يزيد أفرادها على ثلاثة » رسومها ١٥ جنيها .

وألغيت مصلحة المطرية من أول يناير سنة ١٨٩٨ وألحقت أعمال تحصيل الرسوم الجديدة وصرف الرخص الى ادارة الأموال الغير المقررة التابعة لوزارة المالية ، وظلت مصلحة خفر السواحل قائمة بأعمال المراقبة والحراسة .

ثم فى آخر سنة ١٩٠٢ ألغيت ادارة الأموال الغير المقررة ، فأنيط بمصلحة خفر السواحل أيضا تحصيل رسوم الصيد ، وأقساط الالتزام فى الجهات التى كانت معطاة بالالتزام .

وقد انتهى التزام مناطق الصيد ببحيرة المنزلة لغاية سنة ١٩٠٣ ما عدا اشتوم الجميل فقد انتهى التزامه فى سنة ١٩٠٥ — وبعد ذلك عممت طريقة الصيد بالضريبة السنوية فى جميع المناطق .

الفصل العَاشر

حركة التحسين الفنى والادارى لشئون الصيد فى بحيرة المنزلة

عنيت مصلحة خفر السواحل من بدء اضطلاعها بشئون المصايد بأن تعمل على رفع مستواها وأن تتخذ السبل المؤدية الى زيادة الثروة المائية والمحافظة عليها ودرء الأخطار التى تصيبها .

ولذلك أنشأت منذ زمن بعيد قسما لمباحث الأسماك تطور فيما بعد فصار ادارة أبحاث المصايد ثم معهد فؤاد للأحياء المائية والمصايد ، ثم معهد علوم البحار والمصايد واستخدمت له خبراء أجانب ، فتولى رئاسته الأستاذ باجيت ثم المستر جنكتر ثم الأستاذ ويمبنى .

وفى خلال ذلك الحين كانت قد أوفدت بعوث مصرية للتخصص فى الاحياء المائية ، فما أن آتت ثمارها حتى تولى المصريون الخبراء رئاسة قسم مباحث الأسماك (١) وهم على الترتيب : الدكتور حسين فوزى

---

(١) ويرجع الفضل فى احلال الاخصائيين المصريين بدل الاجانب الى المغفور له اللواء احمد كامل باشا مدير مصلحة خفر السواحل والذى أصبح فيما بعد وكيلا لوزارة الحربية والبحرية .

والدكتور محمد كامل الصبى والدكتور ابراهيم عبد الجليل أبو سمرة هذا غير مساعديهم من الأساتذة والخبراء ، يقومون بالتجارب والبحوث التى تؤدى الى زيادة الثروة المائية وتحسين أنواعها .

وقد كان لهذه الحركة المباركة نصيب كبير من العناية ببحيرة المنزلة وسائر البحيرات .

فأنشئت لخدمة بحيرة المنزلة محطة جمع الزريعة فى القابوطى وهى على فتحة توصل بين قناة السويس وبحيرة المنزلة ، وهذه الفتحة عبارة عن ممر ضيق طوله عشرة أمتار بعرض متر واحد ، ويتجه تيار المياه فى هذه الفتحة من البحيرة الى القنال وبالعكس ، تبعا لارتفاع المنسوب فى كليهما ، وفى الحالة الأولى تجتذب المياه كميات وافرة من زريعة البورى والطوبار .

وكان لا يكتفى رجال المحطة بأن يتركوا للمياه أن تنقل الزريعة الى البحيرة بل أنهم يجرفون الزريعة الى البحيرة بواسطة هذا الممر كلما تجمع مقدار كاف منها .

وفى سنة ١٩٢٩ أنشىء على فتحة الرطمة محطة جمع زريعة أخرى وفتحة الرطمة توصل بين النيل وبحيرة المنزلة بالقرب من الرطمة . وكان يتولى رجال المحطة جرف زريعة الأسماك الصغيرة من النيل الى البحيرة بطريق هذه الفتحة كما تقدم شرحه .

وعلاوة على نقل الزريعة الى البحيرة بهذه الطريقة ، فان معهد الاحياء المائية كان ينقل اليها ملايين من الزريعة .

من ذلك انه نقل اليها فى سنة ١٩٣١ ما قدره ٢ر٢٤٩ر٦٠٥ من زريعة البورى والطوبار ، وفى سنة ١٩٣٢ ماقدره ١ر٣٧٦،١٩٠ وفى سنة ١٩٣٣ ما قدره ١ر٦٢٠ر٧٠٠ ، ومن أكبر الكميات ما نقل فى سنة ١٩٣٥ اذ بلغ ٥ر٩٤٣ر١٧٠ .

وفى عهد الثورة عممت محطات البحوث فى المياه البحرية والبحيرات والمياه الداخلية فأنشئت محطات بحوث فى بحيرات المنزلة والبرلس وقارون ، وفى بحيرة المنزلة أنشئت محطة بحوثها ببلدة المطرية لتقوم بالأبحاث التطبيقية التى تهدف الى المحافظة على موارد هذه البحيرة وزيادة انتاجها وذلك بدراسة أسماكها والشباك المستعملة فى صيدها بمنع ما هو ضار منها وتنظيم عملية الصيد بتحديد المناطق التى يمنع فيها بصفة دائمة أو مؤقتة وعلاقة ذلك بتحركات الأسماك داخل البحيرة

بحثا عن الغذاء أو تجمعها لتخرج من الفتحات المتصلة بالبحر بغرض التكاثر مثل البورى والطوبار والجمبرى بخلاف الأسماك البحرية الأخرى التى سبق ذكرها .

تحسينات ادارية :

وفى أغسطس سنة ١٩٢٤ صرح بزيادة عدد عيون الشباك من ٢٦ عينا الى ٢٨ عينا ثم الى ٣٥ عينا فى الذراع الواحد الذى طوله ٥٠ سنتيمترا .

ولكن رؤى بعد ذلك أن هذا القرار وان كان فى صالح الكسب الفردى للصيادين الا انه يؤدى فى النهاية الى الاضرار بصالح الثروة المائية العامة . فصدر قرار وزارى فى يناير سنة ١٩٣٥ بجعل الماجة ٢٦ عينا فى الذراع كما كانت . ثم تظلموا ثانية فسمح لهم بجعل الماجة ٣٠ عينا منذ سنة ١٩٣٧ ، ولكن أعيد الى ماجة ٢٦ عينا ثانية بعد أن ثبت أن ضيق عيون الشباك تؤثر على كمية المصيد من الأسماك سنة بعد أخرى .

وفى سنة ١٩٢٥ حدد أقل مقياس لفلايك الصيد فجعل ٨ أمتار . أما مراكب المكارى فلا تقل عن ١١ مترا طولا .

تحسينات مائية :

فى صيف ١٩٢٢ أجرت مصلحة الرى عمليتين مهمتين كانتا سببا فى تحسين حالة المصايد لبحيرة المنزلة . فقد فتحت قناة عند الرطمة ، وأخرى على مسافة قريبة من غرب الجميل .

فقد كانت منطقة الجميل قد أصبحت أقل عمقا من ذى قبل وترتب على ذلك أن القنوات الطينية التى تكون بوغاز الجميل صارت ضيقة جدا فضلا عن قرب غورها ، وعن تراكم الرمال والطين عند ملتقى مياه البحر ومياه البحيرة العميقة تراكما كون سدودا يتعذر أن يغطيها الماء بأكثر من عشرين أو ثلاثين سنتيمترا ، وشكى الصيادون من أن هذه السدود تمنع دخول الأسماك من البحر الى البحيرة .

ولذلك حفرت القناتان السابق ذكرهما ، باتساع ١٥ مترا وعمق مترين .

وقد عمل قطع الرطمة لتدخل المياه العذبة للجهة الشمالية الغربية من البحيرة التى كانت قد زادت ملوحتها بالنسبة لبعدها عن المصارف

وعن ترعة العنانية الواقعة جنوبى البحيرة . ويدخل من هذا البوغاز فى الفيضان العادى من ١¼ الى ١½ مليون متر مكعب من هذا الماء فى اليوم الواحد لمدة ثلاثة شهور .

وفضلا عن ذلك فانه للتوصل الى تحسين حالة الصيد فى هـذه البحيرة وزيادة كمية الميـاه العذبة بها وقت الفيضان أجرى فى آخر سنة ١٩٢٤ تطهير المجرى الكائن شمال فنار دمياط المعروف بقطاطيع الفنار .

وفى سنة ١٩٢٦ اشترى هاويس قناة العنانية من شركة الملاحة ببحيرة المنزلة وتنازلت الشركة عن حقها فى تلك القناة وفتح الهاويس ابان فيضان النيل فى شهر أغسطس من تلك السنة ، ومرت منه كميات عظيمة من مياه النيل العذبة تغذى البحيرة ، وقدرت عن ذلك الموسم بنحو ٥٠ مليون متر مكعب من الماء .

وما زالت هـذه التحسينات والانشاءات ترعى بالعناية والتطهير والزيادة حرصا على مصلحة المصايد بالبحيرة .

الفصل الحادى عشر

شركة الملاحة ببحيرة المنزلة

بتاريخ ٢٨ مارس سنة ١٩٠٤ نالت شركة بحيرة المنزلة للملاحة « وهى شركة فرنسية » حق امتياز بتسيير لنشات بخارية بين بورسعيد والمطرية ودمياط . وقامت لذلك بحفر قناة فى قاع البحيرة لهذا الغرض فكانت رفاصاتها تسير فى هذا الطريق المائى تقوم بنقل البضائع والمراكب بين بور سعيد والمطرية وغيط النصارى .

كما أن هناك مراكب نقل للأهالى فى غيط النصارى يدفع أصحابها ضريبتها لمصلحة المصائد نظير نقل بضائعهم من غيط النصارى الى بور سعيد والمطرية وبالعكس .

وامتياز شركة بحيرة المنزلة يخولها استخدام مراكب مع لنشاتها فى نقل البضائع . فكانت الشركة تستخدم بضع مراكب لحسابها مع اللنشات التابعة لها فى النقل . وبديهى كانت لهذا السبب تختص بأكثر البضائع ولا تترك لمراكب الأهالى الا القليل .

نشأ عن ذلك تنافس بين الشركة وبين أصحاب هذه المراكب مما أدى الى تخفيض نولون الشحن الذى يحصلونه من أصحاب البضائع وهم غالبا فئة التجار . وظل يتناقص هذا النولون ، وكان أصحاب البضائع هم المستفيدون من هذا التنافس .

ضج أصحاب مراكب النقل بالشكوى وتداخلت مصلحة خفر السواحل فى الموضوع ، فعقدت بينهم وبين الشركة اتفاقا كان من شأنه توحيد العمل بانضمام مراكب الأهالى الى مراكب الشركة بنظام الدور على أن تأخذ مراكب النقل ٣٠٪ من النولون . وحينئذ بدأت الشركة ترفع نولون الشحن شيئا فشيئا وانعدمت المنافسة فتحسنت حالة أصحاب المراكب وحالة الشركة معا .

غير أن التجار أصحاب البضائع بدءوا يجأرون بالشكوى من رفع الشركة لنولون الشحن ، ويطلبون فسخ هذا الاتفاق المعقود بين الشركة وأصحاب مراكب النقل لتعود الحالة الى سابق عهدها من تنافس بينهم مما يعود عليهم بالفائدة .

خطوط شركة بحيرة المنزلة

كان لهذه الشركة بالبحيرة خطوط ملاحية يبلغ عددها ١٢ خطا وهى:

١ ــ الخط من بور سعيد الى المطرية	مركز المنزلة
٢ ــ الخط من بور سعيد الى العصافرة	مركز المنزلة
٣ ــ الخط من بور سعيد الى النسايمة	مركز المنزلة
٤ ــ الخط من بور سعيد الى الشبول	مركز المنزلة
٥ ــ الخط من بور سعيد الى العجيرة	مركز المنزلة
٦ ــ الخط من بور سعيد الى الجمالية	مركز المنزلة
٧ ــ الخط من بور سعيد الى البصارطة	مركز فارسكور
٨ ــ الخط من بور سعيد الى أولاد حمام	مركز فارسكور
٩ ــ الخط من بور سعيد الى الروضة	مركز فارسكور
١٠ــ الخط من بور سعيد الى أبو جريدة	مركز فارسكور
١١ــ الخط من بور سعيد الى دمياط	غيط النصارى
١٢ــ الخط من بور سعيد الى عزبة البرج	دمياط

وجميع هذه الخطوط تقوم من موردة المكارى ببور سعيد وبعض هذه الخطوط يشتغل يوميا بمراكب مخصصة لنقل الركاب بصفة منتظمة وبعضها يقوم مرتين أو مرة فى الأسبوع .

والشركة المذكورة تملك سبعة لنشات وصندلين وتسير خطا منتظما للملاحة يقوم من بور سعيد الى المطرية فدمياط يوميا ولنشين آخرين يقومان يوميا للمطرية وبالعكس .

أما فيما يختص بالأجور فمحددة بمعرفة الشركة كالآتى .

	درجة أولى	درجة ثانية
من بور سعيد الى دمياط	٢٤٠ مليما	١٤٠ مليما
من بور سعيد الى المطرية	١٤٠ مليما	٨٠ مليما

وبما انه لم يكن هناك نظام خاص يحدد أجور الركاب أو البضائع بمراكب النقل كما انه ليس هناك حد أعلى لها فقد رؤى تحديد اجور السفر على مراكب خطوط الشركة على الوجه الآتى :

١ — من بور سعيد الى المطرية	٣٥ مليما
٢ — من بور سعيد الى العصافرة	٢٥ مليما
٣ — من بور سعيد الى النسايمة	٣٠ مليما
٤ — من بور سعيد الى الشبول	٣٠ مليما
٥ — من بور سعيد الى العجيرة	٣٠ مليما
٦ — من بور سعيد الى الجمالية	٣٥ مليما
٧ — من بور سعيد الى البصارطة	٥٠ مليما
٨ — من بور سعيد الى أولاد حمام	٥٠ مليما
٩ — من بور سعيد الى الروضة	٥٠ مليما
١٠ — من بور سعيد الى أبو جريدة	٥٠ مليما
١١ — من بور سعيد الى دمياط	٥٠ مليما
١٢ — من بور سعيد الى عزبة البرج	٥٥ مليما

كما تحدد حد أدنى قدره ٨٠٠ مليم لكل مركب من موردة بورسعيد الى غيط النصارى أو بالعكس ، ومبلغ ٥٠٠ مليم من بور سعيد الى المطرية أو من المطرية الى غيط النصارى أو بالعكس .

وتنفيذا للقرار الوزارى رقم ١٩٣٢/٦ وضعت مصلحة خفر السواحل قوة من قبلها فى موارد بورسعيد والمطرية وغيط النصارى

لتنظيم قيام المراكب المخصصة لنقل الركاب والبضائع بالدور وفى المواعيد وتنظيم الرسو . الا أن هذه النظم لم تحل دون حصول اختلاف بين الشركة وأصحاب مراكب النقل مما اضطر هذه المصلحة الى تشكيل أكثر من لجنة لفحص هذا النزاع ووضع اتفاق ثابت يرضاه الجميع . وكان من نتيجة ذلك أن اجتمعت لجنة من مندوبين عن مصلحة خفر السواحل ومصائد الأسماك وبحضور مدير الشركة ومندوبى أصحاب المراكب بدمياط وبور سعيد والعنانية والعصافرة حيث انتهت الى ما يأتى :

أولا : أن تكون رسوة المكارى الحالية قاصرة على تفريغ البضائع والركاب فقط .

ثانيا : أن يكون نزول الركاب وتصدير البضائع من رسوة الشركة وأرصفتها ببور سعيد .

ثالثا : تتقاضى الشركة ٣٠٪ من أجور الركاب و ٤٠٪ من نولون شحن البضائع .

رابعا : تقوم الشركة بتحصيل أجور الركاب ونولون شحن البضائع وتأخذ نصيبها المقرر وتحاسب اصحاب المراكب عن الباقى بموجب مستندات .

خامسا : كل مندوب أو مندوبين يقومون بضمانة البضائع لدى الشركة التى تشحن بمراكب جهاتهم حيث أن الشركة مسئولة عن البضائع أمام أصحابها .

وكان معمولا بهذا النظام حتى جاءت الثورة فانتهى عهد الشركة وأجريت اصلاحات حديثة ونظمت عمليات النقل والصيد وقضى على الاستغلال وانقضى عهد الشركة وآل كل شيء الى أيدى المصريين .

الفصل الثانى عشر

الحراسة فى بحيرة المنزلة

قلنا فى الفصل الثامن أن حراسة بحيرة المنزلة أسندت الى خفر السواحل فى سنة ١٨٩٢ ، مع بقائها حراسة صرفة لا دخل لها بتحصيل ايرادات البحيرة الى أن الغيت ادارة الأموال الغير المقررة فى آخر سنة ١٩٠٢ ، فتولت مصلحة خفر السواحل شئون البحيرة من جميع نواحيها ، سواء الادارية والمالية .

وقد قامت المصلحة بهذه الأعمال بوساطة النقط والقوات ووسائل المرور المائى والبرى والتنظيمات الادارية المختلفة ، حتى أصبح قسم بحيرة المنزلة من أكبر الأقسام التابعة للمصلحة ان لم يكن أكبرها .

وفى سنة ١٩٣٨ فصلت مصلحة المصايد عن مصلحة خفر السواحل ، وبمقتضى هذا تتبع قسم المنزلة الى مصلحة المصايد بقواته وأعماله ، وقد اتضح من هذه التجربة انه من العسير فصل قوات عسكرية وتوزيعها على مصلحتين تعملان فى مناطق متقاربة بغير أن يؤدى هذا الفصل الى تأثر الأعمال فى كلتا الجهتين . وبناء على ذلك تقرر فى سنة ١٩٤٦ وضع قوات حرس المصايد تحت اشراف مصلحة خفر السواحل من

النواحى الادارية والعسكرية ، فأصبحت بذلك قوات مصايد المنزلة تابعة لمدير عام مصلحة خفر السواحل شأنها كشأن قوات خفر السواحل ومن الطريف أن وزير التجارة الذى رأى ضم مصلحة المصايد لوزارته هو نفس الوزير الذى أعاد المصلحة المذكورة الى مصلحة خفر السواحل وصدر فى الحالتين قرار مجلس الوزراء بذلك وشرفنى أن كنت مديراً لخفر السواحل عند اعادتها اليها .

طريقة الحراسة فى بحيرة المنزلة :

يقع مركز قسم مصايد المنزلة بالمطرية دقهلية ، وتتبعه النقط والمأموريات الآتية :

مأمورية القابوطى ـ نقطة أم الريش ـ نقطة ملاحة البلاسى ـ نقطة الجمالية ـ نقطة العنانية ـ نقطة البصارطة ـ مأمورية غيط النصارى « أكبر مأموريات القسم » ـ نقطة الرطمة ـ نقطة الكاب ـ نقطة حدود الجميل « وهى تقوم فى وسط المياه بداخل المنطقة الممنوعة هناك » ـ نقطة البلاطة « على بحر البقر » .

وتوزع القوات على مركز القسم وهذه المأموريات والنقط ، وتحدد لكل وحدة منطقة حراسة فى دائرة اختصاصها ، حصرا لمسئولية كل منطقة فى الوحدة التابعة لها .

ويكلف قائد القسم وقواد الوحدات والضباط بالمرور الدورى والمفاجىء على مناطق البحيرة ، كما يفتش عليها مدير ادارة حرس المصايد ومفتشو المصلحة علاوة على تفتيش المدير العام .

ومن واجبات القوات فى البحيرة العمل على تنفيذ قوانين الصيد والضرب على أيدى المخالفين وصيانة الثروة المائية للبحيرة .

ما يتبع عند ضبط مخالفات الصيد :

عند ضبط مخالفات الصيد المنصوص عنها فى قوانين المصايد ، تحرر المحاضر اللازمة عنها ، وتبين فيها محل ووقت وقوع المخالفة وأسماء وألقاب وصناعة وسكن المخالفين ورقم المركب ومقدار الضريبة السنوية المربوطة عليها ورقم رخصة الصياد بالقدم ونوع المخالفة وظروف الضبط والمصادرة ، ومادة المرسوم أو القرار الوزارى الذى تنطبق عليه المخالفة ، وأقوال المخالفين ومقدار وأوصاف الأشياء التى ضبطت .

وتسلم نسخة من المحضر الى المخالف مصدقا عليها من الموظف الذى أجرى تحريره ، فى خلال ٤٨ ساعة على الأكثر من وقت حدوث المخالفة وضبطها ، أو لعمدة أو لشيخ البلد المقيم فيها المخالف ان تعذر تسليمها اليه شخصيا ، اما فى المدن فترسل النسخة الى المركز أو المديرية أو المحافظة بحسب الحالة .

وفى حالة المخالفات التى ينص عنها القانون بأن مرتكبها يحاكم قضائيا ، يسلم المخالف مع المحضر للبوليس لاتخاذ اللازم نحو محاكمته .

أما المخالفات الأخرى لأحكام لوائح الصيد وقوانينه فتتولى المصلحة تنفيذها بحجز المراكب وأدوات الصيد ، ومصادرة الأسماك والأدوات الممنوعة .

وتقتصر المخالفات التى يحاكم مرتكبها قضائيا على الصيد بدون رخصة فى البحيرات أو الصيد بطريقة السدود وهى اقامة حواجز حول بقعة من الماء ثم يفرغ الماء منها بواسطة أية طريقة ليستقر السمك بعد ذلك على أرض خالية من الماء للاستيلاء عليه بهذه الطريقة وفى هاتين المخالفتين تصادر جميع الأدوات المستعملة بواسطة الصيادين .

وحجز المراكب وأدوات الصيد فى المخالفات الأخرى يتراوح بين سبعة أيام وخمسة عشر يوما مع مضاعفة المدد فى حالة العود فى خلال سنة .

وسائل المرور فى البحيرة :

يتبع قسم بحيرة المنزلة قطع بحرية مختلفة من لنشات ، وفلايك شراعية وفلايك ذات مجداف ، وصالات بآلة ريح ، وصالات بدون آلة ريح .

وتقوم على هذه القطع دوريات غيط النصارى والقابوطى أحد اللنشات علاوة على استعمال الفلايك والدساقير ، اما فى النقط الأخرى فتستعمل الفلايك والدساقير فقط .

ولقد روعى فى تخصيص هذه الوسائل طبيعة عمق مياه البحيرة ، فالمناطق العميقة تمر بها اللنشات ، والمياه المتوسطة تمر فيها المراكب ، أما المياه الضحلة وخصوصا بجوار الشاطىء واللجج فتستعمل الدساقير .

حلقات الأسماك فى بحيرة المنزلة :

علاوة على الاشراف الفنى والادارى والعسكرى على مصايد البحيرة ، فقد أوكل قسم المنزلة الاشراف على ادارة حلقات الأسماك بالاشتراك مع المساعد الفنى المقيم بالمنطقة والتابع لمعهد الأحياء المائية ويعاونهما أحد مستخدمى المصلحة يسمى ناظر الحلقة .

وبيان هذه الحلقات كالآتى :

عدد

٢ بجهة المطرية
١ بجهة غيط النصارى
١ بجهة القابوطى
١ بجهة الكاب
١ بجهة الروضة دقهلية
١ بجهة الجمالية دقهلية
١ بجهة العزيزة
١ بجهة عزبة البرج

ولا يجوز التعامل فى الأسماك فى منطقة بحيرة المنزلة الا فى الحلقات المذكورة .

والنظام المتبع فى هذه الحلقات هو كالآتى :

يقدم السمك المراد بيعه الى الوزان التابع للمصلحة ، فيزنه ويعطى لمقدمه قسيمة من دفتر الوزن موضحا بها الرقم المسلسل الدال على دوره ووزن السمك ونوعه واسم مقدمه وأجرة الوزن ، ثم ينقل السمك الى المكان المخصص لعملية المزاد التى يتولاها ناظر الحلقة بمعاونة دلال من مستخدمى الحلقة ، ولا يسمح لمن رسا عليه المزاد باخراج الاسماك من الحلقة الا بعد دفع ثمنها للبائع أو اتفاقه معه على طريقة الدفع .

وهذه الحلقات لها فائدة مزدوجة : فائدة للصياد ، وفائدة قومية. فاما فائدة الصياد فانه يكون فى معزل عن استغلال التجار الجشعين له وضمان حقوقه .

وأما الفائدة القومية فما نص عليه القرار الوزارى من عدم السماح للمصابين بأمراض معدية بالاشتغال بنقل الأسماك فى الحلقات ، وامكان

التفتيش الصحى على الحلقة والأسماك فى أى وقت ، فضلا عن امكان الحصول على احصائيات مضبوطة عن محصول البحيرة مما يساعد على توجيه حركة التحسينات فى البحيرة .

وقد تطورت حياة الصياد وشئون الصيد فى العهد الحاضر بادخال تحسينات صحية واقتصادية وتعاونية وتعليمية مما يبشر بالخير العميم والصيد الوفير وعدم استغلال الصياد الذى كان يسود هذه الطبقة الصابرة المكافحة المجدة .

الفصل الثالث عشر

١٥ اكتوبر عيد فتح الحدود

ليست هذه الحدود دعائم ثابتة قائمة تفتح وتغلق ، وانما هو تعبير جرى على الالسن زمنا طويلا ، فاصبحت له صيفته العامة المستعملة ، ويعبر به عن اباحة الصيد فى منطقة كان ممنوعا الصيد فيها بصفة موقوتة .

وسبق أن ذكرنا فى الفصل السادس ان الأسماك تأوى فى فترات تفريخها الى بعض أماكن البحيرة تركن اليها وتبتغى فيها الهدوء الذى يساعدها على اداء وظيفتها الطبيعية فى سلام وامان ، وقلنا انه محافظة على الثروة المائية يمنع الصيد فى تلك الجهات تبعا لما تقتضيه المحافظة على محصول البحيرة فمن بين الأماكن ما يمنع الصيد فيه بصفة دائمة مثل اللجج الموجودة على شواطىء البحيرة ومن بينها ما يمنع الصيد فيه بصفة موقوتة .

وقلنا ان الصيد يمنع بصفة مؤقتة فى المنطقة المؤدية الى اشتوم الجميل فى الفترة التى ينتظر خروج اسماك البورى فيها بما تحمله من البطارخ للفقس ثم العودة بصفارها الى البحيرة فيمنع الصيد فى هذه

المنطقة بأى نوع من الشباك وبأية طريقة من الطرق فى المـــدة من أول مايو الى ١٥ اكتوبر .

ومن ثم كان ليوم ١٥ اكتوبر هذه الأهميـــة الكبرى لدى صيادى الأقاليم المحيطة ببحيرة المنزلة وخصوصا الجزء الشمالى منها .

ولم نغال فى كثير أو قليل حين سميناه « عيدا » فهو عيد حقا فى هذه المناطق ، تتزين له وتحتفل به ، وتتبادل التهانى والتباريك .

وفتح الحدود يستلزم منا كلمة شرح موجزة قبـــل أن نفيض فى وصف هذا العيد الحافل .

فان المنطقة الممنوع الصيد فيها التى أشرنا اليها تحرسها الفـــلايك الرسمية مدة المنع . وتقف هذه الفلايك عند حدود المنطقة الممنوعة حتى لا يتعداها الصيادون ولا تجتازها فلايك الصيد،وبذلك تكون هذه المنطقة هادئة لا حركة فيها ، وفى هذا ما يتيح للأسماك ان تسكن اليها وتنمــو وتفرخ ويكبر صغارها ، فتصبح المنطقة من أغنى المناطق بالأســماك ، اذ تلجأ اليها هربا من الضوضاء العالية التى يحدثها صيادو البحـيرة أثناء الصيد ، لأن صيادى المنزلة يتبعون فى الصيد طريقة تسبب ضجة كبيرة ويستفيدون من هذه الضجة لاقتناص الاسماك وذلك انهم يضربون الماء بالمدارى والهراوات فى أثناء الصيد اثارة للأسماك لتهرب فى الاتجاه المخالف لمواقع المراكب وبذلك تقع فى الشباك التى نصبوها لها علىشكل دائرة تلتف حول جزء من الماء . ويكون هرب الأسماك من الصيادين هو عين ما يقصده الصيادون من عمليتهم .

و « فتح الحدود » معناه انتهاء مهمة الفلايك الرسمية وانقضاء مدة المنع وبالتالى اباحة دخول المنطقة الممنوعة للفلايك والصـــيادين ومعنى هذا كله فتح باب الرزق الوفير الثمين اذ يباح للصيادين ان ينعموا بصيد الاسماك التى كبرت وسمنت واستمتعت بالفرصة المواتية أثنـــــاء مدة المنع . وبالفعل يصاد من هذه المناطق أدسم الأسماك وأشهاها وأكبرها .

ولذلك كان يوم فتح الحدود عيد للصيادين يرتقبونه من العــــام للعام عيدا للرزق والسعة وعيدا للفرج والتيسير ، عيـــدا للأمل الباسم الجميل ، عيدا ينشر الخـــير على رءوس الجميع ، يقلب العسر يسرا ، ويزيد اليسر تيسيرا ، ومن ارزاقه ينتظر الصيادون ان يسددوا ديونهم ويكسوا عيالهم ويمونوا بيوتهم بالسمن والأرز والعسل .

يعتبر هذا اليوم المشهود من أجمل المواسم التى تقع عليها العين بهجة وحركة وفرحة ونشاطا واحتفاء واحتفالا .

يستعد له الصيادون كل استعداد فما يكاد يؤذن بالاقتـــراب حتى يشغلوا بدهان سفنهم وتنظيفها وتزيينها ، ويتفنن كل صاحب سفينة فى تلوينها وتخطيطها والحرص على ان تحتفظ بمكانها ومكانتها تحت الشمس وتدور المنافسة والمفاضلة فتزيد الحماسة اشتعالا ويزيد التفنن ابداعا وابتداعا ويرغب كل أن تحرز سـفينته قصب السبق يوم العيد المقبل فى ميدان الاعجاب والفخر .

فتزال عن السفن ما راكمته عليها الأيام فى عام مضى ، وتنظف عنها آثار ما قام على ظهرها من احداث بين العيد والعيد ، ويؤخذ فى اصلاحها وترميمها ورأب صدوعها واعدادها للزينة الفاخرة التى ستبدو بها يوم العيد فى مسابقة الجمال ومعرض المفاخرة والمفاضلة .

فهذه الألوان البهيجة وهذه التخطيطات الجميـلة وهذه الرسـوم البارعة وهذه المناظر المبتكرة ثم هذا التنظيم المبدع الممتع المنتظر الذى تتخذه السفينة بين أترابها وأقرانها : علم هنا . وراية هناك وزينـــات ترفع فى هذه الناحية وفى تلك ــ كل هذا شغل الصيادين عندما يقترب العيد السعيد واليوم المنتظر .

وكلما زاد اقتراب اليوم المبارك المرزوق زادت الحماسة والمنافســة حدة وأوارا ووصل الاعداد والاستعداد الى درجاته القصوى لا يدخر فيه وسع ولا تقصر عنه همة ولا عزم .

وما تكاد تشرق شمس اليوم الموعود حتى تكون الزينات على أتمها ، والرايات المختلفة الأشكال والألوان قد رفعت على السوارى والأشرعة ، والسفن وقد بدت فى الوانها الصارخة ورسومها الجميلة أشبه بالعرائس المتبرجة أو بالطواويس المختالة تزهو وتتثنى وتتمايل ابرازا لجمالهـــا وابداء لزينتها واحتفاء بالعيد .

والموسيقات قد جاءت من كل فج ودخل عليها بدورها عامل المنافسة فأصبحت موضوعا للمفاخرة وبات أتقنهم زينة وأبلغهم فى الاحتفـــال بالعيد ذلك الذى استطاع ان يستجلب اكبر عدد من الموسيقيين وأدوات الموسيقى واستهدف ان تعزف موسيقاه احدث الألحان والأغانى فتنتزع اعجاب الناس وحديثهم .

وفى هذه الزينة وهذا الرواء تجتمع السفن عند أطراف الحـــدود فكأنما هو يوم الحشر الموعود لا تكاد ترى الماء من كثيرة ما يحمـــل من السفن المتراصة المتزاحمة الزاهية الجميلة فى الوانها وزيناتها وأجنحتها البيضاء المشرعة الضاربة فى الجو تتمايل وتهتز تجاوبا مع حركة الماء وحركة

السفن المتلاصقة المتدافقة بل لعله تجاوب مع الموسيقات الصادحة العازفة التى تتماثل وتتآلف حينا ، وتتنافر وتتضارب أحيانا .

والصيادون على ظهور السفن لا تسعهم الدنيا من الاحتفال بالفرحة المرتقبة وقد اقاموا فى كل سفينة احتفالا ضاجا صاخبا ، يعلو فيه الغناء الشجى ، يرتفع به صوت المغنى تارة فتجاوبه الجماعة بالرد والتهليل ، وترتفع به عقائر الجماعة كلها تارة أخرى مصحوبا بالتصفيق المتجاوب المتصاحب ، ولا تسل عن رقص الراقصين فهذا يوم لا تزمت فيه ولا تحفظ . انه يوم عيد الأعياد وكفى ..

وتلمح فى هذا الرقص الظريف كل موجات التاريخ قديمه وحديثه، وتبصر ذكريات الآباء والأجداد فى ندوات الأبناء والأحفاد ، وترى صورا متلاحقة متتابعة ، فيها لكل من الفراعنة والهكسوس والاغريق والرومان والعرب نصيب ونصيب كبير . وليس احفل بالمخلفات التاريخية من حركات يأتيها المرء على سجيته لا تعمل ولا تصنع .

وهؤلاء أولاد الصيادين وقد صعدوا على أطراف السوارى يغنون ويهللون يتطلعون الى كل شيء والى لا شيء . ويمثلون فى عصرهم الحديث صورة طريفة معبرة لما فعله اجدادهم فى الماضى السحيق عندما كانوا فى سفينة نوح عليه السلام . وطال عليهم انتظار المرسى على بر فكانوا يصعدون ليرقبوا الأفق ، فهل تلك هى رجعة الروح ؟.

وبين هذا وذاك تعج جنبات الماء بالصيحات العالية تتبادلها السفن عن قرب وعن بعد ، وتترى المداعبات والمعابثات وتتوالى فى رقة ولطف وفى فرحة دافقة ، لا تترك ضغنا ولا تخلف حفيظة . فهذا يوم العيد للجميع ومفتاح الرزق للجميع فالتسامح والتعاطف رائد الجميع .

منظر عالمى فريد يترك فى النفس أجمل الأصداء ويصور فرحة العيد صادقة قوية ، عيد يعود بالخير والرزق والبركات ، ويلقى بأبهج الأضواء على مستقبل الأيام فيثير أجمل الآمال والاحلام ويبشر بالرغد والمتعة طيلة العام فليس كثيرا أن يحظى بكل هذا الاحتفال والاهتمام .

يحج الى مشاهدة هذا الموسم البهيج أفواج وأفواج من الناس ، من مختلف جهات القطر ومن شتى أنحاء العالم ، كل يحرص على ألا تفوته بادرة من مظاهر هذا العيد ومراسمه . ليمتع النفس ويشرح الخاطر فالنفس الانسانية تتجاوب للفرح بالفرح والسرور .

وليست المتعة وحدها رائد الجميع ، ففيهم كثير من العلماء والباحثين الذين يستنطقون صور هذا الاحتفال وبوادر اهله ويستكنهون وراء

حركاتهم وسكناتهم صورا لها فى التاريخ أمثلة ونظائر ، ويدرسون النفس البشرية تحررها من عقالها وانطلاقها فى أجواء الحرية الجميلة ويسجلون من مثل هذا وذاك ما يحقق وقائع تاريخية او يصححها ويستكشفون فى هذا الاحتفال البارع الساذج بعض ما يبرز لهم الامجاد العظيمـــة التى نالتها مصر فى ماضيها المجيد عندما كان العالم ما يزال فى اطواء الغيب.

وما يكاد يحين الوقت وتصدر الاشارة باباحة الحدود حتى تنطلق سفن الصيد متسابقة متلاحقة كأسراب من الطير الكبير تتصايح وتتهاتف كأنما انبلج لعيونها الصبح بعد ليل غيهب طويل .

فترى الوجوه وقد عاها البشر ، والحماسة وقد أخذت بالنفـوس ، والعزائم والعقائر وقد ارتفعت حينا بالتهليل والتـــكبير والصـــلاة على الرسول ، وحينا آخر بالسب المازح والشتم العابث ، ويختلط هذا بذاك فى صورة تمثل النفس الانسانية فى دوافعها وحوافزها ونزواتها وبداواتها .

ولا تسل عن فرحة العودة فانها بدورها تكون عيدا بأسره هو عيـد النصر والفتح المبين . ترى عودة الظافرين وكيف يخرجهم الظفـــر عن وقارهم يدعوهم الى اعلان قصب السبق واذاعة الانتصار والغنائم فى صور من المفاخرة العنيفة والمغالبة فى ميدان المنافسة ولا عجب فالصيد فن والانتاج فيه يتوقف كثيرا على البراعة كانت دائما موضع المفـــاخرة من اقدم الأزمان .

والصيادون فى هذا اليوم يتخذون الى المفاخرة بالانتاج والتوفيق سبلا مختلفة وطرائق متعددة الاتجاهات ففيهم من يرفع عقيرته بالحمد والدعاء ، وفيهم من يرهقها بالمـدح فى نفسه وفى رجاله ، وفيهم من يكتفى بالتصفيق والتهليل ، واكثرهم يعلقون « الضـحايا » على أعواد السفن ... وما الضحايا المعلقة سوى بعض الأسماك الكبيرة التى قنصوها ورفعوها على السارية فى كميات كبيرة معلقة لتتحدث عن نفسها وتروى قصة النصر الكبير والرزق الموفق .

وتكمل حلقات هذا الاحتفال الشعبى السنوى الـكبير عند الموارد والحلقات عندما تقدم اليها السفن الموقرة بالأسماك لتضع حملها .

واذا كنا قد تحدثنا عن « احتفال البحر » فلا يقل « احتفال البر » عنه روعة وافتتانا ، فهذه السرادقات الجميلة المزينة ، وهذه الموسيقات الصادحة المتفننة ، وهذه الجموع الزاخرة المهللة الهاتفة ، كلهـــا تنتظر سفن العيد الظافرة المرزوقة ، فيتبادل القوم التهانى والتباريك ويسألون الله دوام الرزق والتيسير . فى كل منزل فرحة،وفى كل مقهى احتفال،

وعلى كل شارع وحارة اقيمت الزينات والاعلام ، وانغام الموسيقى والوان الفرح تملأ الجو بشرا وسرورا ، ومن بقى من الأطفال لم يصحب السفن فى غزوتها لم تفته فرحة الاحتفال بالعيد فقد لبس الجديد واشترك مع المشتركين فى « احتفال البر » فينتظم الأطفال فى مواكب كبيرة صغيرة تبعث فى النفس السرور والحنان وتنتزع العاطفة انتزاعا .

ولا أفيض أكثر من هذا فى وصف عيد ١٥ اكتوبر لدى صيادى المنزلة وأقاليمها ، فلن أفيه حقه من ابراز مفاتنه .

ونختتم هذا الفصل بصفحة من التاريخ القديم تصف هجرة الأسماك الى البحر فى موسم التفريخ ثم عودتها الى البحيرة وهو الموسم الذى أقيم من أجله الاحتفال الذى المعنا الى وصفه .

قال هيرودوت : « ... وفى فروع النيل على اختلافها أنواع من السمك تسبح أسرابا وتنمو فى الغدران ، فاذا ابتدأ فيها شعور المخالطة الجنسية وحان وقت التفريخ ذهبت أسرابا الى البحر فتمشى الذكور امام الاناث وتنثر فى طريقها السائل المنوى فتبتلعه الاناث ، وبه يكون العلوق فمتى حصل التفريخ فى البحر يعود السمك الى النهر ليرجع كل من الجنسين الى مسكنه الاصلى ، وحينئذ لا تكون الذكور امام الاناث بل تكون الاناث فى مقدمة الذكور .

« وبينما الكل فى الطريق تعمل الاناث ما عملته الذكور من قبل ، بان تطرح سراها ويكون فى حجم الدخن ، والذكور من ورائها تبتلعه . وكل هذه السرؤ أسماك صغيرة ، اما ما يبقى من الذكور لم تبتلعه فانه ينمو ويصير سمكا .

فاذا أخذ بعض هذه الأسماك وهى ذاهبة الى البحر يرى أن رءوسها تخدشت من الجانب الأيسر ، اما التى تعود الى النهر او الغدر فان رءوسها تتخدش من الجانب الأيمن ، وسبب ذلك بديهى ، اذ بذهابها الى البحر تلاصق البر من جهة اليسار ، وباياباها تدنو من الشاطىء نفسه وتلامسه وتستند عليه بقدر الامكان لئلا يحولها التيار الشديد عن مكانها » .

وبمناسبة هذا الجنوح التاريخى ، وما سمعناه ونسمعه من الصيادين والمراكبية على العموم وفى هذا الاحتفال بوجه خاص ، من قولهم « ياليصا » ويرددونها كثيرا ، نذكر تفسيرا طريفا قرأناه لبعض المؤرخين .

فيقال ان « ليصا » هو ابن سيدنا نوح عليه السلام ، ومعروف ان هذا الابن قد رفض ان يركب سفينة نوح مع الراكبين عندما فاض

الطوفان ، وقال « سآوى الى جبل يعصمنى من الماء » ولما اخذه اليم ، جعل من بالسفينة ينادون عليه ويبحثون عنه ويجأرون قائلين « ياليصا ، ياليصا » وعنهم اخذ الصيادون والمراكبية هذه العبارة .

وكان صيادو مصر مازالوا يبحثون عن ابن نوح الى اليوم .

ونتيجة للأبحـــاث التى أجريت على منطقـة الحدود ثبت ان منع الصيد المؤقت ليس فى صالح الصيادين وبذلك صرح لهم بالصـيد فى هذه المنطقة ـ وبهذا اصبحت هذه الاحتفالات فى ذكرى التاريخ .

الفصل الرابع عشر

كابوس على البحيرة

هذا الكابوس الرهيب اشبه ما يكون بالاخطبوط،يلتف على هذا المورد الثمين من موارد الثروة القومية ، فيهصر حيويتها ، ويعتصر معينها ، ويهدد بالخراب ارزاقها وخيراتها .

وهى حرب طاحنة ضروس بين رجال الأمن،واعوان الخراب والفقر، يدركها العقلاء من الصيادين واصحاب الرأى فى نواحى المنزلة،ويقدرونها حق قدرها ، ويتلهفون الى نتيجة حاسمة تقضى على هذا الاخطبوط المخيف ، وتجتث جذوره ، فيعود الرزق والبركة الى ما كان عليه ،فيعم الخير الناس والصيادين .

هذا الكابوس الذريع شبهناه بالأخطبوط ، لأن له أذرعة متعددة ، وهى بعد اذرع طويلة وطائلة ، كلما قطعت اطرافها عادت كما كانت وازدادت شرا وعتوا وعدوانا .

هذه الأذرع الهدامة المدمرة نجتزىء منها بذكر الآتى :

١ ـ استعمال الحوش والسدود والزلاليق فى جنبات البحيرة .

٢ ـ استيطان الاعراب بحواف البحيرة وجزرها .

٣ ــ قيام الفلاحين بنهب الأسماك فى مواسم الفيضانات .

٤ ــ احتكار كبار الأعيان لبعض مناطق البحيرة يذودون الناس عنها .

٥ ــ الصيد بسدود الغزل المخالف .

٦ ــ الصيد بالجوابى .

٧ ــ اتخاذ البحيرة طريقا لتهريب المخدرات .

ففى موسم زيادة مياه البحيرة ، تفيض المياه على شواطئها المترامية الأطراف ، وتغطى جانبا كبيرا من الأراضى المتاخمة لها ، فيلجأ العربان والمزارعون الذين يقيمون على حافة البحيرة الى اقامة حوش وسدود تحجز جزءا كبيرا من المياه بما فيها من الأسماك ، فاذا انحسرت المياه بانتهاء موسم ازدياد البحيرة ، امتنع على الأسماك القدرة على العودة اذ يحجزها الحوش والسدود .

السدود :

هى عبارة عن حاجز يقام من الطين أو البوص أو الأسمنت أحيانا ، يقام على طول الشاطىء يقدر قطعة الأرض المطلوب حجز المياه فيها . وهذا الحاجز تعلو عليه المياه عند فيضان البحيرة ، فاذا انحسر الفيضان كان المحجوز خلفه من المياه قليل الغور مليئا بالأسماك التى كانت تعج بها كميات المياه التى حجزت فى بادىء الأمر ، فيمكن الاستيلاء على الأسماك بغير عناء ودون حاجة فنية الى اجراءات الصيد .

الحوش :

والحوش (جمع حوشة) هى عبارة عن قطعة أرض على ساحل البحيرة واسعة النطاق والمدى ، يقام حول جوانبها الأربعة حواجز من البناء أو الأسمنت أو غيره ، فتكون بمثابة حوض كبير ، تعلو عليه المياه عند الفيضان فتملؤه ، ثم تنحسر فتخلف فيه من المياه بقدر علو الحاجز ، او بمثابة مستنقع قليل الغور به الكميات الكثيرة من الأسماك التى لا تستطيع العودة الى البحيرة بفعل الحواجز المقامة حول الحوشة .

ولا يفوتنا فى مجال الايضاح أن نذكر انه تقام فى السدود وحواجز الحوش فتحات تغطى بالسلك ، ومن هذه الفتحات تنزل المياه المحجوزة خلف السدود وداخل الحوش الى البحيرة بالتالى عندما يقل منسوب البحيرة بعد انتهاء فترة الزيادة ، حتى لا يبقى وراء السدود أو فى داخل الحوش الا الضحل من المياه ، وحتى يكون الاستيلاء على الأسماك أكثر يسرا وسهولة اذ تكون فى متناول اليد المجردة ، وبالطبع لا تخرج الأسماك من الفتحات لانها مغطاة بالسلك كما اسلفنا .

وكثيراً ما يحدث أن تكون الحوش والسدود فى منطقة تتوسط بين شاطىء البحيرة ومصرف من المصارف الكثيرة التى تصب فى بحيرة المنزلة مثل مصرف بحر البقر ومصرف حادوس ومصرف عــرنوس ومصرف رمسيس ، وفى هذا خراب للثروة المائية في هذه البحيرة . ففى هــذه المناطق تلتقى مياه النيل العذبة بمياه البحيرة ، وسمك البحيرة بطبعــه ميال الى الماء العذب منجذب اليه ، فنهرع الكميات الكبيرة من الأسماك الى هذه المناطق الدسمة الشهية للتغذى من المياه العذبة السائغة ، فتقع فى الشرك المنصوب ، وتنحسر المياه عنها فلا تستطيع العودة معها ويعز عليها الافلات حتى من يد طفل يمد يده فيلتقطها دون تعب .

الســـياحات :

هى عبارة عن برك قليلة الغور ملأى بالحشائش والبردى والبــوص ومستواها اعلى من مستوى مياه البحيرة فى اوقاتها العادية .

وهى تقع على شواطىء المصارف المتاخمة لشاطىء البحيرة ، وتعتبر مرعى خصيبا للمواشى من البقر والجاموس التى يتولاها قوم من العربان يحتكرون المناطق فيما بينهم ولا يصرح لغير صاحب المنطقة وعمــاله بالرى أو النزول فيها .

وعند الفيضان تغمر هذه السياحات بمياه النيل ، فتدخلها الأسماك النيلية مثل البلطى والطوبار والبورى والقرموط والشيلان والقشــور وغيرها فتستعمل الجوابى الكثيرة العدد فى صيدها والقضاء عليها ، كما يستعمل فى صيدها غزل الخداوى ، وكلاهما ممنوع ومدمر ، فضلا عما فيه من الصيد بدون رخصة .

ولكن هذا وحده لا يكفى العربى صاحب المنطقة ومحتكرها ، فيقيم على منطقته جسورا من الطين والبوص ، ويجعل لها فتحات من جهــة المصارف ومن جهة البحيرة ، فمن جهة المصرف لتغذيتها بالمياه العذبة ، ومن جهة البحيرة اصيد سمك البحيرة .

فيضع السلك على هذه الفتحــات ، ويصنع بجوارها ما يسمونه «الزلاليق» .

الزلاليق :

الزلاليق جمع « زليقة » ، وهى عبارة عن حفرة تكاد تكون مربعــة على هيئة صندوق بارتفاع متر تقريبا ، وتصنع من الأسمنت او الطــين او الخشب ، وباعلى هذه الحفرة المتينة الأجناب وحول فتحتها ما يشبه المصطبة ، وهذه المصطبة اعلى قليلا من مستوى الماء .

فاذا أراد العربى أن يصيد من سمك البحيرة يفتح باب السد قليلا ، فتنزل المياه منه الى البحيرة ، لان السياحات أعلى من مستوى البحيرة كما اسلفنا القول .

ولما كانت مياه البحيرة بها ملوحة ، ومياه السياح أعذب لانها من مياه النيل ، فان السمك الموجود بالبحيرة ينجذب نحو المياه الحلوة ويندفع صوبها ، فاذا اعترضته المصطبة قفز ليتخطاها ، كعادة الأسماك ، فيقع فى الزليقة أى الحفرة التى اسلفنا وصفها .

ومن هذه الزليقة يسهل جدا على صاحب المنطقة وعماله ان ينتشلوا الأسماك بواسطة الملقاف .

لهذه الأسباب وما وراءها من نتائج خطيرة تؤثر فى انتاج البحيرة بل تحارب نعمة الله التى يضفيها على عباده ، جهلا وبلادة وكسلا ممن يبغون ربحا عاجلا ضئيلا ، شبهنا هذا العمل الاجرامى بالسكابوس ، والاخطبوط .

وليس الصيد بهذه الطرق الا صيدا حراما هو جرف واستنزاف واكتساح ، وقضاء على مستقبل الثروة المائية المصرية ، ونهاية سيئة لمورد من أهم موارد غذاء الشعب والمستهلكين بصفة عامة .

فالسمكة فى مياه البحيرة لها الف فرصة وفرصة لأن تنمو وتفرخ وتعيش الى ان تنالها شبكة الصياد ، وهذه الفرص هى أساس الثروة المائية وليس مما يساعد على نمو الثروة المائية ان نستخرج الأسماك من مياه البحيرة بطريقة ما قبل أن تنمو ، بل وهى طور الصغر الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ولو اننا تركناها وهذه الفرص لكان لها مجال النمو الكافى الذى تصبح معه سمكة لها قيمتها الغذائية ، ولها قدرها على صحون الآكلين ، ولها بعد ذلك ثمنها الذى يعود على الصياد وعلى التاجر بالربح المجزى ، وان عشرات الأسماك الصغار الهزيلة التى تنتشل بهذه الطرق الضارة لا تساوى سمكة واحدة صيدت بعد نضوج ، لا فى الثمن ولا فى القيمة الغذائية ، فضلا عن الصالح القومى فى الافراخ والاكثار من الاسماك .

اما صيد الأسماك بالحوش والسدود والزلاليق ، فانما يجرى بطريقة عشوائية ، لا تفرق بين صغار الأسماك وكبارها ، بل اكثر ماتقتنص من الأسماك الصغيرة ، حتى وهى فى طور الزريعة ، وهذا يؤدى حتما الى استنزاف منابت البحيرة .

ومن الغريب انه بينما تبذل الحكومة غاية وسعها لتمون البحيرة كل سنة ببضعة ملايين من ذريات الأسماك (الزريعة) ، تنقلها اليها من

حقول التجارب ، وتتكبد فيها النفقات الباهظة ، اذ يسهر عليها الفنيون ويجعلونها فى صناديق مخصوصة ، تنقل بالطائرات كما أسلفنا فى غير هذا الفصل ، فيموت منها ما يموت بالرغم من الاحتياطات الفنية الدقيقة ــ وتقوم الحكومة بذلك من أجل الصياد والشعب ، فاذا بهؤلاء المجرمين يعملون على محاربة انفسهم عن طريق الحوش والسدود والزلاليق ، فيحجزون الأسماك عن العودة الى البحيرة عند الفيضان من ناحية ، وعن طريق اغرائها بالمياه العذبة ونصب الفخاخ لها من ناحية اخرى . بمثل هذا العبث يضيع المال والجهد هباء منثورا ويحرم الشعب من غذاء شهى ثمين .

واذا لاحظنا ان الأسماك الصغيرة تأوى الى شواطىء البحيرة حيث الاعشاب والنباتات والبوص والبردى لتتغذى وتنمو ، عرفنا الى أى مدى تكتسح الحوش والسدود والزلاليق هذا المورد الثمين اكتساحا ، فلا تبقى ولا تذر .

ويتبين من ذلك مدى الجريمة التى تسفر عن وجهها فى هذا العمل الضار الهدام ، الذى تجب محاربته والقضاء عليه .

ويؤسفنا ان هذه العملية لا يحتكرها العربان والمزارعون فقط ، بل تعدتهم الى كثير من كبار رجالات الاقليم وكرام الأسر ، فان كثيرا من الأعيان يحتكرون سياحات ، ويستغلونها فى صيد الأسماك ، وانتقلت المسألة من تجارة عصبية الى منافسة بين الأسر بقوة نفوذها ، وأصبحت الجهات التى يحتكرونها وقفا عليهم ويطلق عليها اسم الأسرة فلا يقربها احد من غير أفرادها .

وقد ذكرنا فى غير هذا الفصل ان بحيرة المنزلة بحيرة كبيرة ، كانت مساحتها نحو نصف مليون فدان ، واسعة الأرجاء مترامية الأطراف .

ومادام ساكنوها والقائمون عليها لا يقدرون الأمر قدره ولا يخشون ما يصيب أبناءهم فى الغد بل ولا انفسهم ، مغتنمين فرصة اتساع البحيرة وصعوبة حراستها ، واثقين من ان حراسة تنظم كل هذه الأماكن المتناثرة السحيقة تكلف الحكومة عبئا باهظا ، فهم سادرون فى غيهم ، وكان الأجدر بهم هم أنفسهم أن يسهروا على حماية مورد أرزاقهم ، ولكن الجهل والطمع قاتلهما الله قد أعميا الناس عن مصالحهم .

والحوش لكثرتها واتساعها تشغل نحو اربعين ألف فدان ، ومساحة الحوشة الواحدة تتجاوز الألف فدان أحيانا ، ومحاطة بحواجز كثيرا ما تكون مبنية بالأسمنت .

هذه المساحات الواسعة الكبيرة تستلزم لهدم حواجزها قوات طائلة ونفقات باهظة وحراسات دائمة على الأماكن التى تم هدمها حتى لا يعاد بناؤها من جديد .

ومع ذلك فكل هذا الهدم لايتم فى يوم ولا فى شهر ، ثم يقبل موسم ازدياد الماء فيعوق استمرار عملية الهدم فضلا عما يقوم به أصحاب المناطق من اعادة الحواجز بعد هدمها .

ومن الغريب أن عملية الحوش والسدود والزلاليق ، قد اختص بها القوم فى هذه الانحاء اختصاصا عجيبا ، يتحايلون لها وعليها بكل انواع الحيلة ، ووجدوا فى الصيد بهذه الطريقة لونا من الوان الربح الوفير الغزير الميسر ، ينتج الألوف تلو الألوف ، وليس لهم من مورد آخر بهذه الوفرة والغزارة واليسر يروضون انفسهم عليه من جديد .

وقد رتعوا فى هذا الرزق عشرات السنوات ، واجروا فى مناطقهم التخطيطات المختلفة ، وصنعوا بها احواضا ذات اشكال هندسية منظمة ، حتى ليتيسر للواحد منهم ان يجعل من هذه الأحواض مخازن للأنواع المختلفة من الأسماك ، وما عليه الا ان يفتح باب الحوض قليلا فتأتى اليه الأسماك طائعة منقادة كأنه يدعوها فتستجيب .

فالحرب بين رجال الأمن والاصلاح وبين هؤلاء القوم ليست يسيرة ولا سهلة ، وانما هو كفاح مستمر بين قوى الخير وبين اناس بنوا ثرواتهم وانفقوا من ثرواتهم على هذا المورد ، وليس ليسلموا فيه بسهولة ، وانهم ليدفعون عنه ماوسعهم الجهد ، ويفتنون فى تعويق الجهود المبذولة للاصلاح وفى العمل على اضاعة ثمراتها .

وقصارى القول ، هى حرب بين الأنانية المجنونة وبين المصلحة العامة المنشودة يغذيها من ناحيتنا الرغبة الجارفة الصارخة فى رد هذا المورد المائى الى ما كان عليه من الغنى والجدوى ، خدمة للوطن وللشعب وللمستهلكين واصلاحا للاقتصاد القومى وسعيا وراء تحسين المستقبل للأبناء والأحفاد كما يحفزنا اليها البصر بالأمور وتلمس العواقب ، تلمسا يبنى على الخبرة وعلى الاحصاءات الفنية وعلى المعرفة التى لا يتطرق اليها الشك ، ويغذيها من ناحية الانانيين ما يجدون فى يومهم من الثروة والكسب وما تكتظ به خزائنهم من الأموال التى لا تفتأ تناديهم بالمزيد ، ولا يهمهم بعد ذلك ان كان ثرائهم على حساب غيرهم من المواطنين او على حساب الوطن والشعب او حتى على حساب مستقبل أولادهم وذراريهم ، كما يغذيها لديهم نقص فى التطلع الى العواقب وعدم بصر بالأمور .

ونكرر ما سبق ان قلناه من ان مساحة الحوشة الواحدة قد تتجاوز ألف فدان والحواجز المقامة على اضلاعها طويلة جدا بحيث يقتضى هدم

حواجز الحوشة الواحدة اياما وليالى قد تزيد عن شهر من الزمان بالعمل المستمر المضنى .

الصيد بالجزر :

يضاف الى ما تقدم جنايات العرب والفلاحين من غير أصحاب الحوش والسدود .

فان بحيرة المنزلة بها مئات من الجزر هى بقايا مرتفعات كانت بالأراضى التى غمرتها المياه فى القرن السادس للميلاد وكونت منها البحيرة كما اسلفنا فى فصل سابق .

هذه الجزر يسكنها كثير من الأعراب والفلاحين أو يأوونها ويتخذونها مساكن ومرابع وقواعد ، بعيدا عن عيون الأمن والرقابة الا بين الحين والحين عندما تمر عليهم دوريات البحيرة .

وعلى شواطىء هذه الجزر يخفى سكانها الجوابى بين الحشائش والبوص والبردى ، ويصيدون بها الأسماك صغيرها وكبيرها دون تمييز، ويتعبون قوات البحيرة فى البحث عن الجوابى واعدامها ، وما تجده القوات منها لا يتمكنون من اثبات جرمه على احد ، وتعجز العقوبة عن ان تحل بالجانى الاثيم ، لان هذه الجوابى لا يمكن نسبتها الى أحد بعينه، فما هى الا أشياء موضوعة بين الحشائش ، وليس بجوارها انسان ،وان كان كل واحد بالجزيرة يعرف مكان جوابيه وجوابى غيره ، ولا يتعدى احد منهم على أحد ولا ينم على غيره ، فى لون طريف من الوان التعاون على الاثم .

وفوق هذا فان سكان الجزر ، لبعدهم عن الرقابة الدائمة ،يفتئون يستعملون الغزولات المخالفة فى الصيد ، والطرق غير القانونية ، مثل سدود غزل الخداوى ، وهى طرق ووسائل لا تبقى ولا تذر .

ويضاف الى كل ذلك ان الاعراب من رعاة المواشى يستوطنون ايضا شواطىء البحيرة ويحتكرونها ، وطال الأمد بهم حتى اصبحوا يعتبرون أنفسهم سادة هذه المناطق وأصحابها فلا يسمحون للصيادين بالصيد فى مائها الا بجعل معين ، ويمكنونهم من الصيد بالطرق المخالفة ، ولقد بلغ بهم التسلط على مناطق لا يملكون منها شبرا واحدا ان بعضهم بنى بمنطقته مساكن بالأسمنت المسلح .

ويلاحظ ان الأعراب الذين توطنوا بهذه الجهات انما هم حرب على الأمن العام ، وفيهم عمال الجرائم ، كما ان منهم وسطاء تهريب المخدرات .

ومسألة المخدرات هنا تستلزم شيئا من الايضاح : فان المسافات بين ساحل البحر وساحل بحيرة المنزلة تضيق احيانا فلا تزيد عن بضعة امتار يقطعها المهرب فى اندفاع السهم المارق فاذا به فى البحيرة وقد ضاعت آثاره على حراس البر ، ومن ثم كان للبحيرة أهمية كبيرة فى عملية كفاح التهريب .

وجميع المخدرات والمهربات التى تفلت من الحراسة وتعبر قناة السويس فيما بين الكيلو ٦ والكيلو ٤٠ تتجه الى البحيرة عن طريق المعاهدة الى جهة أم الريش ومنها الى بحر البقر حيث تتخذ سمتها الى فاقوس والصالحية . والتى تعبر ساحل البحر الأبيض المتوسط بين ساحل دمياط وبوغاز الجميل ، تتجه داخل البحيرة الى الجهة المعروفة بالمزيزة والبلدان القريبة منها ، ومن هناك توزع على بلاد مديرية الدقهلية والجهات المجاورة لها .

وينتظر المخدرات فى بحيرة المنزلة بعض الأفراد فى صالات صغيرة (سفن مسطحة) تسرع بهم الى الجهة المقصودة فى انحاء البحيرة الشاسعة وتضيع معالمهم من رجال المطاردة .

وواضح ان المخدرات لا تمر من نطاق الاعراب المستوطنين فى شواطىء البحيرة وهو نطاق واسع المدى ، الا بواسطتهم أو بترخيصهم ، واذا استفحل امر اتخاذ البحيرة طريقا للتهريب تغير وضعها الطبيعى كمورد رزق حلال ، وضاعت قيمتها كمعين من الثروة القومية ، والصياد بعد ذلك اما أن يشتغل بالتهريب مع المشتغلين واما أن يعزف عن الصيد خشية الوقوع فى طريق المهربين الذين لا يخشون الله ولا الناس فى سبيل الافلات بغنيمتهم .

فاذا أضيف الى كل ما تقدم ما تقوم به سفن الصيد فى الانحاء السحيقة من الصيد بالطرق الضارة المخربة مثل سدود غزل الخداوى وغيرها ، كملت حلقات الكابوس الذى أشرنا اليه وأوضحنا شره .

ومن ذلك يتضح مدى المهمة الشاقة المرهقة التى تقع على كاهل قوات البحيرة ، والتى تتطلب جهدا خارقا وعزما لا يلين .

وقد تلمست هذه الحالة ، وساءنى ان تصل موارد البحيرة الى ما هى فيه من انقراض يزداد كل يوم سوءا على سوء ، وان هذه البحيرة التى كانت موردا من أثمن موارد الرزق ، اصبحت بؤرة فساد واجرام .

نظم جديدة للاصــــلاح :

والظروف التى شرحناها كلها لا تعوقنا من ان نأخذ الى الاصـــلاح كل سبيل ممكن ، وأن نؤدى الواجب ، لا نعرف فيه هوادة ولا ابطاء .

وقد رأينا ان نتخذ الى اجراءاتنا خطوات عملية ، نســـتعين فيها بقوى الشعب كما نستعين بقوى الحكومة ، وان يكون لنا من الشـعب نفسه ناصر ومعين ، فلو رفعنا غشاوة الجهل عن أعين الناس لكانوا لنا نعم المعين .

ففى سبتمبر سنة ١٩٤٧ عقدنا اجتماعا كبيرا فى المطـرية حضره عضوا مجلس النواب ومجلس الشيوخ وكبار رؤساء الأسر والعشـــائر بالمنزلة وكثيرون من المشتغلين بحرفة الصيد ورجال الضـــبط والأمن، وشرحنا للمجتمعين الفرض من الاجتماع ، وطلبنا منهم اعتباره اجتماعا عائليا نتناقش فيه ونتفاهم حتى نصل الى حلول توصل الى الاصـــلاح المنشود .

وجعلنا من المجتمعين من الأهالى خطباء فى هذا المؤتمر الشـعبى ، اخذوا يشرحون الحالة ، وكل يبدى آراءه فى وصف الداء وتشخيصه ويبدى الرغبة القوية فى علاج الحال واصلاحه ، وكل يشــــعر بآثار ما انتهت اليه البحيرة فى ارزاق الجميع سواء الصياد وغير الصـياد ، ولا أحد يعارض فى وجوب اصلاح الحالة ، فكبار القوم يعرفون مايفعلون فى مناطقهم المحتكرة الضارة ، ولا يستطيعون ان يواجهوا المجتمعين بغير الحقيقة التى ترد على السنة الخطباء، ولم يكن لهم أن يقفوا فى وجـــه الرغبة الاجتماعية فى الصلاح والاصلاح ، والصيادون بوجه الخصوص راغبون كل الرغبة فى عودة ارزاقهم الى ما كانت عليه من الرغد وسعة الرزق . والجميع قد أخذتهم وحدة تامة منساقة نحو تلمس أســـباب الاصلاح .

وما ان استقر الجمع على هذه الآراء الموحدة ، التى وجهناهم الى ابدائها ، واتحنا لهم الفرصة للتعبير عنها والتنفيس عما الموا به زمنـــا طويلا حتى شرحت للجميع ان رأيهم يتفق مع رأى الحكومة كل الاتفاق ، وذكرت لهم طرقا من أوجه العلاج التى نرتئيهـا ، وبينت لهم أن بيت الداء هو هذه الحوش والسدود والزلاليق واستعمال الطرق المخـــالفة فى الصيد مما يكتسح منابت البحيرة ويؤذن بانقراضها .

وحصلنا بمزيد السرور على موافقـــــة الجميع على ما نتخذه من اجراءات نحو مكامن الداء ، بل قرر كبار رؤساء البلد أن يتنازلوا عن المناطق التى استقطعوها بطريق النفوذ ، ولعل التساوى فى الحـرمان

من هذه المناطق بين جميع الأسر الكبيرة كان من بين العوامل التى جعلتهم يوافقون على التنازل .

ثم اجتمعنا بالشباب الجامعى فى محيط المنزلة ، واوقفناهم على الحالة واستثرنا نخوتهم نحو المساعدة فى العلاج بين أسرهم وعشائرهم، وبث الدعوة لتقبل اجراءات الاصلاح دون شغب ولا شحناء ، فاستجاب هذا الشباب الكريم للمساعدة فى نفاذ جهودنا والعمل على نجاحها .

وتنفيذا لهذا كله أعتزمنا ازالة السدود بأنواعها فى اقرب وقت وبحالة سريعة وفعالة ، مستعينين فى ذلك بقوات المصلحة وبعمال مستأجرين ، كما قررنا زيادة قوات البحيرة زيادة تؤدى الى حراسة مستمرة وأكيدة ، وأنشأنا « مكتب مباحث بحيرة المنزلة » لتحرى أمكنة وجود المخالفات والتفتيش على الحلقات بالبحيرة وضبط الأسماك الصغيرة التى تقل عن المقاس القانونى ، ومطاردة محتكرى الحشائش من العربان ، وسنعتبر ان مخالفة الصيد شأنها شأن تهريب المخدرات ونضرب على أيدى الجناة فى كلتا الحالتين باهتمام واحد وبقوة متماثلة.

وأرى من الواجب أن نعمل على تفهيم الناس وجهة نظرنا وان نقرب الاهالى من الحكومة كى يعملوا من أجل انفسهم ما نعمله لهم وان نؤكد لهم عمليا مبلغ ما يصيبهم منخيرات الاصلاح ومن مساوىء الفساد والعبث ، وسنعمل على الاستعانة بالوسائل الآتية :

١ ـ القاء محاضرات بالفانوس السحرى من بعض الاخصائيين .

٢ ـ الاتصال بوزارة الشئون الاجتماعية لارسالخطباء ووعاظ ليقفوا اهالى هذه الجهات على الاضرار التى تصيبهم واهليهم لو استمروا سادرين فى طريقهم .

٣ ـ الاستعانة بوزارة الأوقاف لتجعل من خطباءالمساجد ومدرسيها فى هذا الاقليم من يهدى الناس الى الصراط المستقيم .

٤ ـ ان تنشر على الناس بين الحين والحين نشرات احصائيةوبيانات واقعية تفتح عيونهم لحقيقة الأمور واتباع خير الطرق .

٥ ـ اعتماد ميزانية لازالة الحوش وجميع المخالفات ولزيادة قوة الحملة التى خصصناها من رجال قوات السواحل ومكتب المباحث المذكور وقد اعتمدت المبلغ فعلا وباشرت الحملة أعمالها ، وانا نترقب خيرا عميما .

البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس
البرلس

بحيرة البرلس

الفصل
الأول

بحيرة البرلس

مهد المدنية المصرية الأولى

تقول أســـطورة خلق العالم ، التى كان يعتنقها قـــدماء المصريين ، ويتخذونها عقيدة راسخة ، ان أصل المخلوقات انبعث من مستنقع عظيم أسموه (نون) – أى المختفى الذى لا يرى – وان بذرة الخليقـة قد قامت على سطح (نون) على شكل صغير جدا ، غير منتظم ، ليس له حجم معروف ولا أوصاف معلومة كأنها نقطة فى لجة المحيط ، ولذلك أسموها «بالعدم» ٠

ومن هذا المستنقع الأزلى المبارك (بحيرة البرلس فيما بعد) ، أنبت (نون) زهرة اللوتس ، ومنها خـــرج الاله الأعظم (أتوم) أو (تم) ومعناه (الكامل) ٠

وهذا الاله « أتوم » تخيله القدماء على أشكال مختلفة ، أولها وأهمها على هيئة «جعل» (جعران) اذ كانوا يرون أن هذه الحشرة تفقس صغارها دون أن تحتاج الى انثى ، بوساطة كرة الروث التى نشاهدها تدحرجهـــا أمامها كما يدحرج الاله بيضته « أى الشمس » أمامه فى السماء ٠

وفى رواية أخرى انه كان يطفو على سطح « المحيط الأزلى » (نون) بيضة خرج منها الاله « أتوم » ٠ ثم تقص علينا الأسطورة ان « أتوم » – وفى رواية أخرى الاله «رع» – عطس وتفل فنشأ من ذلك ذكر وأنثى ، وهما الاله «شو» (ولفظه يمثل صوت العطس) وهو اله الفضاء ، والآلهة «تفنت» ، (ولفظها يمثل صوت التفلة) وهى آلهةالندى،وقد سمى هذان الالهان فيما بعد «جب» (اله الأرض) و «نوت» (الهة السماء) ٠

وتناسل الالهان «جب» و «نوت» أى الأرض والسماء ، وكانت السماء والأرض رتقا ثم فتقتـــا (كانتا رتقا ففتقناهما – صدق الله العظيم) ، فكان منها نسل الآلهة ، اذ رزقا الاله « أوزير – والاله«ست»ثم الالهتين «ايزيس» و «نفتيس» ٠

ويقوم المرحوم الدكتور سليم حسن بك ان الاله «آتوم» هو آدم عليه السلام كما جاء فى التوراة والانجيل والقرآن ٠ وفى الحقيقـــة ان وجه

التشابه عظيم بين خليقة «آتوم» وخليقة آدم · بل هناك تشابه كبير بين اللفظين · ويزداد التشابه انطباقا اذا ذكرنا أن قابيل قتل أخاه هابيل، كما قتل ست أخاه أوزيريس ·

وقد جاء في أقاصيص المصريين أن العالم كان يحكمه الآلهة قبل أن يحكمه بنو البشر ، وينسبون ملوك مصر الى سلالة الآلهة التى أشرنا اليها من قبل ، والتى ابتدأت بالالهين «جيب» و «نوت» ومنهما كان للملوك الحق فى التمليك والتسلط ، وتوارث العرش والسلطان · وتدل متون الأهرام على أن الآلهة كان يرث بعضها بعضا ، فبينها نصوص جاء فيها : « يا أوزير أنت ابن جب الأكبر ووريثه ··· » وجاء فيها أيضا : « ··· أنه ابنى وعزيزى ، وأول من ولد لى ، وهو الذى يجلس على عرش جب ،وهو الذى ارتاح له جب ، وهو الذى أعطاه أرثه أمام التاسوع الالهى العظيم» ·

نخلص من هذا كله الى أن الكهنة المصريين عندما أرادوا أن يمثلوا للشعب تكوين العالم ، مثلوه لهم فى هيئة ما يحدث أمام أعينهم ، ويقع تحت حسهم ، وأضفوا عليها ثوبا دينيا عليه مسحة من الغموض والرهبة، وان كان فى أصله لا يخرج عن دائرة الحس والمحسوس ·

وعندنا أنهم لم يجنحوا الى ذلك عفوا أو جهلا ، وانما كانت لهم أهداف يرمون اليها وينحون نحوها ، وهى أهداف تتصل بتعزيز مركز الملكية وسلطانها من ناحية ، ورفع مستوى روح الشعب المعنوية واعلاء شأنه من ناحية أخرى ، ليربطوا ولاء الشعب بسلطان العرش ·

فالملكية التى كانت رمز الدولة الذى تتمثل فيه وتتطلع اليه ، يجب أن تصور فى أقوى الصور وأقدسها ، وأن تتصل بصميم العقيدة الدينية ، ويكون احترامها جزءا من العبادة حتى يضمن الملاك السيطرة ودوام الحكم لهم ولأبنائهم وورثتهم من بعدهم ·

والشعب ، هذا الشعب الذى لا تقوم الأمجاد الشامخة القوية ، والحضارة النامية الفتية ، الا على سواعده ، كان لزاما أن تبث فيه روح المثل الأعلى وأن يحفز الى الأمام والى الذرى ، وأن يعطى صورة لنفسه ، وهى الصورة التى تطبع فيه طابع التعالى عن الدنايا ، والاتسام بصفات السمو والاباء ، والسعى الى المعالى والمكارم · فكان لا بد أن يكون بدوره سليل الآلهة وربيبها ، والمتفرد بالحضارة والمدنية ، وصاحب الحجر الأول والأكبر فى نهضة العالم ولقد تحققت هذه الأهداف على أحسن ما يكون تحققها ، فكانت مدنية المصريين أعلى المدنيات وأرقاها ، وأكثرها جهدا وانتاجا وبناء وتعميرا · ومازال يكشف عنه كل يوم ، من الجديد المجدد، ما يخلب ألباب العلماء والباحثين ، وكلما ظنوا أنهم وصلوا الى القرار ،

اذا بهم يجدون أنفسهم ما زالوا فى البداية ، بل دون البداية ، حتى تكونت فكرة راسخة وعقيدة ثابتة أن المصريين قد توصلوا الى مالم يتوصل اليه أرقى العصور الحديثة .

وبعد ، فما كفى الكهنة ــ وقد عرفوا أن البرلس منشأ المدنية المصرية، ومهد العمران الأولى ــ الا أن يجعلوه أيضا منشأ الخليقة ، ومبعث الكائنات، ومهد الآلهة قبل أن تضع سرها فى بنى البشر .

والحقيقة الواقعة التى تؤيدها الأدلة التاريخية القاطعة ، أنه لما أصبحت أرض وادى النيل صالحة للسكنى ، مهيأة للاستغلال ، وقدمت اليها شعوب الشرق الذين دخلوا مصر من طريق البر الذى يصل بين مصر وفلسطين وجزيرة العرب وسط مديرية الشرقية ، ويسمى وادى الطميلات ، وشعوب الغرب الذين أتوا الى مصر عن طريق الصحراء الغربية ، كان قد سبقهم اليها شعوب الشمال اذ اجتازوا الأراضى المصرية عن طريق بحيرة البرلس بوساطة نقالات خفيفة بعد أن تركوا سفنهم الكبيرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، فاستوطنوا شمال الدلتا وصنعوا فيها العجائب ، وابتنوا فيها أقدم مدنية ، وأعرق مدنية ، وأكبر مدنية .

ومن المؤكد أن بحيرة البرلس تكونت فى الأصل من عدة مستنقعات كانت تصل الى داخل أرض الدلتا أى حيث كانت توجد مدينة « بوطو » أو « أبطو » عاصمة المقاطعة السادسة للوجه البحرى ، والتى كانت معتبرة منذ فجر التاريخ عاصمة للوجه البحرى كله .

وان القبائل الشمالية التى دخلت مصر واستوطنتها عن طريق بحيرة البرلس أو مستنقعات البرلس هم واضعو أسس المدنية المصرية ، فقد دلت الكشوف التى تمت الى الآن على أن المدنية فى مصر قد بدأت فى الوجه البحرى خلال العهد الحجرى الحديث ، وأنها كانت تفوق المدنية التى ظهرت فى الوجه القبلى ، واستمرت فى طريق التقدم والازدهار بشكل جلى وواضح فى عصر بداية استعمال المعادن ، وأن الحضارة فى الوجه البحرى كانت تدرج فى مراقى التقدم بخطى واسعة ، على حين أن المدنية فى الوجه القبلى كانت خطاها وئيدة وفى حالة متأخرة .

وأقدم مملكة مصرية هى التى تكونت فى الوجه البحرى حوالى سنة ٤٢٤٠ ق.م وكان أنصارها يدعون «عباد حوريس» مما يدل على أنهم كان لديهم عبادة خاصة للمعبود حوريس وايزيس وأوزيريس ، وهو ابن البرلس وربيبها ، وقد استمر اسم المعبود حور أو حوريس يلازم أسماء الملوك حتى آخر عصور التاريخ ، وهذا بدوره يقطع بأن ديانة أهل الشمال كانت متأصلة منذ القدم ، راسخة البنيان لها المركز الممتاز فى أذهان جميع المصريين .

ويقال فى الأسطورة الدينية الخاصة بقصة أوزيريس وأخيه ست والالهة ايزيس ، أن ست عندما قتل أخاه أوزيريس ألقى بالصندوق الذى كان يحوى جثته فى مستنقعات بوطو «البرلس» •

وفى البرلس أيضا « كوم الخبيزة » أو « خبيت » وقد حرفه اليونان وسمى «خميس» ومنه جاءت كلمة «خبيزة» (مركز كفر الشيخ) • هذه البلدة لها علاقة بأسطورة أيزيس وطفولة الأله «حور» • وقد كانت تسمى فى بادىء الأمر «أخبيت» ، والظاهر أن خبيت قد حلت محلها ، وهىقريبة من بلدة بوطو التى بحثت فيها ايزيس طويلا عن جثمان زوجهـا أوزير الذى قتله ست • وكانت جزيرة « خبيت » ذات أدغال ، وكانت تقع فى بحيرة بوطو أى أبطو الحالية • و « كوم الأمان » ، بلدة كانت قد زارتها ايزيس فى أثناء سياحتها التى قامت بها من «خميس» لتبحث عن ابنها حور ، وكوم الأمان هذا بالقرب من الشاطىء الغربى لبحيرة البرلس •

بل لقد قال هيرودوت : « ••• ومن رأى اليونان أنه لا ينبغى اطلاق اسم مصر الا على قسم الدلتا من عند المحل المدعو مرقب برساوس على شاطىء البحر الى حد تاريخات بيلوسة مسافة أربعين سخينة ، وبلاد مصر كلما بعدت عن البحر تمتد نحو أواسط الأراضى حتى مدينة فرقسورةحيث ينقسم النيل إلى فرعين أحدهما مصبه عند بيلوسة والآخر عند كانوب ، وأما بقية البلاد فبعضها من أصل ليبيا ، وبعضها من أصل العربية •••»

فاذا صح هذا أو ذاك ، كان لأهل البرلس أن يباهوا بأنهم سـلالة المصريين الحقيقيين ، بل خلفاء الآلهة الأقدمين ، وبناة المجد الكمين الدفين•

فهنا ، وفى هذا الوادى الهادىء هدوءا عجيبا ، قامت المدنية الضاجة الصاخبة ، العاملة النشطة ، التى نثرت ثمارها على وادى النيـل كله ، وبعثت أضواءها على العالم أجمع ، ورفعت راية العلم والثقافة والمدنيـة والمجد والفخار ، قبل أن يكون لهذا كله راية أو ذكر ، بل كان فيها عالم يموج بالحركة والعمل ، قل أن يوجد هذا العالم الذى يموج بالحـركة والعمل •

وهذه الرمال التى نراها اليوم ، ضاربة فى الفيافى والقفـار ، وهذه الأراضى الواسعة المترامية ، التى لا يحدها طرف من عمـران ، ولا يكاد يحيط بها انسان الا بالجهد الجهيد ، تضم تحتها أقدم المدنيات وأرقاها وتنطوى على أسرار العظمة الفرعونية فى أوجها ، وفى نشأتها العجيبة ، وفى عزائمها وعظائمها •

وفى أعماق هذا الماء الذى تسيله البحيرة جزرا ومدا ، وجذبا وشدا، ينطوى تاريخ القرون السحيقة ، المعنة فى أطراف الزمن المتباعدة الدفينة تحت ركام وركام من حوادث الانسان ، وحوادث الأزمان •

والواقع أن أرض الدلتا تتألف من سهل متراهى الأطراف لا تتخلله جبال ، وهو منفصل عن الصحراء تماما ، ولذلك كانت الفرصة سانحة لسكانه الأول أن يكونوا أهل حضارة وتمدين ، ورقى وعظمة ، فأمكنهم أن ينموا ويتقدموا ، وينعموا بحياة العمل والنشاط فى عقر دارهم ،دون أن ينتجعوا مكانا آخر طلبا للرزق ، وقد ساعدهم على ذلك أن أرض الدلتا تمتاز بالخصب فى تربتها وطيب جوها ، فضلا عن أنها تقع على مفترق طرق افريقية وآسيا ،مما سهل لها الاتصال بالممالك القريبة منها ، فكانت تجلب اليها خيراتها الزراعية ، وتحف صناعاتها وفنونها ، وبذلك تضيف الى مدنيتها الأصلية مدنية جديدة ، ولا غرابة اذن فى أن نرى أرض الوجه البحرى فى كل عصور التاريخ أعرق مدنية من الوجه القبلى وأكثر تقدما، فقد كان الوجه القبلى قطرا طويلا محصورا بين سلسلتين من الجبال القاحلة ، يتصل بالصحراء فى كل مكان ، وكان أهل الصعيد منفصلين عن باقى العالم بهذه الصحارى المترامية الأطراف يضاف الى كل هذا أن المسافة بينهم وبين أهل الدلتا كانت بعيدة فلم يكن فى مقدورهم الاختلاط التام بهم حتى يستفيدوا من مدنيتهم • وكانت الأراضى الزراعية التى فى متناولهم قليلة المساحة بالنسبة للدلتا ، فلا غرابة اذا عدهم المؤرخون من الجبليين بالنسبة لأهل الدلتا المتحضرين •

ولذلك كان كهنة مصر على حق ، أو على الأقل لهم العذر كل العذر ، فى أن رأوا أن الدلتا هى أصل المدنية ومنشأها ، وأن مدخل الدلتا من الشمال ، وهو بحيرة البرلس ، هو مبعث النهضة ومهبط الحياة الحافلة بالنشاط والجد ، فصوروا مبدأ الخليقة على الوضع نفسه ، وانتحلوا مولد المدنية الباهرة لمولد الانسان فى فجره الأول ، فجعلوا من بحيرة البرلس مهدا لخلق آدم عليه السلام ، أبى البشر ، وجعلوا له ابنين هما أوزيروست، يقتل ثانيهما الأول كما قتل قابيل هابيل ، وان كانوا قد ألبسوا هذا كله مسموح الغموض ورفعوه الى مراتب الألوهية •

بعد ذلك نستمع الى هيرودوت يصف مصر فيقول : « ••• والنيل يقسم البلاد شطرين ويصب فى البحر،فالى حدمدينة قرقسورة ليس له الا مجرى واحد ، وتحت هذه البلدة ينقسم الى ثلاثة أفرع تجرى الى ثلاث جهات مختلفة ، أحدها يسمى الفرع البيلوسى يجرى شرقا ، والثانى هو الفرع الكانوبى يجرى غربا ، والثالث يجرى مستقيما من أعلى « مصر » الى رأس الدلتا • فيقسمها من الوسط بمسيرة الى جهة البحر • وهذا الفرع ليس أقل عظمة ، لا من جهة غزارة المياه ، ولا من جهة شهرته ، ويسمونه الفرع السينى • ومن نفس هذا الفرع ينشق فرعان آخران يصبان فى البحر بمجريين مختلفين أحدهما السينى والآخر المنديسى •

وأما الفرع البوليبتى والفرع البوكولى فانهما ليسا من صنع الطبيعة بل من صنع أيدى الانسان ... »

والأصل فى هذا جغرافيا أن الدلتا الحالية كانت عبارة عن خليج من البحر يصب فيه النيل عند رأس الدلتا ، أى أنها كانت كلها جزءا من مياه البحر والنيل ، ثم أخذت رواسب النهر تتكون وماء البحر يتراجع شيئا فشيئا ، حتى لم يبق من هذا الماء العظيم الا مستنقعات صغيرة فى أنحاء الدلتا ، والا بحيرة بقيت متصلة بالبحر هى بقية ما كان يعج به مسطح الدلتا من الماء الغامر • ولم يكن المسطح الذى انحسر عنه الماء لتقوم عليه عمرانات فى بادىء الأمر ، حتى اذا تقدم الزمن ، أتى القادمون من الشمال فنزلوا على ضفاف بحيرة البرلس ووطدوا مدنيتهم وأقدامهم شيئا فشيئا، وأوجدوا أعجوبة الحياة فى أمكنة كان لا يعيش فيها كائن ، ولا يجسر انسان أن يفكر فى ولوجها من أولئك الذين عاشوا شرقا أو غربا أو عاشوا فيها من الجنوب ، وما عتم الناس أن أبصروا مدنية سامقة لم يخالوها دخيلة فظنوها قديمة قدم الأزل ومن صنع الآلهة •

ولما أجدبت المراعى المجاورة للصحراء ، وأصبحت غير كافية لسد حاجات سيل السكان الذين كانوا يتدفقون من الصحراء القاحلة الى شواطىء النيل ، وكان لا بد من استغلال أرض وادى النيل الخصبة الدسمة ، كان على سكان الدلتا أن يفكروا فى التغلب على عوائق الطبيعة ، وأن يعالجوا الحالة القائمة بما يتفق مع الحاجة الملحة للعيش والتقدم • فقد كان النيل يغمر أراضى الوادى كل عام بفيضانه المنتظم ، ويترك مياها راكدة فى الأراضى المنخفضة ، تتألف منها برك ومستنقعات كما أسلفنا القول ، على حين أن الأراضى المرتفعة كانت تجف مياهها بعد انقضاء بضعة أسابيع من انتهاء الفيضان ، فسوى انسان ذلك العصر بين عالى هذه الأراضى وبين سافلها حتى تصبح فى مستوى واحد صالح للزراعة ، ثم رأى لزاما عليه بعد ذلك أن ينظم ماء الفيضان نفسه حتى يمكنه أن ينتفع به وقت التحاريق ، فقام بانشاء الترع والسدود التى كانت بمثابة الخزانات الآن ، ليصرف منها الماء عند الحاجة حتى لا يحدث قحط • وهذا العمل العظيم يعد أكبر فتح قام به الانسان الأنبوليتى فى وادى النيل أمام الطبيعة العاتية •

والواقع أنه ما كاد ينبثق فجر التاريخ حتى كان الانسان الذى سبق ذلك العصر قد تغلب على كل الصعاب ومهد السبيل لنمو المدنية العصرية، ولاشك أن هذا العمل الخالد يعد من أكبر مفاخر الانسان الأنبوليتى ، وستبقى أسماء هؤلاء الذين قاموا بهذه الأعمال سرا غامضا شأن الجندى المجهول فى ساحة الوغى ، ولكن يكاد يكون من المقطوع به أن أول من فكر فى تنظيم مياه النيل وتوزيعها هم أهل الدلتا ، لأنهم كانوا بطبيعتهم أهل

حضر وزراعة ، أما أهل الصعيد فقد كانوا أقرب الى البداوة ، ولكن معظم مدنيات الوجه البحرى قد طغى عليها الماء بارتفاع منسوباته فى كل بقاعها اللهم ، الا أجزاء بسيطة لا تكاد تذكر بالنسبة الى أرض الصعيد التى لم يمسسها ماء الفيضان فى أماكن كثيرة ، وبخاصة على حافة الصحراء التى كانت تتخذ مدافن فى كل عصور التاريخ المصرى ، ومنها نستقى معظم ما نعرفه عن المدنية العصرية .

ولما استقرت الحياة فى وادى النيل ، كانت الجماعات فى البداية مثلها فى البلاد الأخرى التى نشأت بعدها أو عاصرتها ، فى حالة بدائية ، اذ كانت الجماعة أو القبيلة فى حالتها الساذجة تلتف حول صورة حيوان أو نبات ، سواء أكان حقيقيا أم رمزيا ، وتتخذه لها بمثابة اله أو وثن تعبده ، وبعد ذلك أخذت القبائل تتجمع وكونت مدنا لكل منها حكومتها ، وأصبحت شارات المدن سواء أكانت وثنا أم حيوانا بمثابة آلهة تحمى هذه المدن ، ثم تكونت مديريات من هذه المدن مع القبائل التى تعترف بسلطان اله المدينة ومما يجاورها من الأقاليم ، وكانت تعرف كل من هذه المديريات باسم المقاطعات ، وهذه المقاطعات كانت فى بداية أمرها مستقلة ، وان كان حكامها لم يطلق عليهم لقب الملوك .

وكان المصريون يسمون المقاطعة فى لغتهم « سبات » وهذه اللفظة مشتقة من فعل « سب » أى يقسم . وهذا الاسم المصرى يقابله لفظة « نوم » التى أطلقها اليونانيون على المقاطعة ، ولفظة «كورة» التى أطلقها العرب . ومن ذلك يتضح أن كلمة مقاطعة معناها فى الأصل « قسم » ، وهو فى الواقع أقليم من الأرض مستطيل الشكل ، ويعبر عنه فى اللغة المصرية بشكل مستطيل مقسم بخطوط متقاطعة تكون زوايا قائمة .

ومنذ بداية التاريخ ـ كما قلنا ـ نجد أن كل طائفة من السكان كانت تتجمع على رقعة من البلاد لتستثمرها ، فكان لزاما أن يقسم الوادى الى مناطق استغلال ، آلت فيما بعد الى نظام المقاطعات ، وتحتوى كل مقاطعة على اقليم من الأرض له حاضرته . ولم تكن الحواضر وقتئذ تمتاز عن البوادى ، فلا تخرج عن كونها مكانا خصبا يسكنه الفلاحون والرعاة والصيادون الذين يعيشون على ما تخرجه الأرض ، ويقضون سحابة يومهم فى الحقول ثم يعودون كل مساء الى منازلهم ، كما يسكنها الصناع ، والتجار وأصحاب الحرف ، ورجال الادارة ، والموظفون والحكام ، على اختلاف أنواعهم .

وكانت المدينة «نوت» فى عرفهم حينئذ تتألف من مبان تقام عند ملتقى الطرق ، كما تشير الى ذلك العلامة التى يرمز بها للمدينة فى لغة القوم . وهى عبارة عن دائرة بداخلها قطران متقاطعان . وكانت تقام فى

المدينة مخازن عظيمة الحجم للغلال ، وأخرى تحفظ فيها الآلات الزراعية وحظائر الماشية ومصانع لأصحاب الحرف والصناعات، وكانت تبنى فيها حوانيت للتجارة حول ميدان عام لتكون بمثابة سوق ، يعرض فيه التجار ما لديهم من السلع والمحاصيل والمأكولات التى تنتجها الأرض ٠

وفى المدينة كان يشيد مبنى عظيم شامخ الجـدران يشرف على ما حوله ، ذلك هو قصر الاله « حت نتر » وهو ما يسمى بالمعبد ، وكان يقام خاصة لاله المقاطعة ،ويشمل داخله الرحب المخازن المقدسة ومساكن رجال الدين ، وهناك قصر آخر فسيح الأرجاء شامخ البناء بالنسبة لما حوله من بيوت عامة الشعب أقيم خاصة لفرعون أو لحاكم المقاطعة ، بحسب العصور التاريخية ، يضاف الى هذا دور حكومة الفرعون أو حاكم المقاطعة الذى نصب للفصل فى أمور الناس ، ولمراقبة الضرائب وشئون الزراعة، ومخازن الحكومة وخزائنها والسجون وغير ذلك ٠ فكانت تقام فى جهات مختلفة من المدينة ، حسبما تقتضى الحال ٠

والظاهر أن عدد المقاطعات كاد يكون متساويا فى الوجهين القبـلى والبحرى ، وبعد مدة من الزمن قامت حركة اتحاد فى البلاد ، وذلك حينما تجمعت مقاطعات الوجه البحرى الى مملكتين ، الأولى فى الغرب وعاصمتها « بحدت » ، وربما كانت دمنهور الحالية والثانية فى الشرق وعاصمتها « بوصير » بالقرب من سمنود الحالية ، وكان اله المملكة الأولى «حور» ، واله الثانية « عنزتى » وقد صار أوزيريس فيما بعد ٠

وبعد مدة من الزمن اندمجت هاتان المملكتان فى مملكة واحدة أطلق عليها : الوجه البحرى ، وكانت عاصمة تلك المملكة الجديدة فى بادىء الأمر « سايس » وهى صا الحجر الحالية مركز كفر الزيات وكانت الآلهـة الرسمية « نيت » ، وفيما بعد أصبحت العاصمة « بحدت » «دمنهور» ، وكان الاله الرسمى فيها « حور » ٠

وفى الوقت الذى اتحدت فيه الدلتا الى مملكة واحدة ، تكونت مملكة أخرى فى الوجه القبلى ، مؤلفة من اتحاد جملة مقاطعات ، عاصمتهـا بلدة « نقادة » ، على مسافة قريبة من شمالى الأقصر ، وكان اله الوجـه القبلى هو « ست » المناهض لاله الوجه البحرى « حور » ٠

وكانت الدلتا أقوى من الصعيد ـ كما أسـلفنا ـ ولذلك كان ملوك الدلتا أول من فكر فى اتحاد مصر كلها تحت سيطرة حاكم واحد ، وتم الاتحاد ، ولـكن حاضرة المملكة المتحدة الجديدة لم تكن بلدة « حـور » ـ منهور ـ ، وانما جعلت فى بلدة « بوصير » وهى بلدة فى شرقى الدلتا كانت تسمى باسم « أوزير عنزتى » ٠

ثم قامت ثورات متوالية فى الوجه القبلى ، وخصوصا فى نقـــادة وأمبوس « البلاص الحالية » احتجاجا على تسلط الدلتا ، فتفرق شمل البلاد وتهدمت مملكة أوزيريس ، وأصبح الوجه البحرى للاله « حور » والوجه القبلى للاله « ست » ، وانتقلت عاصمة الوجه البحرى الى دمنهور الحاضرة القديمة .

وتوصلت مملكة « حور » الى اخضاع مملكة « ست » وقامت بتنظيم وحدة البلاد ، متخذة عين شمس عاصمة للملك ، اذ كانت واقعة على حدود القطرين ويمكن منها الاشراف على كليهما . وكانت شارتها الجديدة قرص الشمس جناحيه اللذين يمثلان مصر ، الوجه البحرى والوجه القبلى .

ثم قامت فتن وثورات ، فظهرت مملكتان مستقلتان من جـــديد بعد ذلك ، الأولى فى الوجه البحرى ، وعاصمتها « بوطو » . « وهى معروفة الآن بتل الفراعين فى شمال دسوق » والثانية فى الوجه القبلى وعاصمتها « فقط » ، ثم « نخن » وهى المعـــروفة الآن بالكوم الأحمر تجـــاه الكاب « المحاميد » .

وقد وحدت البلاد للمرة الثالثة والأخيرة تحت سلطان عظيم من عظماء أهل طيبة « بالقرب من العرابة المدفونة مركز البلينا » وهو المسمى «مينا» ويقال ان اسمه الحقيقى « عحا » (المحارب) أو أنه الملك « نعرمبر » أو « نارمير » . فبنى عاصمة جـــديدة على مقربة من عين شمس ، العاصمة الأولى ، وسماها « من — نفر » « الميناء الجميلة » وهى التى أطلق عليهـــا اليونانيون اسم « منفيس » (البدرشين وميت رهينة) .

والملوك الذين سبقوا مينا وحكموا البلاد كان يعتبرهم المصريون أشباه الآلهة ، والذين أتوا بعد أسرات آلهة لم يكشف التاريخ عنهم شيئا بعد . ولم يذكر المصريون القدماء الا أن ملوك الوجه القبلى كانت عاصمتهم فى «نخن» (الكوم الأحمر) ، وعاصمة ملوك الوجه البحرى كانت « بوطو » (بالبرلس) . وقد حفظت لنا الآثار اسماء التسعة الملوك الذين سبقوا مينا فى الدلتا، اذ وجدت أسماؤهم على حجر وربما كانت فى عهد الملك « نوسردع » هذا الحجر يعرف بحجر « بالرمو » لأنه محفوظ فى بالرمو عاصمة صقلية وقد عثر على أربع قطع أخرى منه موجودة الآن فى المتحف المصرى .

وقد عثر على مقبرة ضخمة للملكة «مرت نيت» (محبوبة الالهة بنت) معبودة صا الحجر ، وهى زوجة « ودمو » أو « دن » من ملوك الأسرة الأولى

ووجدت أمام المقبرة لوحة مأتمية جميلة الصنع ، ويعتقد بعض المؤرخين أن ملوك مصر في ذلك العهد كانوا يتخذون زوجاتهم من الدلتا لتوطيد العلاقات بين القطرين ، وقد يكون ذلك راجعا أيضا الى ما كان عليه نساء الدلتا من الجمال والرقي والجاذبية ، كما لا تزال الحال الى الآن .

ولما كان الملك هو الوارث لفراعنة الوجهين القبلي والبحرى فقد استمر يقدس فى الهيكلين العظيمين التاريخيين ، وهما معبد « نخب » (الكاب) ويسمى «برور» (المعبد العظيم) ومعبد « بوطو » ويسمى « برنسر » (معبد النار) ، وكان الفراعنة يفردونها بعناية خاصة ويهبونهما الهدايا والقرابين الكثيرة .

وقد كان من الضرورى ، لاقامة الشعائر ، خدم كثيرون ، وعلى رأس هؤلاء كان يشرف عدد من أعظم كبار الدولة ، وأقدمهم كهنة معبدى «نخب» و «بوتو» ، وقد كان معبد «نخب» تحت اشراف رئيس كهنة «نخب» ولم نجد فى عهد الأسرة الخامسة ذكر كهنة أرواح «نخن» (الكوم الأحمر الحالية) ، ولا كهنة أرواح «بوتو» وهم الذين كانوا يحتفلون باقامة الشعائر الجنائزية لملك الشمال والجنوب ، مع أننا وجدنا ذكرهم فى عهد الأسرة السادسة ، ولكن ربما يعثر فى المستقبل على آثار تدل على وجودهم فى الأسرة الخامسة أيضا .

ولقد قلنا أن الدلتا كانت أقدم مدنية من الصعيد ، كما تدل على ذلك الآثار التى وجدت فى الوجهين ، ولكن لما تغلب الصعيد واتحد وادى النيل كله تحت حكم ملك واحد حلت بمصر نهضة كبيرة ، وقد ألغى مينا نظام الأمارات سواء فى الوجه القبلى أو البحرى بعد ان اتحدت قبل ذلك وكونت مملكتين ، واحدة فى الشمال وأخرى فى الجنوب ، وكان ملك الشمال يلبس تاجا أحمر ويرمز الى مملكته بنبات اللوتس ، واتخذ لها عاصمة مدينة «بوطو» ، وكان لها معبود أكبر يرمز له بأفعى تسمى «بوطو» أما ملك الجنوب فاتخذ لنفسه شعارا ، تاجا أبيض ، ولأراضيه رمزا ، هو نبات البردى ، وأسس لمملكته عاصمة فى الجنوب وسماها كما قلنا «نخب» أو «نخن» بجوار أسوان الحالية ، وهى التى دعاها اليونانيون باسم «هيراكونبوليس» ، أما معبودها المحلى فكان يرمز له بطائر النسر .

الى أن تم التوحيد على يد مينا ، ولبس تاجا مكونا من تاجى الشمال والجنوب ، وخطت مدينة منفيس ، وانتقلت اليها العاصمة فى أيام زوسر مؤسس الأسرة الثالثة وظلت بها الى نهاية الأسرة الثامنة ، ثم انتقلت الى هيراكليوبوليس « أهناسية ــ بنى سويف » الى أن توزعت فى عهد الأسرة الثالثة عشر الى عاصمتين : طيبة بالصعيد ، وسخا فى

شمال غربى الدلتا ، ثم فى عهد الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة « الهكسوس » اتخذوا عاصمة لهم مدينة « أفاريس » فى الدلتا ، ثم عادت الى طيبة بعد زوال حكم الهكسوس ، وفى أيام الأسرة الثامنة عشرة بنيت عاصمة الدولة الجديدة شرقى النيل بمديرية أسيوط ثم عاد توت عنخ آمون الى طيبة تحت تأثير كهنة آمون .

ورمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة ينتسب الى أسرة من بلدة تانيس « فاقوس ـ شرقية » وقد اتخذ خلفاء رمسيس الثالث ـ فى الأسرة العشرين ـ مدينة تانيس عاصمة لهم واضمحلت طيبة على أثر ذلك .

وفى عهد رمسيس الثانى عشر قام « سمنديس » من تانيس وعين نفسه ملكا على الدلتا ، وفصلها عن الوجه القبلى ، واحتفظ رمسيس بالوجه القبلى والنوبة ، ثم تقهقر الى طيبة ، حيث وقع تحت نفوذ حريحور رئيس كهنة آمون ، الذى اعتلى العرش وتتوج بتاج مصر وسمى نفسه « سيد الأرضين » . واسس سمنديس الأسرة الحادية والعشرين وضم الدلتا الى الصعيد بعد موت حريحور .

واسس النوبيون الأسرة الثانية والعشرين ، وجعلوا عاصمتهم بوبسطيس « تل بسطة » . وفى عهد الأسرة الخامسة والعشرين من « حكم النوبيين » غزا الأشوريون مصر واستولى ملكهم « أسر حدون » على منف وولى « نخاو » امارة سايس فى الدلتا .

وبعد طرد الأشوريين تأسست الأسرة السادسة والعشرين ، وكان رأسها أبسماتيك الأول ، فشجع النازحين من اليونان على الاستيطان بالوجه البحرى ، وخاصة فى سايس ومنف ، ومال الى احياء الدولة القديمة وفنونها وحضارتها ، وكانت سايس « صا الحجر » مركزا لهذه النهضة وسمى هذا العصر بالعصر الصاوى نسبة اليها .

وظلت سايس أو صا قاعدة مصر فى عهد الأسرتين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين وتلتها منديس فى عهد الأسرة التاسعة والعشرين . وفى عهد الأسرة الثلاثين كانت العاصمة مدينة «سبنيتوس» «سمنود» ، وفى عهد هذه الأسرة قام نختبو الأول أو نكتانبيس « أمير سمنود » وكذلك نختبو الثانى بتشييد المعابد الكبرى وغيرها من الآثار العظيمة .

وتنتهى الأسرة الثلاثون فى سنة ٣٤١ ق.م . وفى عام ٣٣٢ ق.م فتح الاسكندر مصر ، ثم بنيت الاسكندرية .

نصل من هذا كله الى أن مدينة مصر الشامخة العظيمة بدات من الدلتا . ومدينة الدلتا بدأت من بحيرة البرلس ، التى كانت مدخل مصر الشمالى ، وعلى ضفافها قامت حركة العمران ، التى صنعت التاريخ المصرى ، وكانت بوطو أول عاصمة ، وقام بها أكبر المعابد واضخمها ، بل حوت أكبر الديانات وأهمها وأشهرها ، وكان فيها مملكة أوزيريس ، وعادت اليها العاصمة أكثر من مرة ، على أن كثيرا من عواصم البلاد فى عهود مختلفة اتخذ فى الدلتا ، على مقربة من بحيرة البرلس ، مثل بوصير ، وسخا ، وصا ، وسمنود ، وغيرها من البلدان التى تعتبر على ضفاف البحيرة .

وقد كان العز الشامخ ، والمجد العظيم ، بل الترف المقيم ورخاوة النعيم ، هى السبب فى اضمحلال البرلس ، بصفة خاصة ، والدلتا بصفة عامة فيما بعد ، فان المصريين كانوا ينقسمون الى سبع رتب : الكهنة ، ورجال الحرب ، والبقارين ، ورعاة الخنازير ، والتجار ، والتراجمة ، والنوتية أو أصحاب البحر ، وأسماؤهم مأخوذة من حرفهم .

والذين مهنتهم حمل السلاح كان يقال لهم : جنود منظمة ، ورديف . وولايات الجنود المنظمة هى : بوصير ، وصا ، واخميم ، وببريسيس ، وجزيرة بروسوبيتس ، ونصف ناتو . وهذه الولايات يجتمع منها مائة وستون الفا من الجنود كلهم حملة سلاح ، ولا يزاول أحد منهم عملا آليا أو يدويا .

واما الرديف : فولاياتهم هى : طيـــوه ، وبوبستى ، والتيس ، وتنيس ، ومنديليس ، وسبنيس ، وفربيتيس ، وتمويس ، وأرنوفيس ، وانيسيس ، وميكفوريس ، وهى جزيرة واقعة بازاء بوبستى . وهذه الولايات يجتمع منها ، اذ كانت مزدحمة بالسكان ، مائتان وخمسون الف جندى ، ولا يسمح لهم بأن يزاولوا عملا غير حمل السلاح ، والابن يخلف أباه .

ورجال الحرب عند المصريين القدماء كان لهم وحدهم ، باستثناء الكهنة ، امتيازات خاصة ، فان كل واحد منهم كان يعطى اثنى عشر اورورا ، لا يؤخذ عنها ضرائب ولا اتاوات ، والأورور قطعة ارض مساحتها

مائة ذراع مصرية مربعة . وهذه القطعة من الأرض تكون خاصة بصاحبها ، ولهم أيضا بالتناوب امتيازات أخرى ، ففى كل سنة يمضى مائة من الجنود المنظمة ومائة من الرديف الى بلاط الملك ويكونون حراسا له ، وفى نظير ذلك كان يعطى كل منهم يوميا خمسة منوان خبزا ، ومنوين لحم بقر ، وأربعة أستيرات خمرا .

وكان اختصاص أكثر مدن الدلتا وولاياتها برجال الحرب طبيعيا ، باعتبارها مواطن السادة الأول ، أو الأصلاء فى المدنية والحضارة ، ومنهم كان الملوك ، وفيهم قام النور . ولكن كان من نتيجة ذلك حتما أن يأخذ القوم بأسباب الرفاهة والترف والسيادة ، وكان لزاما عليهم الا يكون لهم يد فى زرع أو حرث ، ويقود كل هذا الى اهمال الصناعة والزراعة ، التى تركت للعبيد والأرقاء فى بادىء الأمر ، وخصوصا فى مناطق البرلس مهد المدنية الأولى ، ومبعث النور والحضارة ، فعادت مناطق للمستنقعات ، وكأن لم تغن بالأمس .

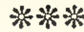
حتى لنستمع الى هيرودوت يقول :

« وأما القاطنون فى القسم الذى فيه المستنقعات فيتبعون نفس عادات المصريين ، ومن جملتها أن الواحد منهم لا يتخذ الا زوجة واحدة كما يفعل الأغارقة . أما من جهة الأطعمة ، فقد اخترعوا وسائط لتحصيلها بسهولة ، فاذا بلغ فيض النهر معظمه ، وصارت الأراضى كالبحر ، يظهر في وسط الماء كمية كبيرة من زنبق ، يسميه المصريون بالحندقوق «اللوتس» ، فيجنونه ويجففونه فى الشمس ، ثم يأخذون بذره وهو كبذر الخشخاش ، ويوجد فى وسط الزهرة ، فيطحنونه ويصنعون منه خبزا يخبزونه على النار ، ويأكلون أيضا جذور هذا النبات ، وهى حلوة لذيذة الطعم مستديرة فى حجم التفاح . ومن الزنبق نوع آخر يشبه الورد ، ينبت أيضا فى النيل ، وفيه بذور كثيرة طيبة حجمها مثل نواة الزيتون يأكلونها خضراء أو يابسة .

« وأما البردى فهو نبات حولى » يقتلعونه من المناقع ، ويقطعون جزأه العلوى ويستعملونه فى أشياء مختلفة ، وأما الجزء الأسفل أى الذى يبقى من النبات ، ويكون طوله نحو ذراع ، فيأكلونه نيئا ، أو يبيعونه ، والذين يريدون أن يطيبوا هذا الطعام ، يشوونه فى فرن يحتدم . ومنهم من يعيشون بالسمك فقط يجوفونه ويجففونه فى الشمس ثم يأكلونه .

«والمصريون القاطنون فى المستنقعات يستخدمون زيتا يستخرج من ثمر يسمونه فيقى ، وطريقة استخراجه أنهم يزرعون نباته المسمى سيليكبريون على ضفاف فروع النيل وشواطىء الغدران فيحمل كميات وافرة من ثمر شديد الرائحة ، وبعد أن يجنوها فبعضهم يهرسها ويعصر زيتها ، وبعضهم يغليها بعد أن يشويها ، فينفصل منها الزيت ، فيجمعونه وهو سائل دهنى يصلح للاستصباح كزيت الزيتون ، ولكن رائحته قوية كريهة .

« والبعوض فى مصر يكون بكثرة عجيبة ، وقد وجد المصريون طريقة لدفع ضرره ، فالقاطنون فوق المنافع يستترون من البعوض بأن يناموا فوق أبراج ، لأن الريح تمنع البعوض أن يطير الى هذا العلو . والقاطنون فى المناقع اخترعوا أيضا طريقة أخرى ، فليس أحد منهم الا وعنده شبكة يستعملها فى النهار لصيد السمك ، وفى الليل ينشرها حول فراشه ويدخل ضمنها وينام . فاذا أراد أن ينام بثيابه أو يلتف بشرشف ، يؤذيه البعوض بلذعه ، وأما داخل الشبكة فلا يحاول البعوض الدخول » .



على أن الدلتا ومنطقة البرلس لم تفقد خصائصها العظيمة الى آخر العهود .

ففى عصر البطالسة كان يعيش « مانيتون » السمنودى ، وهو أهم المؤرخين الذين كتبوا عن مصر . وقد قال المؤرخ اليهودى يوسفوس أن مانيتون كان مصرى الجنس ، وكان كاهنا عظيما ، وكاتبا فى المعابد ، وماهرا فى لغة بلاده وفى اللغة الاغريقية أيضا .

وقد امره بطليموس الثانى فيلادلف أن يضع مؤلفا عن مصر ، فقام مانيتون بذلك ، وحاول أن يضع أمام الاغريق صورة حقيقية عن تاريخ مصر ، منقولة عن النقوش المصرية ، ويرجع عهد كتابة هذا التاريخ الى ما قبل عام ٢٧٠ ق.م . ولم تصلنا الا أجزاء مختصرة منه عن طريق المؤلف يوسفوس الذى ولد سنة ٣٧ م . فقد ألف مقالا فى الرد على «أبيون» النحوى السكندرى الذى كان يبغض اليهود أشد البغض وينسبهم الى أصل أبرص ومن منشأ دنس نجس وأن المصريين قد طردوهم من بلادهم مع موسى عليه السلام . وأراد يوسفوس أن يدافع عن قومه فزعم ان هؤلاء اليهود الدنسين هم الهكسوس ، الذين

هم من نسل يعقوب ويوسف ، ولكى يؤيد رأيه نقل بعض فقرات عن « مانيتون » فى الفصل الخاص بالهكسوس وطردهم من مصر على يد ملوك من عهد تحتمس الأول الى عهد رمسيس الرابع وعددها ٢١ اسما ، مع ذكر سنى حكمهم ، والشهر الذى حكم كل منهم فيه .

وقد بقى ترتيب الأسرات الذى وضعه « مانيتون » الأساس الذى يعتمد عليه كل مؤرخ حديث فى الكتابة عن مصر رغم الكشوف الحديثة .

وهكذا كان شعور الناس نحو اليهود من أقدم العصور ، وهكذا كانوا يصفونهم .

الفصل
الثانى

الوحى
والعرافة

على ضفاف بحيرة البرلس

ثبت من الأبحاث التاريخية والعلمية ، ان أكثر المميزات البارزة فى تكوين الديانة المصرية ونموها قد ظهرت فى الوجه البحرى ، وأشـــهر العبادات التى انتشرت فىطول البلادوعرضها انما أخذت من آلهةالدلتا .

وقد بسطنا فى الفصل السابق ان أسطورة خلق العالم عند قدماء المصريين قامت على أن الاله الأعظم « أتوم » قد انبثق من بحيرة البرلس، ومنه تفرعت الآلهة الكبرى وبسطت ضياءها وفرضت عبادتها على سائر أنحـــــاء مصر .

ولسنا نطيل فى الحديث عن ذلك . فقد ذكرنا فى كتابنا « عـلى ضفاف بحيرة المنزلة » أن « ايزيس » لما قتل زوجها « أوزيريس » هربت بابنها«حور» خوفا من اضطهاد عمه وشروره ، فذهبت بهالىمرضعته فى « بوطـــو » .

ولما اكتملت رجولة «حور» انتقم لوالده ، وفتح مملكته ثانية :بمساعدة جده «جب» اله الأرض ، الذى نصبه وارثا على ملك والده ، وكان من نتائج هذا أن أصبح « حور » يعبد فى بلدة (بوطو) التى كانت تعد مسقط رأسه ، وكذلك انتشرت عبادته فى مواطن أخرى كثيرة فى الدلتا ، فكان يعبد فى (بوطو) بصفته حور الطفل «حوريوخراد» وفى جنوب تشعب النيل فىبلدة (ليتوبوليس) منالمقاطعة الثانية «أوسيم» كان يعبد بصفته كهلا «حور الكبير» ، وكان يعبد فى هذه الجهة كأنه أخ للالهأوزيروللاله ست ، وفى المقاطعة العشرين من منطقة فاقوس «صفت الحنا» امتزج الاله «حور» فى العصر المتأخر بالاله المحلى « سيد » سيد الشـــعوب الأجنبية وحاميها ، وأصبح يعبد هناك على هيئة صقر جاثم على سرير . ثم انتشرت عبادة « حور » فى الوجه القبلى انتشارا واسعا ، ولكن المقر الأصلى له هو بلدة « بوطو » بالبرلس » كما أســـلفنا .

وكان طبيعيا أن تقوم فى « بوطو » طقوس العبـــادات وهيــاكل الآلهة ، ومن هذه الهياكل كانت تصدر النبوءات عن الـكاهن ، اذ ، يستوحون الآلهة والهياكل والمعابد ويبسطون بهـذه الـكهانة سلطتهم وسلطانهم على المصريين .

وقد قال هيرودوت « .. ومع أني تكلمت كثيرا عن كهانة هذه البلاد فاني أذكرها أيضا لأنها تستحق الذكر ، وهى مختصة بالاله « لاتونة » فى مدينة كبيرة واقعة عند المصب السبنى من النيل ، يمر بها الصاعد من البحر عن طريق ذلك المصب .

وهذه المدينة تسمى بوطو ، وفيها عدة هياكل ، منها هيكل ابولون ، وهيكل ديانا ، وهيكل لاتونة الذى يهبط فيه الوحى ، وهو كبير وارتفاع أروقته عشر أورجيات ، ومن كل ما رأيت ضمن السور الموقوف على لاتونة ، لم أر أعجب من هيكل المعبودة ، فهو مكون من حجر واحد ارتفاعه وطوله وجوانبه متساوية . وجزيرة خميس تجىء فى المرتبة الثانية ، فهى فى بحيرة عميقة فسيحة قرب هيكل لاتونة فى بوطو ، وفى هذه الجزيرة معبد كبير لأبولون ، له ثلاثة مذابح » .. (أبولون هو الاسم اليونانى للاله « حور ») .

وقد روى هيرودوت عن كهانة بوطو ونبوءاتها الشىء الكثير .

ومن ذلك أن منقرع جاءه نبأ من وحى كهانة بوطو ، انه لم يبق له من العمر الا ست سنوات، ويموت فى السنة السابعة، فحزن لذلك حزنا شديدا، وثار لهذه النبوءة ، حتى أرسل الى مكان الكهانة من يوبخ المعبودة أشد التوبيخ ، لأن أباه وعمه عاشا عمرا طويلا ، مع أنهما اضطهدا الرعية ، واستهانا بالآلهة ، فأقفلا الهياكل والمعابد ، أما هو فكيف يكون عمره قصيرا ، مع أنه كان تقيا جدا ، ويؤدى للآلهة حقوقها من التقديس والعبادة ؟ فجاءه الرد من الآلهة بأن عمره قصر ، لأنه لم يعمل ما كان ينبغى عليه أن يعمل .

ولما عرف منقرع أن ما قدر عليه محتوم ، اصطنع عددا كبيرا من القنابل ، وكان كلما دخل الليل أشعلها ، وقضى الوقت فى الشراب والمنادمة والتفكه ، ولم ينقطع عن انتهاب الملذات ، وارتياد الأحراش والحدائق والغدران ليل نهار ، وكان يهدف بذلك الى أن يجعل الليل كالنهار ، فيضاعف عدد سنيه الباقية لكى يكون له بدل ست سنوات اثنتى عشرة سنة ، وبذلك يقنع الكهانة بأنها كاذبة . ولكن هيهات ..

وحدث فى زمن الملوك الاثنى عشر أن قدموا قرابين فى هيكل نلكانوس وكانوا فى آخر يوم من أيام العيد عازمين على تقديم السكائب ، فقدم لهم الكاهن الأعظم كئوسا من ذهب ، وكان من المعتاد استخدامها فى مثل هذه المناسبة ، ولكن الكاهن أخطأ العدد ، وبدلا من أن يأتى باثنى عشر كأسا ، لم يعطهم الا أحد عشر كأسا وكان أبسمتيك فى الصف الأخير منهم ، ولما لم يعط له كأسا مثلهم ، لم يجد بدا من أن يستخدم خوذته النحاسية فى تقديم السكيب ، ولم يكن له من غرض سوى تسوية هذا المأزق ، والانتهاء منه .

وهالت هذه الحركة البريئة بقية الملوك ، وتذكروا النبوءة القائلة أن من يقدم سكيبه فى كأس من نحاس يصير يوما ما ملكا على مصر دون شريك ، وخشوا على ملكهم من تحقيق هذه النبوءة ، اذا حدثت بوادرها ، ولكنهم اذ رأوا أبسمتيك خالى الذهن ، ولم يقصد شيئا من وراء حركته هذه ، وجـدوا من العدل الا يقتلوه ، واكتفوا بانتزاع أكبر جزء من مملكته ، ونفوه الى مستنقعات بوطو ، وحرموا عليه مغـادرتها ، أو الاتصال بأى جهة من جهات مصر .

وكان أبسمتيك قبل ذلك قد فر الى سوريا ، هربا من اضطهـاد شاباق ملك الحبشة ، لأنه قتل أباه نيكوس ، فلمـا خرج شاباق من مصر ، استدعاه أهل ولاية صا ، بناء على رؤيا رأوها ، وجعلوه ملـكا عليهم . فلما حدث له أن نفى مرة أخرى لأنه قدم سكيبا بخوذته ، رأى فى هذا اضطهادا جديدا ، وعزت عليه هذه الاساءة ، فعزم على أن ينتقم ممن نفوه وأساءوا اليه ، وأرسل يستشير كهانة لاتونة فى بوطو ، فأجيب بأن رجالا من نحاس يخرجون من البحر ويقتصون له .

وكان هذا لغزا عجيبا لأبسمتيك ، ولم يستطع أن يتصور أن رجالا من نحاس يأتون لنجدته . ولكن حدث بعـد قليل أن أقبـل قوم من اليونان ، والكاريبيين على مصر ، اذ كانوا قـد ركبـوا البحر للسـلب والنهب ، فألجأتهم الحال الى الرسو على الساحل المصرى ، وخرجوا الى البر وعليهم أسلحة من نحاس ، وبادر أحد المصريين فأخطر بهم ابســمتيك وهو على ضفاف بحيرة بوطو « البرلس » ، واذ كان ذلك الرجل لم ير حتى ذلك الوقت قوما سلاحهم من نحاس ، فكان أن قال لأبسمتيك أن رجالا من نحاس خرجوا من البحر ، وأنهم ينهبون البلاد .

ففهم الملك هذا الكلام ، وعلم أن النبوءة قد أوشكت على التحقق ، واتحد مع اليونان والكاريبيين ، وأخذ عليهم المواثيق والعهود بأن يأخذوا بناصره ، واستعان بهم وبمن بقى معه من المصريين ، فأنزل الهزيمة بالملوك الأحد عشر وخلعهم عن عروشهم ، وتحققت النبوءة اذ تولى ملك مصر بلا شريك ولا منازع .

ومما حدث أيضا أنه بعد موت سيزوستريس تولى الملك ابنه فيرون ، وفاض النيل فى عهده فأغرق البلاد ، وقامت الأعاصير الشـديدة ، واضطربت لها المياه اضطرابا عظيما ، وقيل أن فيرون أقبل فى جسارة جنونية ، ورمى بحربته فى لجة المياه ، فأصابه فى عينه مرض مفاجىء ذهب ببصره ، وبقى فى عماه عشر سنوات ، وفى السنة الحادية عشرة جاءته نبوءة من كهانة بوطو بأن مدة عقوبته قد انتهت ، وانه يبصر ان غسل عينيه ببول امرأة لم تخن زوجها قط .

فامتحن فيرون أولا بول زوجته ، فلم يفد شيئا ، ثم أخذ يمتحن بول النساء الواحدة بعد الأخرى ، دون أن يجديه ذلك ابصارا ، الى أن أبصر ببول احدى النساء أخيرا .

فجمع فى مدينة ، كانت تسمى أويتروبوليس ، كل النساء اللاتى تثبت خياناتهن واحرقهن جميعا فى تلك المدينة ، ودمرها عليهن ، وتزوج بالتى كان شفاؤه على يدها .

لعنة آبيس :

وأخيرا فلقمبيز مع نبوءات بوطو قصة أية قصة :

فانه عندما عاد قمبيز الى منف ، من حملته المخذولة على واحة سيوة ، كان قد ظهر للمصريين المعبود أبيس ، فلبسوا أفخر ثيابهم ، وأقاموا معالم الأفراح ، ولما شهد قمبيز تلك الاحتفالات ظن أنهم انما يبدون الفرح لانكساره وهزيمة جيوشه ، فجمع حكام منف ، وسألهم لماذا لم يظهروا الفرح لأول مرة عند قدومه اليهم ، ثم أبدوا فرحا شديدا بعد رجوعه وقد خسر نصف جيوشه ، فقالوا ان الههم لم يظهر من مدة طويلة ، وقد ظهر فى تلك الأيام ، وان المصريين على عادتهم يفرحون بهذه المناسبة ويقيمون الاحتفالات .

وظن قمبيز أنهم انما يوارون ويخفون الحقيقة ، فقتلهم ، ثم دعا الكهنة واستعلم منهم فسمع منهم نفس القول ، فأمرهم أن يأتوا اليه بالاله أبيس هذا ليشاهده ، ويعلم أنهم صادقون ، فخفوا اليه لفورهم وأتوا به .

وآبيس هذا عجل صغير ، لا تحمل أمه بغيره ، ويكون شعره أسود ، وعلى جبهته بقعة بيضاء مثلثة ، وعلى ظهره صورة نسر ، وتحت لسانه صورة جعل ، وشعر ذنبه مضاعف ، وكان قدماء المصريين يعتقدون أنه ينزل على أمه برق من السماء ، ومن هذا البرق تحمل بالاله المقدس آبيس .

ولما جاء الكهنة ، بأبيس ورآه قمبيز عجلا ، استشاط غضبا ، واستل خنجره ليبقر بطن العجل ، فجاءت الضربة فى فخذ العجل ، والتفت الى الكهنة وقال متهكما : أيها اللصوص هل تكون الآلهة من لحم ودم ، وهل تشعر باصابة السلاح ؟ انكم لتسخرون لتنجوا من العقوبة . أما آبيس فاعتل مدة فى الهيكل من الجرح الذى أصاب فخذه ، ثم مات ، فدفنه الكهنة على غير علم من قمبيز ، وقد كان قمبيز حاقدا عليهم ويعتقد أنهم يكرهونه ولا يرضون عن حكمه .

ولم يبطىء قمبيز أن أصيب بالجنون ، فقتل أخاه ثم قتل أخته ، وقيل بل تزوج أخته ثم قتلها ، وأتى من الفظائع الشىء الكثير .

ولقتله أخاه سمرديس قصة طريفة : ذلك أن قمبيز حسده وغار منه ، فأعاده الى بلاد فارس . وبعد رحيل سمرديس ، رأى قمبيز فى المنام أن ساعيا قادما من جهة الفرس ، يخبره أن سمرديس جلس على العرش ونطح بهامه السحاب ، وخشي قمبيز أن تكون دلالة هذه الرؤيا أن أخاه يقتله ويستولى على الملك فأرسل اليه أحد أخصائه فقتله .

ثم أرسل قمبيز يستشير كهانة بوطو فى أمره وفى مستقبله ، فأجيب بأن أيامه تنتهى فى أغبطانة ، فتوهم أنه يموت فى أغبطانة مادى ، ببلاد الفرس — حيث كانت كنوزه وأمواله واستراح من الأوهام ، واستقر باله .

وبينما كان قمبيز فى مصر ، كان أخوان من المجوس قد انتهزا الفرصة للخروج على طاعته ، وأحدهما ويدعى فتخريت كان من أعوانه ، وكان يعلم باغتيال أخيه سمرديس ، ولم يكن هذا النبأ شائعا فى بلاد الفرس . وكان لفتخريت أخ يسمى سمرديس ويشبه سمرديس أخا قمبيز شبها عجيبا ، فأجلس فتخريت أخاه على سرير الملك ، وأرسل رسلا الى جميع الولايات ومنها مصر ، يطلب من الجيوش الفارسية التوقف عن طاعة قمبيز ، والا تعترف بغير سمرديس بن قورس .

ولما وصلت الرسل الى جيوش قمبيز ، كانت الجيوش فى أغبطانة بسوريا . وعجب قمبيز من أن أخاه مازال على قيد الحياة . وأرسل على الفور من يتحرى الأمر ، فعلم بأمر سمرديس أخى فتخريت .

وتذكر الرؤيا التى رآها من أن « سمرديس جلس على سرير الملك ونطح بهامه السماء » فندم على قتل أخيه بدون سبب . وامتطى فرسه لكى يعود الى بلده ويوقع بالمجوس ، ولكنه عند ما وثب على الحصان سقط غمد خنجره ، وبقى الخنجر معلقا مجردا ، فجرحه فى فخذه ، فى نفس الموضع الذى طعن به من قبل أبيس معبود المصريين .

ولما رأى أن جرحه قتال ، سأل عن اسم المدينة التى كان فيها حينئذ فقيل ، اسمها أغبطانة .

فتذكر نبوءة مدينة بوطو ، من أن أيامه تنتهى فى أغبطانة ، وكان قد توهم أنه يموت هرما فى « أغبطانة مادى » ، حيث كانت كنوزه وأمواله ، ولم يدر أن المقصود بالنبوءة هى « أغبطانة سوريا » .

فأيقن بالنهاية .. وكانت النهاية فعلا . اذ سرعان ما سوس عظمه فى موضع الجرح ، وامتدت الأكلة فى الفخذ كله ، وعز العلاج ، فمات ولم يعقب ذكرا ولا أنثى ..

الفصل
الثالث

احمس الثانى «اmازيس»

على ضفاف بحيرة البرلس

كان ابريس ملك مصر – المسمى حبرا فى التوراة – قد أرسل جيشا من المصريين لمحاربة القيروانيين فى الغرب ، وسار الجيش على غير خطة معينة ، وبغير استعدادات تمهيدية ، وعلى أساس حربى قويم فانهزم انهزاما شنيعا ، وباء بخذلان لم يعرف له مثيل ، وعادت فلوله تروى للناس قصة الاستهتار الحربى البين .

فحقد المصريون على ابريس ، وكانوا يكرهونه ويضجون من سوء تصرفه ، فظنوا أنه انما أرسل الجيش الى هلاكه ، ليخلو له الجو ، فيستعبد الشعب ، وينزل به ما يشاء من الحيف والجور . وأعلنوا ثورة على الملك ، واجتمعوا على الجيوش العائدة من الهزيمة ، وأصحاب الذين هلكوا فى الموقعة ، وجاهروا بالخروج على ابريس .

ولما بلغت الأخبار الى ابريس ، أرسل الى أحمس « أمازيس » أمير الجيوش المعسكرة على الحدود فى ماريه ، أن يقوم لتهدئة الحالة ، فقام الى العصاة وأراد أن يقنعهم بمغبة أمرهم ، وأخذ بوسائل الاقناع وسبل التسوية ، يحاول أن يعيد الأمور الى نصابها ، دون اراقة دماء ، أو خسائر للجانبين .

وبينما هو فى الحديث اذ قدم جندى من خلفه ، ووضع على رأسه خوذة ، وصاح : لقد اخترناك ملكا علينا ، وأمن الجميع على قوله ، وأخذوا يلحون على أمازيس فى ذلك ، فلما رأى أن هذه ارادة الشعب اجمع – ولعلها كانت ارادته هو الآخر – خفية أو ظاهرة قبل منهم الملك ، ونظم قواته وجنوده ، وأخذ يتهيأ للزحف على ابريس ، واعتلاء كرسى الحكم تحقيقا للانقلاب المنشود .

وبلغ ذلك بدوره الى أسماع ابريس ، فأرسل واحدا من أكابر المقربين منه ، المخلصين له ، يدعى بطربميس ، وكلفه بأن يأتيه بأمازيس حيا ليقتص منه ، وأن يحتال فى ذلك كل حيلة ، فلما وصل بطربميس الى معسكر أمازيس ، أبدى أن الملك يطلب اليه الحضور للتفاهم بما يرضى الجميع ، وأخذ يتوسل اليه الا يرد طلب الملك حقنا للدماء ، الى آخر ما أوجبته عليه الحيلة ، وهدته اليه الوسيلة .

وأدرك أمازيس ما هنالك ، ولم يكن ليقع فى هذه الحالة ولكنه ما كان ليجاهر بنياته الخفية ، ومقاصده المستورة ، فأجاب بأنه كان فى عزمه من زمن طويل ألا يجعل لابريس سبيلا للشكوى منه ، وأنه سيسير اليه على سبيل هذه الصداقة المتبادلة ، ويقطع دابر كل ما يكون موضع الشكوى .

ورأى بطربميس الاستعدادات القائمة على قدم وساق ، فعرف مغزى اجابة أمازيس وما يجول بين كلماتها من نيات ، وعرف أنها الحرب المدمرة لا محالة . فسارع بالعودة ليخبر الملك كيلا يؤخذ على غرة .

ولكنه لقى جزاء سنمار. ذلك أن ابريس ما كاد يراه عائدا وليس معه أمازيس ، حتى أخذته نوبة من الغضب ، أخرجته عن صوابه ووسوست له بالظنون السيئة المجحفة ، وبادر على الفور فقطع أنف بطربميس وأذنيه ، دون أن يتروى ويسأله عن نتيجة مهمته .

وكان هذا العمل القبيح ضغثا على ابالة ، فما رآه من بقى على طاعته من المصريين حتى استشاطوا غيظا ، وسرت فيهم نار الغضب لا تبقى ولا تذر ، خصوصا وأن بطربميس كان ممتازا بينهم ، محببا الى قلوبهم ، كبيرا فى قومه ، عزيزا على الشعب . فخرج الجميع على طاعة ابريس ، وبادروا الى أمازيس ، والانضمام تحت لوائه فى حرب التحرير من الغاصب المستبد ، الذى لا يرعى فيهم الا ولا ذمة .

ورأى ابريس أن الحرب الأهلية حقيقة واقعة ، ولا يستطيع أن يعتمد فيها على جيش من المصريين . فجند جيشا من الأجانب ، وخرج من قصره العظيم فى « صا » ، على رأس ثلاثين ألفا من اليونانيين ، والكاريبيين ، ليخمد ثورة العصاة ، وزحف أحمس بجيشه هو الآخر ، واحتدم القتال ، بين جيش من المرتزقة المحترفين ، وجيش من أصحاب البلاد الحاقدين الغاضبين ، فكانت الهزيمة على جيش الأجانب رغم عدته وعتاده ، وقوته واعتداده .

وأسر ابريس ، وأعيد مقهورا الى قصره العظيم فى « صا » الذى ابتدأ منه ، ولكن فرق بين بداية وبين نهاية . فقد أصبح القصر لأحمس الثانى ومقرا لحكومته وملكه .

ولكن أحمس أكرم وفادة الملك الأسير ، وكان فى ذلك مشبوب الانسانية ، أو أنه كان داهية ماكرا ، لأن الشعب لم يرض عن هذا الاكرام ، بعدما ذاق على يدى ابريس من الاذلال والهوان والتعذيب والتقتيل والتشريد ، وصارحوا أحمس بأنه لا يسلك سبيل العدل بالابقاء على عدوهم الأكبر ، فسلمه اليهم بعد الالحاح ، فشنقوه ودفنوه

من ذلك أنه لما تولى الملك كان أفراد الشعب لا يوقرونه ولا يبدون نحوه شعائر الاحترام التى تليق بملك ، لأنه كان من العامة العصاة ، ولم يكن قبل ذلك من أهل البيوتات الرفيعة ، ثم هم بعد ، أصحاب الفضل عليه بتنصيبه ملكا ، فهو ملك من صنع أيديهم .

وكان لديه طست من الذهب معد لغسيل أقدامه وأقدام الأكابر والأمراء الذين يأكلون على مائدته ، فكسره وصنع منه تمثالا لأحد الآلهة المقدسة ، ونصبه فى أظهر مكان من المدينة ، فجعل الناس يهرعون الى تمثال المعبود ، ويجتمعون عنده ، ويقومون له بشعائر العبادة وطقوس التقديس .

وترقب أحمس ذلكحتى اذا اصبحعادة ثابتة ، جمع الناس وخطب فيهم ، وأعلن اليهم أن هذا التمثال ، الذى يوقرونه كل هذا التوقير ، قد صنع من طست كان يستخدم لأحقر الأعمال ، أما وقد أصبح فى صورة التقديس ، فلم يجدوا بدا من عبادته وتقديسه ، دون النظر الى ما كان . ثم أضاف : وهكذا الشأن معى .. لقد كنت من العامة ، وكنت واحدا من بينكم ، أما الآن وقد صرت ملكا عليكم ، وجب أن تقدموا لى التشريف والاحترام اللائقين بمقامى .

بهذه الحجة المفحمة ، أقنع الشعب بقضيته ، وفاز بمحبتهم واحترامهم ووجدوا ان لابد من احترامه والخضوع له .

ومن نوادره فى سعة الحيلة أيضا ، أنه كان من أول النهار يجهد فى نظر أمور الدولة ، والبت فى الدعاوى والشكاوى ، حتى يأتى عليها جميعا . ثم يقضى النهار على المائدة يمزح ويسخر ، ولا يترك سبيلا الى الفكاهة واللهو والمجون ، فساء أصحابه هذا السلوك ، ورأوا أنه لا يليق بملك ، وصارحوه قائلين : ألا تعرف كيف تحافظ على شرف مقامك ، فتحقر نفسك ؟ ولكونك رفعت باستحقاق الى عرش الملك ، وكان يجب ان تصرف بقية يومك فى تصريف أمور الرعية ومصالح المملكة ، فيعرف المصريون ان لهم ملكا من أكابر الرجال ، ويحسن ذكرك بينهم ، أما سلوكك هذا فليس سلوك ملك عظيم .

فلم يحفظ ذلك أحمس ، ولم يثر غضبه ، واخذ الأمر بالحلم والروية ، وأجابهم قائلا : الا تعلمون أنه لا تشد القوس الا اذا دعا الداعى اليها ، فاذا ما أدت الغرض ، وأصابت الهدف ، وانتهى عملها ، فألزم ما يكون أن ينزع منها الوتر ، أما اذا بقيت موترة ، فقد تنكسر ، ولا يعود ممكنا استخدامها عند الحاجة ! وهكذا الانسان ، اذا أكب على الأعمال الجدية بلا انقطاع ، ودون أن يسرى عن نفسه بمباهج الحياة ، يئول به الأمر الى

الجنون أو البله والتبلد ، وقد عرفت ذلك ، فقسمت وقتي بين قضاء المصالح والملذات ...

فألزمهم الحجة بحكمته وفطنته ورويته .

ويقال أن أحمس كان ، قبل أن يلي الحكم ، يتجنب الأعمال الجدية، ولا يميل الا الي الشرب والمجون ، واذا خلا من الدراهم ، ولم يتمكن مما يريد من الأطعمة والملذات ، جنح الى السرقة من هنا وهنـاك ، والذين يتهمونه بسرقة نقودهم كانوا يأخذونه ، اذا أنكر ، الى مكان الـكهانة . وغالبا ما كان يضطر الى الاعتراف ، ولكن كثيرا ما كان يخلص متبرئا .

فلما جلس على سرير الملك ، احتقر الآلهة التى كانت تظهر براءته ، ولم يعتن بهياكلها ، ولا اهتم باصلاحها وتزيينها ، حتى كان لا يميل الى زيارتها ، وتقديم القرابين لها ، لأنها لا تستحق العبادة ، اذ كانت نبؤاتها كاذبة .

وبعكس ذلك كان حاله مع الآلهة التى كان ينجح كهنتها فى اثبات أنه سارق ، ويلزمونه الاعتراف ، فانه كان يبالغ فى احترامهم ، ويعتقد أنهم سدنة آلهة حقيقية ، لا تتنبأ الا بالصواب .

ومما يروى عن أحمس أيضا ، أنه لما استولى بوليكرات على جزيرة ساموس ، عقد معه معاهدة ود وصداقة ، وأرسل له بوليكرات الهدايا المتواصلة ، وكسب بذلك قوة على قوته ، وانتشر صيته فى يونيا وسائر بلاد الأغريق ، وكان السعد يخدمه فى جميع حروبه .

وكان لبوليكرات مائة سفينة ، فى كل واحدة خمسون مجدافا وألف رجل من الرماة ، وكان ينازل الناس ويكتسح بلادهم ، وجعل مبدأه أنه يسر صديقه اذا أعاد اليه ما سلبه اياه أكثر مما لو لم يسلبه شيئا على الاطلاق ، وملك عدة جزائر ، واسـتولى على مدن كثـيرة فى البر ، واستظهر على أهل لسبوس بحرا ، وكانوا قد أتوا بكل قواهم لنجـدة الليبيين ، فأسرهم وكبلهم بالقيود ، وجعلهم يحفرون الخندق المحيط بأسوار ساموس .

وهال أحمس الثانى غرام بوليكرات بالفتح والغـزو ، ورأى أن معاهدتهما قد توقعه فى مشاكل كثيرة ، ورأى أولا أن يسـدى اليه النصح ، وينير له سبيل الرشد ، عله يرعوى ويفىء الى الحكمة .

فكتب اليه الخطاب الآتى :

« ... من أحمس الى بوليكرات — يلذ لى ويسعدنى أن أعلم بنجاح صديق وحليف ، ولكننى أعرف حسد الآلهة ، ولذا قد ساءنى هذا الفوز العظيم . وانى أفضل لنفسى ولمن يهمنى أمرهم ، تارة السـعة ، وتارة

الضيق ، وأن تكون الحياة مقسومة بين الأمرين أولى من أن تكون فى نعيم مستمر ليس فيه شقاء ، لأنى ما سمعت قط عن رجل قيل أنه كان سعيدا فى كل شىء ، الا وكانت له آخرة تعسة جدا .

فبناء على ذلك ، اذا كنت تثق بكلامى ، فضاد سعادتك بما أشير عليك : انظر أى الأشياء أحب اليك وأكثر اعتبارا عندك ، بحيث يسؤوك فقده أكثر من غيره ، فاذا وجدت هذا الشىء ، فألقه بعيدا عنك ، بحيث لا يمكن أن يوجد بعد ذلك ، فاذا رأيت السعد باقيا لك من كل وجه ، دون أن يشوبه شىء من الأكدار ، فلا تبطىء فى استعمال هذا العلاج الذى ذكرته لك ... »

فلما قرأ بوليكرات الرسالة فكر طويلا فى مشورة أحمس ، ووجد فيها الصواب ، وعزم على تنفيذها ، فبحث بين نفائسه عن شىء يغمه فقده أكثر من غيره ، فوقف على خاتم من ذهب ، فصه من زمردة نفيسة ، كان يختم بها ، وهى من صناعة تيودور الساموس بن تيلكس ، وأراد أن يفقده ، فجهز سفينة وركبها وأمر أن يسار به الى عرض البحر ، فلما أبعد عن الجزيرة ، اخرج الخاتم من أصبعه ورماه فى البحر ، على مرأى كل من كان فى صحبته ، وبعد ذلك عاد الى البر .

ولما رجع الى قصره ، فاق من أثر فعلته ، وندم عليها ، وظهر عليه الغم من هذه الخسارة .

وبعد خمسة أيام أو ستة وقع لصياد سمكة كبيرة ، فرأى أنها تليق ببوليكرات ، فحملها الى القصر ، واستأذن فى مقابلة الملك ، فأذن له ، فقدم السمكة وقال : يا مولاى هذه سمكة قذة اصطدتها ، ومع انى أعيش من عمل يدى ، الا أنى لم أر أن أحملها الى السوق ، لأنها لا تليق الا بك ، وأنت ملك قدير فألتمس منك قبولها ..

فسر بوليكرات بكلامه ، وقال له : « أحسنت يا صاحبى بمجيئك الى بهذا الصيد الثمين ، وسرتنى هديتك ، كما انشرحت لكلامك ، فأدعوك للعشاء معى » ...

فعاد الصياد الى منزله ليتأهب للعشاء الملكى العظيم ، وهو فى غاية السرور والانشراح ، من اقبال الملك عليه ، وائتناسه به .

ثم حدث أن الطهاة شقوا السمكة ، فوجدوا فى جوفها خاتم بوليكرات ، فمضوا اليه به على الفور ، وشرحوا له طريقة وجوده ، فتصور بوليكرات أن فى ذلك شيئا الهيا ، ورأى فيه ايماءة من السماء لها مغزاها ، فبادر بالكتابة الى أحمس الثانى يقص عليه القصص وأرسل بكتابه رسولا خاصا يوصله على الفور الى مصر .

فلما قرأ أحمس الكتاب ، عرف أنه لا يمكن انقاذ رجل مما قدر عليه وأن بوليكرات لن ينتهى عما هو بسبيله ، لأن التوفيق صاحبه فى كل شيء حتى عاد له ما طرحه بعيدا عنه ، فبعث اليه برسول يعلمه أنينقض عهد الاتحاد . وقد فعل ذلك لأنه خشى أن يشترك معه فى المصائب اذا قدر أن يصيبه شيء منها ، لأنه صديقه وحليفه .

ومما يروى عن سعة حيلة أحمس الثانى أيضا ــ وان كانت نتيجتها سيئة غاية السوء ــ أن قمبيز كان قد أرسل يخطب اليه ابنته،وقد أشار عليه بهذه الخطبة طبيب مصرى ، أراد بذلك أن ينتقم من مليكه ، لأنه اخذه من بين زوجته وأولاده ليرسله الى بلاد فارس ، حينما طلب اليه كورش أن يرسل اليه أحذق طبيب فى مملكته فى أمراض العينين . وأراد الطبيب أن يشفى غلته من أحمس ، فأخذ يزين لقمبيز خطبة ابنته ،لكى يذله اذا جاب ، وينقم عليه قمبيزا اذا امتنع .

وكان أحمس يكره الفرس بقدر ما كان يخشى سطوتهم . وأراد أن يخرج عن الاجابة وعن الامتناع كليهما ، لعلمه أن قمبيز لن يتخذ ابنته زوجة بل سرية ، وأعمل الحيلة والتبصر الطويل ، وكان فى بلاطه ابنة لابريس سلفه ، وكانت مديدة القوام ، بديعة الجمال ، ولم يبق من بيت أبيها غيرها ، وكان اسمها نيتيس ، فألبسها أحمس ثوبا مذهبا ، وأرسلها الى بلاد العجم كأنها ابنته . . .

وجازت الحيلة على قمبيز مدة من الزمن ، لأن نيتيس لم تكن تعرف شيئا عن الطلب أو الحيلة وكل ما كانت تعلم هو أنها قدمت الى فارس لتزف الى قمبيز . وذات يوم حياها قمبيز باسم أبيها أحمس فدهشت ولما فهمت حقيقة الأمر ، قالت لقمبيز : لقد خدعك احمس يا مولاى ، فاننى ابنة ابريس الملك السابق ، وقد ثار عليه أحمس والمصريون وقتلوه، وقد أرسلنى اليك بهذه الحلة النفيسة ، كأننى ابنته ، غشا وخداعا . . .

فلما أدرك قمبيز اللعبة غضب غضبا شديدا ، وعزم على أن يشن الغارة على مصر ، لينتقم من الملك الذى سخر منه وجعله اضحوكة .

ولما هاجم قمبيز مصر ، كان أحمس قد مات ، وخلفه ابنه ابسمتيك الثالث ، واشتبكت المعارك بين الفرس والمصريين ، وانتصر الفرس بعد معارك عنيفة . .

ولكن حنق قمبيز على أحمس لم يهدأ له أوار ، فمضى من منف الى صا ليفعل بجثة أحمس ما كان قد اعتزمه من الانتقام ، وحينما وصل الى قصر الملك ، أمر باخراج الجثة من القبر ، وأخذ الجند بأمر قمبيز يضربون الجسد بالعصا ، وينتفون شعر بدنه ورأسه ، وينخسونه بالخناجر وينكلون به أقبح تنكيل . الى أن مل القائمون بذلك من اهانة

جسد لم يتضرر بهم ولم يبرم منهم ، وما كسبوا الا تعبهم وضياع جهدهم ، فأمر قمبيز باحراق الجسد ، وذر رماده فى الهواء .

ومن الطريف أن المصريون لذلك العهد قالوا أن جسد أحمس الثانى ليس هو الذى وقع عليه هذا التحقير والتنكيل ، بل جسد رجل مصرى آخر يشبهه فى القد ، وتكل به الفرس ظنا أنه جسد أحمس ، اذ أن الكهانة والوحى كانت قد ألهمت أحمس بما سيجرى بعد موته ، فعمد الى الحيلة لآخر مرة ، اذ وضع فى ضريحه بقرب الباب جسدا آخر هو الذى فعل به قمبيز ما فعل ، أما جسده هو فقد أمر ابنه أن يضعه فى داخل القبو بعيدا عن الباب فسلم مما أريد به من الأذى والمهانة ...

شهامة الملك :

ومن الأخبار الخالدة فى تاريخ ملوك مصر ، انه لما عاد قمبيز الى منف ، جمع أبسمتيك الثالث وكبار المصريين فى ميدان بخارج المدينة، ليوقع بهم المهانة والزراية والتحقير ..

والبس قمبيز ابنة أبسمتيك الثالث لباس الاماء ، وأرسلهالتستقى وبيدها كوز ، ومعها عدد من الفتيات ، اختارهن من بنات الأشراف ، وألبسهن لباس الأماء أيضا ، ومرت البنات أمام آبائهن ،فولولن واجرين الدموع ، واستجاب الآباء بالدمع والبكاء والحزن الشديد ، الا أبسمتيك، فقد احتمل المحنة رجلا ، ولم ترمش له عين .

وبعد مرور البنات ، مر ابن أبسمتيك ، ومعه ألفان من شبان المصريين ، فى أعناقهم الحبال ، وفى أفواههم اللجم ، وكانوا ماضين بهم ليقتلوهم بثأر المتيلينين ، الذين قتلوا فى منف وكسرت سفينتهم لأن قضاة الملك حكموا بأن كل رجل قتل فى هذه الموقعة ، يقتل عوضه عشرة من أشراف المصريين .

ورآهم أبسمتيك مارين صفا واحدا ، وعرف ابنه بينهم وهو ماض الى القتل ، وبينما كان المصريون الذين معه يضجون بالبكاء والعويل ، كان هو هادئا ساكنا ، كما كان عند رؤيته ابنته .

ولما مضى الفتيان ، رأى أبسمتيك شيخا كبيرا كان يأكل على مائدته، وكان قد سلب كل أملاكه ، فأصبح لا يعيش الا من الصدقات ، فكان يجتاز صفا الى آخر فى المعسكر يستعطى ، حتى وصل الى حيث كان أبسمتيك والسادة الذين كانوا معه ، فلما رآه الملك الحبيس ، عجز أن يحبس دمعه حزنا عليه ، فأخذ ينوح ويبكى ، ويدعوه باسمه .

وكان جماعة من الحراس قد أقبلوا لترقب أعمال أبسـتميك ، وما تبدو عليه من الخوالج ، فرفعوا الى قمبيـز ما كان من أمره ، فدهش دهشة بالغة ، وأرسل يستخبره عن السبب ، فقال له الرسول : يقول لك سيدك قمبيز : لماذا لم تصرخ وتجرى الدمع عندما رأيت ابنتك فى زى الأماء ، وابنك يسار به الى القتل ، ثم تكرم هذا المتسول الذى لا نعلمه لك نسيبا ولا رفيقا ؟

فقال أبستميك : « قل له يا ابن كورش ان مصائب بيتى اجل من أن يستطاع البكاء من أجلها ، وأما ما أصاب هذا الرجل ، صديقى ، فى أول شيخوخته ، من وقوعه فى الفقر بعد أن كان كثير الأملاك والخيرات ، فقد ظهر لى انه يستوجب البكاء » ...

وتأثر قمبيز تأثرا شديدا من هذه الاجابة ، ورق فؤاده ، فأمر فى الحال بالعفو عن ابن أبسمتيك وانقاذه من القتل ، كما أمر أيضـا بأن يؤتى بأبسمتيك من المكان الذى كان فيه .

الا أن الذين مضو ليأتوا بالفتى وجدوه قد قتل ، لأن الذين أمروا بقتل الفتيان بدءوا به ، فمضوا من هناك ليأخذوا أبسـمتيك ، فأتوا به الى قمبيز ، فأقام عنده سائر ايامه .

ثم نمى الى قمبيز أن أبسمتيك يحرض المصريين على القيام ضـد الغاصبين ، أو أنه رأى أنه طالما كان ملك المصريين الشرعى موجودا على قيد الحياة فلن يهدءوا لحكم الغاصب ، فأمره أن يشرب دم ثور فمات به من سـاعته .

ولكن ان كان قد مات هذه الميته الشنيعة ، وسجلها عليه التاريخ ، فقد سجل لنفسه صفحة مشرقة ، هى صـفحة الاباء والشمم ، الذى لا تنال منه الهزيمة ، ولا يضيق بالانخذال ، فالأيام دول والعظماء قادة وقدوة ، ولا ينزلهم الى هوان الضعة والضعف أن يقتل ابن ، أو تسترق بنت ، أو يشهر بهم ويمثل ، فما كان للعدو أن يجد فى أبسمتيك بطـلا ثابتا جلدا ، يصمد لمصائبه ، وان كان يرق ويلين لمصائب شعبه .

الفصل الرابع

صورة قديمة

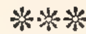
لانحاء الدلتا فى القرن التاسع عشر (1)

---

(1) هذا وصف يكتبه فرنسيان لا ليكون تقريرا فى مهمة وانما هو دعاية لفرنسا وجيشها وأخلاق أهلها وتقرؤه فتحسب أن جيش فرنسا حارب وانتصر والحقيقة مرة تقول أن شعب مصر قاوم الفرنسيين وجيوشهم فهزمهم وطردهم ودحرهم وولوا هاربين ولكن السياسة والدعاية تستعين بالحق والباطل وبالادب المسخر الملتوى المغرض مما يتضح للقارىء بغير عناء وما أقدرهم على دس السم فى الدسم !

فى أثناء الحملة الفرنسية، كلف المهندسان بوازيميه وجولوا بالمرور فى قلب الدلتا ، لاستكشاف الطرق الحربية وعمل التسـويات اللازمة للأراضى ، ودراسة نظام الترع الملاحية واصلاحها ، وانشاء خطــوط تلغرافية بين القاهرة والساحل .. الخ

وقد اطلعنا على سرد لهذه الرحلة ضمن الجزء الخـامس عشر من كتاب «وصف مصر» الذى ضم فى أجزائه المختلفة الدراسات والبحوث التى قامت بها البعثة العامية الملحقة بجيوش نابليون وقد رأينا أن نورد هنا بيان رحلة بوازيميه وجولوا لما فى ثناياها من الطرافة ولاتصـــالها بموضوع هذا الكتاب .



الدلتا هى ذلك الجـــزء من مصر الذى تنطوى أطرافه بين البحر الأبيض المتوسط وفرعى النيل اللذين يصبان عند رشيد ودمياط .

ولقد كانت الدلتا فى العصور القديمة ـ عندما كان النيــل يلتقى بالبحر فى سبعة مصبات كبيرة ـ تشمل المنطقة الواقعة بين الفـــرع الكانوبى الذى كان يصب بالقرب من أبى قير الحالية ، والفرع البيلوزى الذى لا يزال مصبه القديم واضح المعالم عند النهاية الشرقية لبحـــيرة المنـــزلة .

والشكل المثلث لهذه الأرض هو الذى جعل الأغريق يسمونها بالدلتا، لأن أحد الحروف الهجائية فى لغتهم « حرف الدال » كان مثلث الشكل، وقد أبصروا مصر السفلى على هذا الشكل المثلث قاعدته على البحـــر الأبيض المتوسط ، وقمته جنوبى منفيس ، فسموها « دلتا » .

ودلتا النيل قد تكونت من الأرساب النهرى ، ولا يوجد فى انحائهـا مرتفعات طبيعية ، وليس بها سوى بضعة تلال صناعية ، وبعض أكوام من الأنقاض حول الأماكن المسكونة ، ومرتفعـات بســـيطة من الرمال

عند الساحل ، وفيما عدا هذا فأرضها مستوية ، ويقطعها عدد كبيرمن الترع فى مختلف الاتجاهات . وهناك بحيرة ، يفصلها عن البحر لسان ضيق جدا ، وتشغل مساحة كبيرة من الشمال ، وكان يعرفها القدماء باسم « بحيرة بوطوس » أما الآن فهى تسمى «بحيرة البرلس» .

ومن قمة الدلتا الى بوغازى رشيد ودمياط على خط مستقيم نحو ١٦ كيلو مترا ، وقاعدة الدلتا ، فى خط مستقيم أيضا ، تبلغ نحو ١٣٧ كيلو مترا بين دمياط ورشيد .

هذا هو المظهر العام ، وهذه هى مساحة المناطق التى وكل الينا المرور فيها ، وهى مناطق لم تكن معروفة جيدا قبل الحملة الفرنسية ، لما كان يخشاه المسافرون من التعرض للمخاطر اذا ابتعدوا عن شاطىء النهر .

غادرنا القاهرة فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٧٩٩ قاصدين أن نستكشف فى الدلتا الطرق الحربية ، وعمل التسويات اللازمة للاراضى ، ودراسة نظام الترع الملاحية واصلاحها وتحسينها ، وانشاء خط تلغرافى بين القاهرة والساحل ، الى غير ذلك من المهام التى كلفنا بها وتلقينا تعليمات عنها . وقد ركبنا السفن من بولاق ، تلك المدينة التجارية الفنية الواقعة على ضفاف النيل ، والتى تعتبر من ضواحى القاهرة ولا تبعد عنها بأكثر من ربع فرسخ .

وقد استعملنا فى هذه الرحلة قاربا خفيفا جدا ، يسير بالشراع وبالمجداف ، فى مقدمته غرفة صغيرة مهيأة تهيئة حسنة وتقى من حرارة الشمس ، ورطوبة الليل .

وعلى نحو نصف فرسخ من بولاق ، رأينا فى الجهة اليمنى قصرا مهدما كان البكوات يزينونه بالزينات الفاخرة لاستقبال الباشوات الجدد الذين يبعث بهم الباب العالى .

وكان حولنا صورة حية ناطقة لمجموعة من القوارب ، تتلاقى وتتباعد وتتقاطع فى شتى الاتجاهات ، وتشق عباب النهر بالمدرة والمجداف بين صياح البحارة والراكبين ، وكانت الشمس فى طريقها الى المغيب خلف الجبال الليبية وأشعتها الأخيرة مازالت تضرب قمم الأهرام ، بينما كتلتها السفلى يغيرها الغسق ويطبعها على صفحة الشفق ، وخطوط طويلة من النخيل ترسم مجموعة رشيقة من الأعمدة القائمة ، والمروج الخضراء تمتد أمام عيوننا حتى رمال الصحراء .. وعند ضفة النيل جاءت قطعان من الماشية ترتمى فى الماء،وطيور بيضاء صغيرة قداستقرت هادئة على ظهور الجاموس الأسود وصغار الأطفال العراة ذوو الأجسام

البرونزية يلعبون عند حافة المياه ، وأحيانا يتوقف واحد منهم عن الحركة ، فتتشكل من وضعه وتكوينه صورة لتمثال مصر القديمة .

هذه النباتات الأفريقية ، وهذه الأغانى العربية ، وهذه المعالم التى تسبق الحضارة الأوربية ، بل وعودتنا الى أنفسنا ، كل هذا يعيد الى الأرواح بعدنا عن فرنسا ، والمجرى العابر للحياة الانسانية وتقلقل الامبراطوريات الزاهرة القوية ، وقلنا فى أنفسنا : يا طول ما تزأر هذه الأرض التاريخية ، مهد العلوم والفنون ، واذا زال الفرنسيون من وجه الأرض كما زال غيرهم من الشعوب الشهيرة ، فان هذه الأهرام شاهدة على انتصاراتهم وعليها نقوش مؤلفة تسجل مرورهم وتخلد ذكراهم ، وسوف يقال : هنا جاء شباب محارب من ذلك القطر الجميل ، الذى يحده البحر والرين والألب والبرنيز ، لينتزع ملك مصر من أولاد القوقاز المماليك الشجعان ، فخفقت قلوبنا لهذا المستقبل المتوقع الحافل بالفخر والمجد ، وبأفاعيل الأيام وغزواتها .

وهبط علينا الليل ونحن فى وسط هذه الأفكار ، واذا بنا نمر أمام ترعة أبى منجه ، وبارحناها الى نحو ١٥ كيلو مترا للأمام ، عند المكان الذى يتفرع فيه النيل الى شطرين ، ويضم بينه الدلتا ، فتابعنا فرع دمياط الذى يتجه شمالا ، بينما فرع رشيد يميل الى الغرب . ونقطة انفصال الفرعين يسميها الأهالى « بطن البقرة » .

ثم سرنا على طول السدود التى تغلق ترعة الفرعونية القديمة ، وبعدها ببضعة أمتار غادرنا فرع دمياط لندخل فى ترعة صغيرة فى الدلتا ، لا تصلح للملاحة الا فى أوقات الفيضان ، وهذه الترعة قادتنا الى أسفل التل الصناعى الذى بنيت عليه مدينة منوف .

وبعد بضعة أيام من وصولنا الى هذه المدينة ، أردنا أن نشرع فى تسوية مسطح الترعة الفرعونية ، فتوجهنا الى قرية الفرعونية التى تقع على فرع دمياط ، ولم يكن معنا حرس ، وطالما هوجمت فرق من جيشنا على هذا الطريق ، ولكننا صادفنا حسن الحظ ، وأن نكن جانبنا الحرص وربما كان الفلاحون قد صاروا أقل جرأة بعد أن عرفوا قوة جيشنا وبسالة جنودنا . ومهما يكن من الأمر ، فقد لاحظنا أنهم ليسوا بالشراسة التى تشاع عنهم ، ومنهم من عمل فى خدمة الفرنسيين وأبدى من الاخلاص والأمانة والشجاعة ما يستحق الاشادة به ، وكرم الضيافة الذى يفرضه دينهم يعتبر دائما حماية ووقاية المسافر الذى يعرف لغتهم ، فانه يستطيع أن يسير الى من يشك فى نياته منهم ، ويطلب اليه ان يذهب به الى شيخ البلدة ، ويقول له انه لجأ اليه واثقا فى كرمه وشجاعته . وهذه الطريقة قد نجحت معنا حتى فى المناطق التى لم

تخضعها قواتنا . وقد استعملناها مع كل الناس على السواء ، ورغم أن هؤلاء الرجال فى الغالب بهم قسوة وشر ، فانهم يلبون نداء الشرف بغاية السرعة ، على شرط أن تعرف كيف تسمعهم اياه .

وقد تقدمنا الى شيخ بلدة الفرعونية ، الأمير أحمد ، الذى عهد اليه بحراسة وصيانة سدود الترعة الطويلة ، وقد كان أحدنا أسدى اليه خدمة هامة عند القائد العام للجيش الفرنسى، فتلقاها بالفرح والسرور ، وتعشينا ونمنا عنده .

وفى صباح اليوم التالى ، دخل الى غرفتنا ومعه ابنته، وهى صبية جميلة تناهز من العمر نحو سبع سنوات، جاءت تقدم الينا الفطائر والفاكهة، ووجهها كان مكشوفا ، وكان فى غاية البياض وزيارة هذه الصبية ووجهها مكشوف كانت بلا شك فى تقاليد الشرق برهانا على الاكرام العظيم .

وعند رحيلنا ، أراد الشيخ أن يمنحنا مبلغا كبيرا من المال ، ولكننا رفضنا . فقدم لنا حصانين ، فأجبناه بأن الفرنسيين لم يتعودوا على قبول أشياء بمثل هذه القيمة . فنظر الينا بدهشة ، وسمعنا خدمنا العرب يتهامسون بأن سادتهم على كثير من الطيبة والجنون .

وعادة تقديم هدايا لاكرام الضيوف ترجع الى أقدم العهود ألم يقبل «أوليس» من مضيفه « ألسينوس » طالنطا من الذهب ، ورداء وكأسا؟ وربما كان يجب علينا أن نساير تقاليد الشرق، ولكن ذلك ، طبقا لتقاليدنا يكون فى حكم السداد لخدمات أديناها ، وقد تغلب الطبع علينا ، ولكننا جهدنا فى أن نكسبه المظهر الذى يجعله أقل ايلاما . (هذا كلام يؤخذ بتحفظ اذ القصد منه الدعاية لفرنسا والفرنسيين كما أسلفنا) .

واسم (الفرعونية) مشتق من اسم (الفرعون) ، الذى كان يطلق على ملوك مصر القدامى . ولما كان ينسب الى هؤلاء الحكام انشاء المعالم والآثار التى يقدم الأجانب لرؤيتها ، والاعجاب بها ، فيمكن القول بأن قرية الفرعونية تحوى أنقاضا عتيقة ، أتى عليها الزمن ، وقضت عليها غزوات البرابرة ، ولكننا لا نعلم أية مدينة قديمة قامت فى هذه البقعة.

وقد رسمنا خريطة مجرى ترعة الفرعونية كلها ، وأجرينا التسوية اللازمة . وهذه الترعة تخرج من فرع دمياط ، شمالى القرية المذكورة ببضعة أمتار ، وتقطع الجزء الأعلى من الدلتا ، على أن تصب فى فرع رشيد فوق قرية ناضر .

ونظرا لانحدار هذه المنطقة فان مياه الفرع الشرقى كانت تدخل ترعة الفرعونية بكثرة ، حتى أن البلاد الواقعة على فرع دمياط بعد هذه

المنطقة لم يصل اليها الماء الكافى للرى ، واقتحم البحر اراضيها الواطئة، والخسائر الناتجة من ذلك دعت حكومة القاهرة الى اغلاق هذه الترعة، وأول من شرع فى ذلك مراد بك ، ولكن السدود التى أقيمت كانت رديئة الصنع ، ولم تستطع مقاومة ضغط المياه . ولما استولى أيوب بك على الحكم عاود اغلاق السدود . وبعد أن تم ذلك ، قام أيوب هذا نفسه هو وعثمان بك بقطع السدود لأغراض خاصة بهما . وأخيرا أعيد اغلاق الترعة بأمر مراد بك عندما عاد الى الحكم ، وكان الأمير أحمد الذى قابلنا فى كفر الفرعونية هو الذى كلف بهذا العمل ، فتوصل بعد صعوبة الى تنفيذه ، بأن انتهز فرصة انخفاض الماء وألقى فى مدخل الترعة كميات كبيرة من الأحجار الضخمة .

والمديرية التى كنا نمر بها اسمها المنوفية (١) ، وهى أقل تعرضا لغزوات الغرب من باقى الدلتا ، وجزءها العلوى على الأخص يضمه فرع دمياط وفرع رشيد وترعة الفرعونية ، ومن السهل المدافعة عنه ضد عدو تتألف قواته من الفرسان . وقد تقدمنا الى داخل هذه الجزيرة وعرفنا أنها تعتمد فى الرى على ترعة ابو صراح (؟) التى تأخذ من ترعة الفرعونية ثم تعود اليها لتصب فيها بعد أن تكون قد حملت مياه النيل فى منحنيات ولفات كثيرة الى عدد كبير من القرى .

ومياه النيل لا تستقر الا قليلا فى تلك المنطقة من مصر ، وهذا ما يجعل جوها صحيا ، والأوبئة لا تبلغ من الخطورة والتكرر ما تبلغ فى شمال الدلتا ، ويزرع فيها القمح ، والشعير ، والأرز ، والأذرة ، والنيلة ، والكتان والبصل ، والفول ، والعدس ، كما يزرع بها بعض النباتات الصالحة للأكل كالبامية التى تؤكل ثمارها الصغيرة بعد طهوها فى الماء ، وهى لذيذة وغنية بالمادة الجلاتينية ، والملوخية التى تهرس وتطبخ ، فتكون طعاما مستطابا للأهلين، وان كان الأوربيون لا يستسيغونه لما به من المواد الهلامية .. « الى غير ذلك من الخضروات » .

والقنب يزرع بكميات ضئيلة ، ويستعمل فى غير الفرض المستعمل له فى فرنسا ، والمصريون الذين علموا أوربا فيما سبق نسج الكتان وصناعة الحبال والأقمشة ، يبدو أنهم قد جهلوا أن القنب يمكن استعماله

---

(١) أهل هذه المديرية هم الذين زودوا أهل رشيد وأهالى مديرية البحيرة بالرجال والسلاح والمال وشدوا أزرهم وكانوا من أسباب هزيمة الفرنسيين والانجليز فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ولا يغرب عن البال أن المماليك لم يكونوا مصريين بل كانوا قوما يتآمرون بالمصريين كالمستعمر سواء بسواء فيتحالفون مع الشيطان ان مسهم زوال سلطان .

فى هذه الأغراض ، أو على الأقل يلوح أنهم قد أهملوا زراعتــه لهــذا الغرض ، فهم يدخنون هذا النبات على هيئة التبغ ، أو يتعاطونه داخليا كالأفيون ، فيمنحهم نشوة تنشط قوتهم وتزيد شجاعتهم ، وكثــيرا ما تدفعهم الى القيام بأشد الأعمال جسارة . ويحبه أفراد الشعب حبا جما ، ويبدو أنهم يعوضون به التحريم الذى فرضه نبيهم على المشروبات المتخمرة . والقوة العقلية التى يفخر بها الانسان ، يحاول الناس فى كل مكان أن يبدلوها بمستحضرات ومشروبات . هل الشرور المرتبطــة بكياننا هى السبب فى السرور الذى نستشعره عندما ننسى كل شىء؟(١)

ومنوف،عاصمة هذا الأقليم ، منظرها لا يسر . منازلها ، منخفضة ومبنية بالطوب النيىء. وشوارعها ضيقة وغير منتظمة ، وأكوام الانقاض التى تكتنفها من كل جانب تغطى منظرها كله من الشرق ومن الغــرب ومياه النيل تحيط بها مدة الفيضان ، ولكنها تنجاب بسرعة ولاشك أن هذا هو السبب فى أن هذه المدينة من أصح المدن فى مصر الســفلى . وعدد السكان يقرب من أربعة آلاف نسمة ، ومن السهل أن يميز بينهم الذين يزاولون أعمال الأرض والذين يمارسون مهنا قاعدة، فالأولون فيهم ضمور وقسوة ، والآخرون أكثر سمنة ، وخصوصا النساجين ، وعددهم كبير فى هذه البلدة . '

واذا كانت منوف ليس فيها معالم قديمة ، ولا أكوام من الأنقــاض ذات الطوب النيىء التى تدل على موقع مدن مصر القديمة ، فلأنهــا قد غطتها أنقاض المنازل الحديثة . ويبدو لنا أن منوف يرجع منشؤها الى عهد سحيق ، لأنه عند الفتح العربى كانت هذه المدينة من الكبر والأهمية بحيث أعطت اسمها لاحدى مديريات الدلتا . ويظن أنه فى موقعها ، هذا أو على الأقل على مسافة قليلة منه ، قامت مدينة نيسى القديمة ،عاصمة مقاطعة بروسيبيتس ، لأن انطونان يقول أن نيسى كانت على مسافة ٤٨ ميلا من منفيس وعلى مسافة ٣١ ميلا من أندروبوليس ، وقد اصــطلح الباحثون على أن هاتين المدينتين ، أولاهما تقع بالقرب من أهرام صقارة فى قرية ميت رهينة حيث وجدنا انقاضها ، والثانية فى قرية شابور) على الضفة الشرقية لفرع رشيد ..

---

(١) فى هذا دعاية مستترة مفضوحة من فرنسيين لا يعرفان لغــة المصريين ولا عاداتهم فيمتدحان الحشيش ويضفون صفات الجراة والشجاعة لمدخنيه،ثم يكتبون عن الطعام المصرى وطهوه كأنهم يعلمون عنه الشيء الكثير وانما هو حشو من الكلام ويجىء ذلك فى تقرير رسمى فى مهمة حربية رسمية ؟!

وقد رأينا فى أحد مساجد منوف أعمدة من الجرانيت يبدو أنها أخذت من مبان قديمة ، وعند باب أحد المنازل عثرنا على أثر له قيمة تاريخية هامة ، وكان يستعمل كمقعد . وهو عبارة عن كتلة مكعبة من الجرانيت الأسود منحوتة جيدا ، وعلى أحد وجوهها بقايا نوعين من النقوش : أحدها فى خط قصير ، يشبه الكتابة الموجودة على أغلفة المومياات وعلى لفائف البردى « اللغة الديموطيقية » والآخر فى حروف اغريقية جميلة . وهذا الحجر يبلغ عرضه مترا و ٢٤ سنتيمترا ،وحول النقوش اطار عرضه نحو سنتيمترين ، وكانت النقوش فى حالة سيئة من الامحاء ، وقد نسخنا عدة كلمات من نقوش النوع الأول ، وبمقارنتها بالكتابة الوسطى فى حجر رشيد لم يعد شك فى لغة الكتابة المذكورة ، وقد عرضنا الأجزاء التى نسخناها على زميلنا المرحوم م . ريج،فشاطرنا هذا الرأى ، وكان سيعطينا ترجمتها لولا أن عاجله الموت بينما كان يقوم بأعمال مماثلة فيما يختص بحجر رشيد .

وحروف النقوش الثانية لا تدع مجالا للشك ، فهى حروف اغريقية ، ولكننا لم نستطع أن نقرأ بوضوح الا الكلمات الثلاث الأولى وبداية الكلمة الرابعة ، وهى « ... من الملك الشاب ، دائما .. الخ »

وهذه النقوش اذا قدرت طبقا لأحجامها تعتبر أكبر من نقوش حجر رشيد : فان النقوش الأغريقية فى حجر رشيد لا تشغل الا مستطيلا عرضه ٣٤ سم وطوله ٧١ سم ، بينما مثيلتها فى حجر منوف عرضها ٣٦ سم وطولها ١٢٠ سم ، والمماثلة الواضحة بين الحجرين تحمل بالطبع على استنتاج أن حجر منوف كان بهأيضاكتابة ثالثة بحروفهيروغليفية.

ومعروف ان الحجر المنقوش ، المسمى حجر رشيد ، هو عبارة عن قرار من الكهنة المصريين بايجاد عبادة خاصة ، تكريما لبطاليموس ابيفان الذى أعلن الها لمعابد منفيس ، والنقوش تبدأ هكذا : « من حكم الملك الشاب الذى يرث ... الخ » .

فنقوش حرف منوف ليس لها نفس البداية التى لحجر رشيد ، ولكن الأحوال تدل على أنها تحوى قرارا من النوع نفسه ، ولاشك أن فى طبيعة الانسان ، فى تعوده للعبودية ، ما يجعل هؤلاء الكهنة يجددون أكثر من مرة اشهار تملقهم وزلفاهم ، ، عند تولى ملوك الاغريق عرش مصر .

وقد وجد المسيو كريستى ـ زميلنا فى الرحلة ـ فى القاهرة حجرا من ذلك النوع ، ولكن تختلف مقاساته عن حجرى رشيد ومنوف . وهذا الحجر يعزز أيضا رأينا فى عدد ونوع هذه النقوش .

وقد نزلنا بمنوف فى منزل متسع ، وكان الوالى القبطى يشغل الجزء الأسفل منه ، ومن نوافذ هذا المنزل أبصرنا أكثر من مرة ،عمليات «ضرب الكرباج» ، التى كان ينزلها هذا الحاكم القبطى بالفلاحين الذين يتأخرون عن دفع الضرائب . وقد توسطنا مرارا من أجلهم ، ولكن القبطى كان يجيب بأنه لم يتبع غير ذلك فى عهد المماليك ، وأن الفلاح لا يؤدى شيئا ، الا اذا أجبر على ذلك بالتعذيب ، ويقول أميان مارسلان، ان الضرائب فى عهد الرومان كانت تجىء بالطريقة نفسها ، اذ كان من العار على المصريين أن يدفعوا الجزية بمحض ارادتهم ، ودون أن يجبروا على ذلك بضرب السياط . وفعلا لاحظنا مرارا أن الرجل بعد أن يهرأه الضرب بلا جدوى ، نجده أخيرا يخرج النقود المطلوبة ، من فمه أو من طيات عمته (١) ، ويؤديها الى الجابى . وياله من قدر عجيب .. هؤلاء الفلاحون المسلمون الذين قد ينتسبون الى صحابة محمد ، يضربهم بالسياط أقباط مسيحيون ، أو مماليك مرتدون فى قطر اسلامى ... وقد حميناهم فى بعض الأحيان حماية مجدية ، وان الوالى القبطى لم يجرؤ أن يتكلم ، فانه كان يلعننا فى سره . وقد كان فى هذا نوع من اللذة الشخصية ، ولكنها كانت مختلطة بمشاعر الفخر القومى ، التى لا يعرفها من لم يغادر وطنه . فان النائى عن الأوطان يهمه أن يرفع ذكر وطنه ، ولا يهمه ذكره الشخصى ، ولا يهتم بأن ينسب الى اسمه مافعل، ويكفيه أن يقال : « أن فرنسيا أعاننى بماله ، وحمانى برعايته . وأن فرنسيا أنقذنى من ايدى العدو » .

فى الطريق من منوف الى سمنود :

كنا قد مكثنا فى منوف عدة أشهر ، عندما صدرت الأوامر الى خمسة عشر من المشاة من حامية هذه المدينة بالتوجه الى سمنود ، فسارعنا الى انتهاز هذه الفرصة ، والسفر فى حراستهم جزءا من الدلتا .

فسرنا على الأقدام يوم ٢٠ فبراير ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات ، وصلنا الى شبين الكوم ، وهى قرية كبيرة واقعة على ترعة كبيرة هى ترعة القرينين . على فرسخين ونصف فرسخ من منوف ، فقررنا قضاء بقية اليوم فيها ، وعلى هذا فقد أنزلونا فى بيت المماليك ، ومثل هذه

---

(١) لم تكن بالطبع الأوراق فى ذلك العهد فكم يا ترى بكون القدر من النقود الذى يتسع الفم لاخفائه وما دام الوالى يعلم أين تخبأ النقود وفى الفم وطيات العمة فلماذا لا يحصلها الا بعد الضرب واهراء الجسد .

البيوت يوجد فى معظم القرى ، وهى مخصصة لنزول موظفى الحكومة الذين يمرون فى الأقاليم ، وليس فيها أية أمتعة ولا أدوات ، ولكن الأهالى مجبرون على تجهيزها بالأمتعة ، وامدادها بكل ما يلزمها .

وقد أرسل الشيخ خبزا ، وخروفا حيا تقاسمناه على الفور ، وجاء بعض الفلاحين يبيعون لنا البيض والدجاج ، وأخذ الجنود يعدون طعامهم ، وبينما كان خدمنا المصريون يعدون طعامنا ، ذهبنا نتجول فى القرية ، فرأينا أكواما ضخمة من الأنقاض والخرائب تدل على مدينة قديمة ، ولسنا نشك فى أنه اذا عملت حفريات فى هذه المنطقة ، فسيعثر على آثار قديمة .

ومن الراجح جدا أن هذه آثار مدينة « أتربخيس » التى ذكرها هيرودوت ، والتى قال سترابون ان اسمها «أفرود بتسبوليس» أو هذا على الأقل ما يجب احتماله ، اذا كنا قد وقفنا فى تعيين موقع مدينة نيسى التى أشرنا اليها فيما سبق ، لأن هيرودوت يعين موقع أتربخيس فى داخل جزيرة بروسبتيس ، ويقول أن بها معبدا مخصصا للآلهة فينوس ، واسترابون يضع مدينة فينوس فى مقاطعة بروسبيتيس التى هى بالتأكيد نفس مقاطعة بروسبيتيس التى ذكرها الجغرافيون الأخر ، كما يذكرها بلين بين مدن الدلتا والاسم الاغريقى « أفرود بتسبوليس » « مدينة فينوس» أطلق عليها بسبب العبادة التى كانت تعقد لهذه الآلهة . والاسم المصرى « أتاربخيس » يحمل نفس المعنى ، فان (أتار) كان اسما لالهة كان يسميها اليونان فينوس و (بخيس) معناه مدينة ، وهذه الكلمة الأخيرة احتفظت بقيمتها فى اللغة القبطية .

وتبعا لرواية هيرودوت ، كانت السفن تقوم من تادبخيس ذاهبة الى سائر بلاد مصر ، للبحث عن عظام الأبقار ، كى تدفن بمراسم دينية فى مكان واحد ، فقد كان الناس يدفنون العجول بحيث تكون قرونها ظاهرة فوق الأرض ، لكى يسهل على سكان أتاربخيس العثور على عظامها . وهذه الملاحة تدل أن أتاربخيس كانت تقع على ذراع من النيل صالح للملاحة ، وشبين الكوم الواقعة على الترعة الكبيرة ، تنطبق عليها هذه الشروط .

وهذه الترعة ليست تحمل ما يدل على أنها من صنع الانسان . فهى تخرج بالقرب من قرية القرينين من فرع النيل الرئيسى المتجه الى دمياط ، وتتجه فى خط واحد عبر الدلتا حتى قرية شبين الكوم ، حيث تنقسم الى فرعين ، أحدهما يقطع الدلتا عموديا ويصب بالقرب من قرية الفرستق، فى فرع النيل المتجه الى رشيد ، والآخر وهو الأكبر ينضم تحت سينيتيس « سمنود » ، الى ترعة الطبانية التى تصب مياهها فى بحيرة البرلس على

مقربة من الانقاض التى يرجح أنها آثار مدينة بوتو العتيقة • وهذا الفرع الأخير يسمى ترعة مليج ، من شبين الكوم الى التقائه بترعة الطبافية •

والحالة كلها تبعث على الظن أن الترعة التى وصفناها ، من منبعها من فرع دمياط الى مصبها فى بحيرة البرلس • ليست الا الفرع السبنيتى القديم الذى ذكره سترابون ، وهو أيضا مجرى الفرع الترموتيانى كما كان فى عهد البطالسة • بأن يضم اليه الجزء من فرع دميــاط بين قرية القرينين وقمة الدلتا • والفرع السبنيتى القديم صالح للملاحة ، وبه الماء على طول السنة ، وتياره سريع الى حد ما ، وعرضه من متر ونصف متر الى مترين • وينقسم فى بعض الأحيـــان الى جملة فروع لتكوين جزائر ، ويغذى الترع والقنوات التى تروى مناطق المدن والقرى الهامة فى الدلتا • وبذا تصل مياه النهر الى جدران المحلة الكبرى ومحلة أبو على •

وفى صباح يوم ٢١ ركبنا الترعة مع الحرس وقطعنا بها نحو سبعة كيلو مترات قبل أن نصل الى مليج التى أعطت اسمها للترعة وقد رأينا فى جنوب هذه القرية عند انحناء الترعة أكواما من الطوب تدل على موقع مدينة ضخمة فى الزمن القديم ، ويظن أنهـــا مدينة بيبلوس التى ذكرها كتسياس واتيين دوبيزانس • اذ أنه من المعروف ، أن المصريين عنـــدما أرادوا أن ينفضوا عنهم نير الفرس ، أمروا عليهم ايناروس ملك لوبيا ، وأن هذا الملك قام بمساعدة الاثينيين ، فنجح نجاحا عظيما واستولى على مصر • الى أن هزمه الفرس وطردوه من منفيس واضطر الى الاعتصام مع بقايا جيشه فى جزيرة بروسبيتس كما يقول توسيديد ، وفى مـــدينة بيبلوس ، كما يقول كنزياس ، ولما كانت هذه الوقائع قد حدثت تقريبا تحت أنظار هذين المؤرخين ، فيمكن استنتاج أن مدينة بيبلوس كانت فى جزيرة بروسبيت • وقد روى هيرودوت أن محيط هـــذه الجزيرة تسع غلوات ، واذن فيكون الموقع الذى عيناه لمدينة نينسى على مقربة من منوف، يضع أنقاض مليج فى الطرف الشمالى للجزيرة ، وهذا يطابق الموقع الذى حدده العالم دانفيل لمدينة بيبلوس نظرا لاعتبارات تاريخية ، فانه يلاحظ أن الفرس بعد أن حاصروا بيبلوس سنة ونصف سنة ، تمكنوا فى آخر الأمر من تجفيف الماء الذى كانت تقوم فوقه السفن اليونانية الكبيرة التى كانت تدافع عن الموقع ، وأن المخارج التى أفرغ منها ماء الترعة لهـــذا الغرض تحمله على الظن أن بيبلوس كانت فى الجانب الأسفل من الجزيرة• وفى الواقع يوجد فوق مليج مخرجان يسترعيان النظر أحدهما الذى تحدثنا عنه وكان ينفصل قرب شبين الكوم ويتصل بفرع رشيد عند الفرستق ، والآخر أقل أهمية وأقرب الى مليج وهو يجرى شمالا الى مدينة طنطا • ويمكن القول بأن هاتين القناتين من فعل الفرس فى أثناء حصار بيبلوس ،

وأن فتحهما هو السبب فى اختفاء جزيرة بروسبيتيس ، أو بالأحرى زوال جانب من القنوات التى كانت تحيط بها •

وقد تابعنا السير فى مجرى الترعة ، وكان أحـــد البحارة المصريين ميالا الى الحديث ، على عكس المعروف عادة عن مواطنيه ، وقد استمعنا بسذاجة أسئلته • وأفكاره عن بعض المسائل ، مشابهة لأفكار الكثير من المصريين من طبقته ، فنورد هنا بعضها على الذكر •

فانه لم يستطع مثلا أن يصدق أن لدينا فى فرنسا نهرا آخر غـــير النيل وبجانب هذا لم يرد أن يكون عندنا نفس القمر • وهذه الفكرة التى تبدو سخيفة لأول وهلة ، انما تصدر عن جهـــل مطبق أكثر مما تصدر عن شعور متعصب فانه لا يعرف المجرى الكامل للنيل ولم ير فى حيـــاته ترعة ليست تصدر عنه ، ولذا يعتقد أنه اذا كان هناك مجرى آخر من الماء العذب ، فلابد أن يكون جزءا من مجرى النيل العظيم ، أو أحد فروعه الكثيرة وباستعمال المنطق المشابه لهذا ، فان هذا القمر الذى يراه كاملا فوق رأســـه ، كيف يتأتى له أن ينير ظلمات شـــعب بعيد عن مصر كالفرنسيين ؟ •

وديانتنا أيضا كانت موضع دهشته ، وكثيرا ما سمعنا من غـيره من المصريين أفكارا عجيبة نحو هـــذا الموضوع • فان احترامنا لشعائرهم ، والعبارة المتخـذة من كتبهم المقدسة « لا اله الا الله محمد رسول الله » التى تتوج بها كل النشرات والأوامر ، لا تتفق مع هذه الديانة المسيحية المعادية للاســلام ، والتى يظنونها ديانة جميع الأوربيين • وبعضهم وقد لاحظ أن الفرنسيين لا يمارسون أية طقوس دينية ظنوا أننا لا نعرف شيئا عن الله ، ولكن كلهم على الأقل ، يعتقدون أننا فى حالة أصلح لاعتناق الاسلام، مما لو كانت لنا ديانة معادية لدينهم • وهذا الاعتبار أوجد لديهم نوعا من العطف والحب لأمتنا •

وبين أسئلة البحارة ، والأفكار التى أوحوا الينا بها، مررنا أمام قرى ميت عافية وديا ، والجعفرية ، وشمه أو عشمة ، وشرمبلاح ، وأبو جور ، الواقعة على الشاطىء الأيمن للترعة، وقرى بركة السلبة ، وكفر أجداود، ومميسامى « ؟ » والسنطة ، على الشاطىء الأيسر •

وقد توقفنا عند هذه القرية الأخيرة ، وفى الصباح التالى نزلنا على الشاطىء المقابل ، وتوجهنا سيرا على القدم الى قرية المنشية ، ومنهـــا الى قريتى رجل أجل « ؟ » وشرشابه ، وهذه الأخيرة ترويها ترعة تأخذ من ترعة مليج • ثم وصلنا الى سنباط ، بعد أن مررنا على سدود موضوعة لاحتمال الماء فى مدة الفيضان ، وعند أسفل هـــذه السدود ترعة • وأخيرا

بعد أن وجدنا فى طريقنا قريتى شبرا بنعران ، وصلنا فى المساء الى بوصير ، وهذه بلدة كبيرة تقع على ضفة النيل •

وهذا الجزء من الدلتا كله ، كما رأينا ، مزدحم بالسكان ، وهو خصب جدا ، ومنزرع عن آخره • وان كانت الأشجار فيه قليلة كسائر جهات مصر ، ولذا فان الفلاحين لا يحرقون فى الوقود الا أوراق الذرة بعد تجفيفها وروث بهائمهم ، اذ يصحنها النسوة مع قليل من التبن ، ثم يلقين بها بأيديهن على جدران المنازل لتجففها الشمس • وهذه المنازل المرصوصة على كامل طولها ، تزيد فى كآبة المنظر الداخلى للقرية التى هى على العموم مبنية بحالة سيئة من الطوب النيىء أو بالطين وحده •

وقد خيمنا بخارج بوصير ، تحت أشجار من النخيل منزرعة على ضفة النهر ، فبدت لنا هذه البلدة عظيمة ، وأحسن بناء من القرى التى مررنا بها • وان الأنقاض التى تحوطها ، والتى وجدنا فوقها حجرا ضخما من حبات الكوارتز ، علية آثار نقوش مصرية ، والتل الصناعى المربع الشكل الواقع على ثلاثمائة متر من هذه الأطلال ، وأخيرا اسم البلدة نفسها ــ كل هـذا يعزز مارجحه دانفيل من أن هذا موقع مدينة بوزيريس القديمة التى كانت قصبة مقاطعة • ويقول هيرودوت أن هذه المدينة كانت تحوى معبدا كبيرا مخصصا للالهة ايزيس ، كانت تقام فيه كل سنة ، تكريما لهذه الالهة ، حفلة عيد تعتبر أهم مراسم الديانة المصرية بعد أعياد بوبسطة ، فـكانت تقدم اليه من مختلف أنحاء البلاد المصرية جموع كبيرة من الناس من مختلف الجنسين ، وكانوا يستعدون للعيد الدينى بالصيام والصلوات ثم يذبحون عجلا ، ويسلخون جلده ويزيلون أمعاءه وأفخاذه وأكتافه وعنقه والسطح الخارجى لوركيه ، ثم يحشون جسمه بالدقيق ، والعســـل ، والزبيب ، والتين ، والبخور ، والمر ، ومواد أخرى زكية الرائحة • وبعد أن تعـد الضحية على هـــذا الوضع تحرق • وفى أثناء ذلك ينوح الحـــاضرون ويلطمون وجوههم ، ويبدو أن هذا كله يقام تذكارا لموت أوزيريس ، اذ يروى بلوتارك عن يودوكس أنه على الرغم من أنه قد أقيمت أضرحة كثيرة لأوزيريس فى مصر فان جسده فى الواقع موجود فى بوزيريس ، وقد ولد فيها أيضا • ويقول غيره من المؤرخين أن اسم هذه المدينة مأخوذ من الكلمتين المصريتين (بى أو ســيرى) أى مدفن أوزيريس ••• ومهما يكن من أمر هذه الأساطير المختلفة فاننا نأخذ منها أن اسم مدينة بوزيريس مشتق من اسم أوزيريس ، ومن السهل تصور أن تقام فيها عبادة خاصة لهذا الاله ، ويموت أوزيريس رمز الشمس والنيل ، يعنى الكهنة انتقال الشمس الى الجنوب وانخفاض النيل ، وهى أوقات بعثت على اقامة حفـــلات رسمية حزينة ، ظن بها الأشخاص غير العليمين بهذه الغوامض أنهم يحيون ذكر الموت الحقيقى لأحد آلهتهم •

وبعض الأساطير تزعم أيضا أن مدينة بوزيريس تأخذ اسمها من اسم بوزيريس ملك مصر الطاغية القاسى الذى كان يقدم قربانا لجوبيتر جميع الأجانب الذين يقتربون من بلاده ، وأن هذا الملك قتله هرقل . اذ أراد أن يقــدمه قربانا للاله . ولكن سترابون يؤكد أن هــذه محض خرافة لا أساس لها ، ويرجح أنها قد اخترعت انتقــاما من المصريين ، اذ كانوا لا يكرمون ضيافة الأجانب .. واننا نشاطر سترابون هذا الرأى . ولكن عنـــد ما يضيف سترابون أنه لم يكن فى مصر يوما ملك باسم بوزيريس فلسنا ندرى أيهما الصادق هو أو ديودور ، لأن هذا يذكر أميرا بهذا الاسم يعزو اليه انشاء طيبة .

وفضلا عن ذلك فان ديودور يتفق مع سترابون فيما يختص بالوقائع الخرافية المنسوبة الى هذا الفرعون ، ويعطى عنها ايضاحا مقنعا ، اذ يقول : « ان ملوك مصر القدماء كانوا يضحون على قبر أوزيريس كل الرجال الذين يشبهون تيفون فى شعرهم الأحمر ، وكانت هذه الضحايا فى الأغلب الأعم من الأجانب نظرا لأنه من النادر جدا وجود مصريين بهذا اللون . وهــذا هو منشـــأ الخرافة التى جعلت بوزيريس لدى الاغريق ملكا لمصر يذبح الأجانب ، بدلا من أنه لدى المصرى ليست تدل هذه الكلمة على أحد من ملوكهم بصفة خاصــة ، وأن الكلمة تعنى فى هــذه المناســبة مدفن فى أوزيريس » .

وفى اليوم التالى عند مطلع الصبح غادرنا بوصير ، وفى أقل من ساعتين وصلنا الى سمنود ، بعد أن عبرنا قبلها ترعة كبيرة تأخذ من النيل .

مدينة سمنود ، وأطلال بهبيت :

سمنود هى أكبر مدينة على النيل بين القاهرة ودمياط . وبموقعها على النهر ، واحاطتها بالترع والقنوات المسـلوكة ، ومجاورتها للمحلة الكبرى ، وهى من أهم المدن الصناعية فى الدلتا ، كل هذا الموضوع السعيد أتاح لسمنود أن تكون مركزا تجاريا نشيطا وفيها أسواق كثيرة تجـذب اليها أهالى الجهات المجاورة ، حتى ليكون من العسير المرور فى الطرقات من شدة الزحام . ومعظم المنازل من الآجر ، وبناؤها جيد . ومسـاجدها ليس فيها شىء يسترعى النظر وأهم مبنى بها « وكالة » عظيمة تقع على ضفة النيل ، ونسبة الوفيات فى سمنود فى الأحوال الاعتيادية من ١٣ الى ١٧ شخصا فى الشهر ، وهذا قد يدل على أن عدد سكانها من أربعة الى خمسة آلاف نسمة .

والسهول المحيطة بالمــدينة خصبة جدا ، ويقطعها عــدد كبير من القنوات ، أكبرها ترعتان ، احداهما فى الجنوب بقرب سمنود ، والأخرى

فى الشمال بقرب قرية الطبانية ، وهما تجريان غربا حتى تصبا فى ترعة مليج ، بحيث تصبح مليج ومنطقتها فيما يشابه الجزيرة •

وهذه المدينة من أعمال مديرية الغربية ، وقد جعلت عاصمتها مؤقتا فى مدة حكم الفرنسيين ، لأن العمليات الحربية حتمت اختيارها لأنها أصلح من المحلة الكبرى لاقامة قائد الاقليم •

وقد اتفق كافة العلماء على أن سمنود تقع محل المدينة القـديمة سبنيتوس كما يسميها الاغريق ، أو سمنوت كما سماها القبط • والتشابه عظيم بين الاسمين والاسم الجديد ، وان كان لا يعتبر برهانا قاطعـا ، الا أنه لايجب أن يهمل ، لأنه يوجد فى مصر كثير من المدن والقرى لم تتغير أسماؤها من أقدم العهود أو وقع بها تعـديلات بسيطة • والأطلال التى تحيط بسمنود ، وتمتد الى مسـافة كبيرة غربيها ، تحمل طابع العهود السحيقة • ونظرا لأنها لاتبعد كثيرا عن ترعة مليج التى تقترب اليهـا بانحناء ، فانها لابد أن تقع ، كما كانت تقع سبنيتوس فى الماضى على الفرع السبينيتى الذى ذكره سترابون ، وكذلك على الفرع الذى ذكره هيرودوت ، والذى يتكون من ترعة الطبانية والجزء من دمياط الذى يقع فوق هذه الترعة • وأخيرا فانه فوق سمنود يكون النهر جزيرة واسعة يدل مظهرها على أنها كانت تشمل مدينة «اكسويس» التى كانت تابعة للمقاطعة السبينيتية ، طبقا لما ذكره سترابون •

ومدينة سمنود الحالية لاتشغل الا جزءا صغيرا من موقع سبنيتوس القديمة ، ونذكر من الآثار الثمينة التى وجدت بها ، تمثالا نصفيا جميلا من البازلت أحضره الجنرال فيال الى فرنسا ، وكتلتين من الجرانيت الأحمر يرجح أنهما مازالتا فوق الأنقاض المجاورة للمدينة ، احداهما تبلغ مترين طولا فى نحو ٥٠ سم أو ٦٠ سم عرضا وعلوا ، وأحد أطرافها ينتهى بشكل كروى ، وأحد وجوهها المسطحة تحمل بقايا جعران كبير ذى أجنحة طائر وهو الرمز الذى يسميه الأثريون « الجعران المجنح » ، والوجوه الأخرى والجزء الدائرى ، مغطاة بحروف دقيقة تشبه الحروف الهيروغليفية الى حد كبير جدا ، وقـد رأينا نظائر لها على أوراق البردى وعلى أغلفـة المومیات وفى طيبة على مقابر الملوك • ويبدو لنا أنها حروف هيروغليفية مختزلة ، وتختلف عن الكتابة الموجودة على الآثار الكبرى ، وأغلب الظن أن المصريين أخذوا فى تحوير حروفهم شيئا فشيئا لجعلها أسهل قراءة ، حتى وصلوا دون أن يشعروا الى الحروف التى نراها على البردى ، وأخيرا الى الكتابة الثانية التى وجدناها على حجر رشيد • ولعلهم كان لهم فى وقت واحد ثلاث كتابات متميزة : كتابة مختزلة عامة ، وكتابة مختزلة هيروغليفية ، والكتابة الهيروغليفية الأصلية ، فضلا عن الصور الرمزية

المنقوشة أو المرسومة على جدران المعابد ، والتى تشرح لعارفيها الحوادث التاريخية الكبرى وغوامض الديانة والظواهر الطبيعية ٠

وقد كانت رغبتنا شديدة فى زيارة أطلال بهبيت الواقعة فى شمال سمنود ، فسهل لنا الجنرال فوجيير قائد المنطقة تحقيق هذه الرغبة ، ولن ننسى مطلقا الحفاوة التى تلقانا بها ٠ وفى اليوم المحدد للزيارة امتطى حصانه معنا ، وسرنا فى حرس مكون من بعض الفرسان ، ومعنا عدد من مشايخ الاقليم ، وحوالى منتصف الطريق عبرنا ترعة الطبانية التى تلتقى بترعة مليج بالقرب من ذلك المكان ٠

ولما اقتربنا من بهبيت رأينا على بضع مئات الأمتار شرقى القرية تلا من الأرض ، هو الأنقاض التى نبحث عنها ، فهرعنا اليها ٠ واذا بنا نجد أنفسنا فى داخل جدار رباعى الشكل ، جانبه الطويل يبلغ طوله ٣٦٢ مترا وبجانبه الصغير طوله ٢٤١ مترا ، ولا تزال بعض أجزائه يبلغ علوها من ١٨ الى ٢٠ مترا أو سمكها من تسعة الى عشرة أمتار ٠ وبه فتحتان فى الجهة الغربية ، وفتحتان فى الجنوب ، وفتحة واحدة فى الشمال ولم نستطع الا فى عدد قليل من المواضع أن ندرك أن هذا الجدار مبنى بالطوب النىء ، لأن هذه الأحجار على العموم مكسورة ومختلطة لدرجة ألا ينم ظاهرها الا على كتلة من الأرض ٠ وقطعة الأرض التى يضمها هذا الجدار جزء منها منزوع ، وهناك قناة تحمل اليها مياه الرى اللازمة فى أيام فيضان النيل ٠ وفى منتصف هذا الموقع تقريبا ، وعلى بعد ٢٠ مترا من الواجهة الغربية للجدار توجد أطلال مبنى عظيم ، هى عبارة عن أكوام من الصخور الجرانيتية ، بينها رءوس أعمدة عليها وجه ايزيس ، وصخور للسقف وأعمدة كبيرة ، وعليها جميعا نحت بارز فى غاية الدقة ٠ وقد يبدو عجيبا فى مصر السفلى أن توجد معابد مبنية كلها بالمواد الجميلة المستخرجة من محاجر سيين « أسوان » بينما المعابد والقصور فى مصر العليا تقوم فى وسط الجبال الجرانيتية ومع ذلك تبنى من الحجر الجيرى أو المحبب ٠ ولكن هذا يبين العظمة والخلود اللذين كان يتوخاهما المصريون فى اقامة المنشآت ، فقد كانوا يدركون أن الحجر الجيرى والمحبب بتعرضه لهواء البحر لايطول بقاؤه ، فلم يترددوا دون استعمال الجرانيت فى الدلتا، ولم تكن أية صعوبة لتقف فى طريق هذا الشعب الصبور المثابر ، بل أنها لتزيد عزمه شدة ٠ أما فى طيبة فهناك الشمس الحافظة ، حتى أن الخشب نفسه لا يتحلل وأجسام الحيوانات تحتفظ بكيانها دون تحنيط ، على شرط أن تكون فى معبدة عن الأرض المبللة ، ولذا فقد فضل المصريون اختيار الأحجار الأسهل نحتا ٠

ومما هو جدير بالذكر أن دانفيل يضع فى هذا الموضع مدينة ايزيس « أوبدوم » التى ذكرها بلين و « ايزيوم » التى ذكرها ايتيين دى بيزانس ،

ويرى أنها غير بوزيريس ، ولكن هذا لا يتفق مع ما رواه هيرودوت من أن مدينة بوزيريس تحتوى على معبد فخم للآلهة ايزيس ومع ذلك فان خريطة بوتنجر تدل على أنه كان فى الدلتا ثلاث مدن باسم ايزيون أى تحوى معابد للالهة ايزيس ، واحداها بلا شك فى موقع بهيبت ، وعلى كل حال فان وجود مدينة قديمة مؤكد فى بهيبت من وجود هذه البقايا الفخمة ، خبرا من روايات المؤرخين ••

المحلة الكبرى وطنطا وأطلال مدينة سايس :

غادرنا سمنود ، لكى نقطع الدلتا من فرع دمياط الى فرع رشيد ، مارين بالمحلة الكبرى وطنطا ، وهما من أكبر مدن مصر السفلى •

وبين سمنود والمحلة الكبرى ، مسيرة ساعتين ونصف ساعة تقريبا ، وحوالى نصف الطريق يقع على ترعة سمنود ، ومن ثم نصعد جزءا صغيرا من ترعة مليج ، ثم نتابع أحد الفروع الى المحلة الكبرى ، ونلتقى على هذا الطريق بقرية أبو على الضخمة، وزاويتين أو ضريحين من أضرحة الأولياء، يحترمها أهالى الجهة • وبالقرب من الزاوية الثانية ، محراب من صخرة واحدة ، يشابه ما وجدناه ، فى معابد مصر السفلى ، وهذا المحراب يكاد يكون على شكل مكعب ، وينتهى بشكل هرمى علوه ١٠ سنتيمترا ••

والمحلة الكبرى هى قضية مديرية الغربية ، ولقد سميت الكبرى لأنها فى الواقع أكبر مدن الدلتا • ولكنها ليست آهلة بالسكان بنسبة اتساع رقعتها ، وفيها بعض جهات مهجورة تماما ، وفيها نشاط تجارى ، ولكنها مدينة صناعية أكثر منها تجارية • وأهم صناعاتها نسج الحرير ، ويزيد فى أهميتها أنه لا يوجد لهذه الصناعة مدينة أخرى فى مصر ، أو على الأقل لم نر مدينة أخرى ، والحرير يستورد من سوريا اذ يستحضر فى لوزه الى دمياط ، حيث يفصل ، ويكون حينئذ أصفر باهتا قذرا ، ثم يبيض فى المحلة الكبرى ، بأن يغلى فى محلول النطرون ، ويضرب بعد ذلك على أحجار مسطحة ، ثم يغسل فى ماء جار ، وهذه العملية تعطى الحرير لونا أبيض ناصعا • وفى المصنع الذى زرناه بعناية ، لاتوجد صباغة الا لثلاثة ألوان هى : الأسود ، والأحمر ، والأصفر • وتكاد تكون كل الأقمشة الحريرية التى تكسو نساء مصر ، خارجة عن مصانع المحلة الكبرى • ويصنع بهـا أيضا المناديل التى يعصبن بها رءوسهن ، والغلائل الخفيفة التى تصنع منها القمصان وقد رأيناها على الأنوال ، والبشاكير التى يستعملها النساء فى الحمام وحوافها من الحرير ، وجزؤها الداخلى من التيل ، وهى ملونة بألوان مختلفة •

والمحلة الكبرى تحتوى على بقايا أثرية قديمة • وان كانت الروايات لم تتحـدث عن وجود مدينة قديمة فى هـذا الموقع فربما كان به موقع

سينوبوليس التى كانت تابعة لبوغيريس ، والتى قرر أنطونان أنها على ٢٥ ميلا من طمويس (تمى الأمديد) ، وهذا يعين تماما موقع المحلة الكبرى ، بين بوصير وتمى الأمديد . والآثار الموجودة فى المحلة الكبرى ذات صلة كبرى بآثار بهبيت ..

والمحلة الكبرى ملتقى بنات الهوى من جميع أنحاء الدلتا ، واليهـــا تلجأ اللاتى تخشين أبحاث البوليس ، فيجدن منأى عن ذلك لا يتوافر حتى فى القاهرة نفسها . وهن يتمتعن فى المحلة بحرية تامة ، والسيدة التى على رأس هذه الجماعة ، تدير من المحلة رحلاتهن فمن الأقاليم المجاورة ، والأسواق والمواسم تجتذب عددا كبيرا منهن وكم من مرة فى أثناء سيرنا رأينا بعض هؤلاء الفتيات يتسارعن أمام فرق جنودنا ، ويمزجن الموسيقى الحربية برنات الصنوج ، وضربات الدفوف ، ويبـــدين من فنون الغزل والاغراء ، مايرغبن به فىاستثارة الجنود ، ويضربن خيامهن فى وسط معسكراتنا .

ويوم أن وصلنا الى المحلة الكبرى ، نزلنا عند أحد أغنياء المـدينة . وقد كان يحتفل بزواج شاب ، هو رئيس خدمه ، ومحل حظوته . وقـد عاملنا بكثير من الاحترام والصداقة ورغب أن نشهد هذه الحفلة كلها . وكان المنزل مزينا بالأضواء ، واجتمع الناس وأصدقاء العروسين فى فناء الدار ، وجلسوا على مقاعد ، وبين الفينة والفينة ، كانت ترتفع أصوات المغنيات ، اللاتى وضعن فى المنظرة بين نسوة الدار وصديقاتهن . ودامت هـــذه الأغانى نحو ساعة ونصف ســـاعة ، مصحوبة بالدفوف ، وآلات موسيقية مصرية أخرى .

ولما انتهى الرقص ، صعد رب الدار مع أصحابه الى المنظرة وأجلسونا فى مكان الشرف ، وجلس العريس ، واسمه على ، الى جانبنا على الأريكة، أما « عيوشة » الصبية التى لم يرها بعـــد ، فكانت فى غرفة مجاورة ، محاطة بنسوة مهتمات بتزيينها . وعندما ما انتهين من زينـــة العروس ، دعى الى الدخول ، وكشف له وجه عروسه ، ثم قدم الجميع نحونا : الزوج يســـير بخطوات بطيئة الى الخلف ، والعروس تتبعه ، وكلاهما تسنده امرأتان . وكانت العروس مزينة بحلى ثمينة ، وعلى رأسها عمة محلاة بخيوط الذهب والفضة ، وجبهتها وخداها مدهونة بلون أحمر ، وعليهـا رسوم مضحكة بأوراق الذهب ، وكانت مرخية عينيها فى خجل ، واذا رفعتهما ، فانما لتنظر الى الزوج الذى تسير أمام وجهه . الى أن وصـــلا الى الأريكة التى كنا نجلس عليها ، فاقتعد الشاب مكانه بجانبنا ، وظلت العروس واقفة أمامه ، لاتتحرك ولا تريم ، وأخرج أحد الشيوخ المقربين لأهـــل المنزل من فمه قطعة ذهبية ، ووضعها فى فم العروس ، ثم عادت

الى الغرفة المجاورة ، مصحوبة بالنسوة وهن يتصايحن : يا بخت من عاش فى ســنة النبى ... ثم بدلت العروس ملابسها ، وظهرت ثانيــة أمام الحاضرين بزينة ملابسها الجــديدة ، ولم يعد يتبعها على . واستأنفت دورتها فى البهو ، وعادت ووقفت أمامنا مرة أخرى وتكررت هذه العملية خمس مرات فى حضورنا ، وفى كل مرة تظهر العروس فى ملابس جديدة . وفى أثناء الاستراحة من هذا المنظر : كانت المغنيات ينشدن بعض الأغانى بمصاحبة آلاتهن الكريهة . والموسيقيون والراقصات قاموا بدورات لجمع نقود من الحاضرين .

ولم نظل فى الحفلة الى نهايتها ، لأننا كنــا فى حاجة الى الراحة ، فانسحبنا الى غرفتنا ...

ثم غادرنا المحلة الكبرى متجهين الى طنطا ، عبر سهول خصبة ، تقطعها قنوات كثيرة ، متفرعة من ترعة مليج ، وتكاد كل قرية تكون لها ترعتها ، وهناك جسر كبير لحجز ميــاه الفيضان ، وتوجهها الى الحقول المحتاجة اليها ، ويبدو لنــا أن المزروعات هى نفسها التى لاحظناها سابقا ، فهى متماثلة فى أنحاء بلاد الدلتا ، فيما عدا شجيرات الأرز ، فانها تكثر فى رشيد ودمياط ..

وقد مررنا بالقرب من عدة قرى ، أهمها برقين ، وصفط ، وطوخ ، وأخنوى ...

وقد وصلنا الى طنطا ، فى مساء يوم قيامنا نفسه من المحلة الكبرى وهذه المدينة تبعد عن القاهرة وعن رشيد وعن دمياط بمسافة واحــدة تقريبا ، وهى تعتبر المدينة المركزية للدلتا .

وتروى الجهات المجاورة من قنوات تأخذ من ترعة القرينين ، وتصل الى غرب المدينة وشرقها ، وتحيط بها ، وهى قنوات قليلة العمق ، وينتج من ذلك ، أن ضواحى طنطا التى رأيناها خضراء مزهرة عند مرورنا بها ، تصبح قاحلة جافة اذا كان فيضان النيل ضعيفا ، لأن أرض مصر لا تنبت بها نباتات من تلقاء نفسها بالرغم مما هى مشهورة به من الخصوبة ، وليس بها الا النباتات التى تزرعها يد الانســان ، والأراضى التى لم ترو تظل بلا خضرة، والتى زرعت ، تبدو بعد حصادها قفرا يبابا، ولذلك كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بعد فتح مصر يقول : ان هذا القطر يمثل على التتابع ، صورة حقل من التراب ، وبحر من الماء العذب ومرج من الزهور . ومن الخصــائص العجيبة فى التربة المصرية . أن الخضروات المستوردة من أوربا . عند ماتزرع فيها ، تؤتى أكلها طيبا فى السنة الأولى ، ولكن البذور التى تنبتها تكون عقيمة أو لا تنبت الا نبتا ضعيفا ، وأقــل جودة من المحصول الأول ، حتى أنه يجب أن تستورد بذور جديدة من الخارج سنويا ، وهذا ما يفعله تجار الفرنجة فى شأن خضر أوربا التى

يزرعونها فى حدائقهم • ومن العجيب جدا التشابه فى ذلك النبـــاتات والحيوانات : فان الأجانب الذين لا يتصـــاهرون الا فيما بينهم دون أن يختلطوا بأهالى البلد ، لا يدومون طويلا ، شأنهم شأن النباتات الغربية • والمثل الصارخ على ذلك هو المماليك فانهم استقروا فى مصر منذ قرون ، ولكنهم لا يزيدون الا بشراء عبيـــد سنويا • ويكاد يكون جميع أطفالهم يموتون فى سن مبكرة جدا ، ويقال ان جنسهم قليلا ما يبقى الى الجيل الثـــانى •

وطنطا ، كغيرها من مدائن مصر ، محاطة بالأغلال ، ففى شرقها كتلة ضخمة من الطوب النيىء ، أقام عليهـــا الأهالى مقابرهم ، وهى مكسورة بالفئوس فى جملة مواضع ، وهذه القطوع تبدى أن بها أحجارا بأحجام كبـــيرة •

هذه الهضاب الصناعية ، أسسها سكان مصر القدماء ، ليضعوا عليها مدنهم ، حماية لها من أخطار الفيضان • واذا كان المصريون فى العصور الحديثة قد قاموا بأعمال مماثلة ، فانه يمكن تمييزها بسهولة عن الأولى بصغر المواد المستعملة فيها • ولابد أنه قد قامت مدينة مصرية فى ماضى الزمن فى موقع طنطا •

ومما يلاحظ أن جميع المدن المصرية محاطة ببقايا وأنقاض ، لأن المواد الناتجة عن تهدم الدور القديمة لم يكن ممكنا استعمالها فى مبان جديدة ، فكان لابد من نقلها خارج المدينة ، وتضحية قطعة من الأرض لوضعها بها •

ومع أن مدينة طنطا هى أكثر مدن الدلتا سكانا ، الا أن عدد سكانها لا يزيد عن ١٠٫٠٠٠ نسمة ، ومنازلهم مبنية بالآجر المحروق ، الذى يصنع فى الجهة نفسها ، بتراب الأنقاض المحاطة بها المدينة •

وفى طنطا ضريح ولى عظيم ، يجتذب اليها أفواجا من المسلمين فى أوقات معينة ، ولذلك فان على بك الذى اشتهر بحماية التجارة باقامته المنشآت اللازمة لتقدمها ، عرف كيف يستفيد من هذه الحالة ، ليجعل المدينة مركزا تجاريا هاما ، ولهذا الغرض أنشأ الأجانب منذ نحو أربعين سنة ، وكالة واسعة جميلة •

والوالى الذى نحن بصدده ، يسمى السيد أحمد البدوى ، وقد ولد فى فاس سنة ٥٦٦ هجرية ، ١٢٠٠ ميلادية ، وقـــدم الى مصر للذهاب الى مكة • وعاد من مكة الى طنطا فى يوم واحد « المسافة من مكة الى طنطا تبلغ ثلاثمائة فرسخ » • واستقر فى طنطا ومات بهـــا فى سن التاسعة والسبعين ، بعد أن أقام بها نحو ثلاثين سنة ، وفى أثناء حياته قام بمجموعة من الكرامات ، فأحيا الموتى ، وأبرأ المقعد ، وبصر الأعمى الى غير ذلك •

وهذه الوقائع ضمها تاريخ مسهب يقول أتقياء المسلمين أنه قد شهده الآلاف من شهود العيان(١) .

وفى سنة ٧٠٠ للهجرة ، استبدل الملك الناصر بالأثر الصغير الذى كان مقاما فى بادىء الأمر ، مسجدا يضارع أفخم مساجد القاهرة بسعته ، وانتظام بنيانه ، والزخارف التى حلى بها . وأفخم مابه القبة التى يثوى تحتها جثمان السيد أحمد البدوى . وقد أجرى به على بك بعض التصليحات منذ نحو نصف قرن ، ولم يدخر جهدا ولا مالا ، حتى قيل عنه أنه تقى وكريم ، فى حين لم يكن غير سياسى ماهر . وجدران المسجد غطيت بالمرمر حتى السقف ، والقبة التى هى من خشب ، كسيت بالرصاص، وزينت من الداخل بالمذهبات والرسوم العربية الأنيقة .

وليس من الصعب ادراك أن الدور فى طنطا قد بنيت للتجارة ، فالجزء الذى يطل على الشارع من أدوارها الأرضية مخصصة كدكاكين صغيرة تؤجر للتجار الغرباء فى مدة المواسم ، وكثير من واردى الموسم يخيمون خارج المدينة ، والخيام والمنازل تضاء كل ليلة ، ويسمع فى كل ناحية صياح الفرح ممزوج بضجة الآلات الموسيقية المصرية وهذه المواسم تستمر ثمانية أيام ، وتتيح لسكان الأقاليم أرباحا جمة . ولم تقم مواسم من هذا القبيل فى مدة وجود الجيش الفرنسى بمصر ، نظرا لانتشار الطاعون من جهة ، وكذلك للاضطرابات التى قدتسبب من وجود هذه الجموع الكبيرة .

وبعد أن بقينا فى طنطا بضعة أيام للراحة ، عاودنا طريقنا ، فمررنا بقرية بيار أو ابيار ، حيث التقينا بالفرع الغربى من ترعة القرينين الذى يسميه البعض « فرع شبين الكوم » لأن منبعه قريب من تلك القرية ، وانتهت رحلة اليوم بالقرب من قريتى النحارية وأسديمة ، حيث توجد بقايا مبان ، لابد أنها آثار مدن مصرية قديمة ، وأحداها قد تكون مدينة « سيوف » ، التى كانت تابعة لمقاطعة سايس ، حيث ولد أحمس الثانى « أمازيس » ، الذى صعد من شخص عادى الى فرعون عظيم .

وفى الصباح التالى تابعنا ترعة شبين الكوم الى مصبها فى النيل عند الفرستق ، ثم توجهنا الى « صا الحجر » التى كانت قديما تدعى سايس ، حيث لاتزال توجد بقايا هامة ، واسمها الحديث يحمل آثار الأسم القديم فى الجزء الأول منه ، أما كلمة « الحجر » الملحقة به فقد أضافها اليه العرب نظرا للأحجار والانقاض التى كانت هناك . ومؤلفو الأقباط يسمون هذا المكان « صاى » ، ولا يوجد شك فى انطباقها على

---

(١) هذه الكرامات أو المعجزات لا يؤيدها دليل ولا يؤمن بها المسلمون .

سايس ، ومع ذلك ، فان موقع أطلال صا الحجر ، توافق تماما الموقع الذى حدده سترابون لموقع سايس ، ولكن الذى لايدع مجالا للشك فى وجود هده المدينة القديمة ، هو هذه الأطلال الهائلة التى لاتزال باقية فى « صا الحجر » ، وهى تتكون بصفة رئيسية ، من سور عظيم جدا طوله ٨٨٠ مترا ، وعرضه ٧٢٠ مترا ، يضم كمية من الأنقاض والآثار القديمة .

وكثيرا ما كانت سايس مقاما للفراعنة ، وبينهم أحمس الثانى الذى أهتم بتجميلها اهتماما عظيما ، ولكن الذى طار بشهرتها فى الخافقين ، هو أنها أوجدت مدينة يرتبط اسمها بالعواطف الحارة وذلك أن سيكرويس قام من سايس ومعه المهاجرون المصريون الذين أسسوا أثينا : أثينا التى ما كادت تقف على قدميها حتى غطى مجدها مجد مصر القديمة العلمية . فان النشاط والنبوغ وحتى الأخطاء التى تصدر عن شعب حر ، لها من الرنين والضجة ، ما ليس للغنى والهدوء الداخلى فى شعب يتركز العلم والسلطة فيه فى طوائف معينة ، ولباقى الشعب الجهل والكدح .

ومن صا الحجر الى دسوق ، قضينا يوما كاملا فى تتبع شواطىء النيل ، وعبرناه ، وفى منتصف الطريق تقريبا ، توجـــد ترعة عظيمة تتجه الى أن تندغم فى بحيرة البرلس .

ودسوق قرية هامة ، وفى أحد مساجدها ضريح ولى ، يجتـــذب اليها مرتين فى السنة عدد كبير من المسلمين « سيدى ابراهيم » .. وموسمه من أكثر المواسم ازدحاما بعد موسم السيد البدوى .

وقد دلونا ، بشمال شرقى دسوق بنحو فرسخين ، على ضفاف ترعة كبيرة على أنقاض تسمى « كوم فرعون » ، وهذا الموقع يوافق موقع «كابازا» عاصمة المقاطعة الكابازية . واسم « شباس » الذى تحمله عدة قرى مجاورة مثل شباس الملح وشباس عمر وكوم شباس ، ممـا يؤكد هذا الرأى .

ثم اتجهنا الى فوة ، وعلى نحو ربع فرســـخ فى شمال دسوق ، عبرنا ترعة صالحة للملاحة طوال السنة تقريبا ، وقـــد قابلنا ، فى منتصف طريقنا تقريبا ، قرية السلمية التى أخـــذتها قواتنا عنوة ، وأحرقتها ، لمعاقبة السكان الذين هاجموا سفننا عدة مرات ، ويبدو أنهم لايحملون لأمتنا أى ضغن كما سبق أن لاحظ ذلك مسيو دينون(١) .

---

(١) رأيتم شعبا يهاجم سفنا بها قوات من الجيش وعدوا غازيا وينزل بهم هزيمة وخسائر ويقال عنه أنه لا يحمل للفرنسيين حقدا أو أى ضغن .

وفوة واقعة على النيل ، وتكاد تكون موازية للاسكندرية فى خط الطول ، وموقعها يقرب جدا من الموقع الذى جدده بطليموس لمدينة ميتليس ، وهذه المدينة ليست كثيرة السكان بنسبة اتساعها ، وقد كانت فى القرن الخامس عشر مركز التجارة بين الاسكندرية ، التى كانت تقدم اليها السفن الأوربية ، وبين القاهرة التى تنتهى اليها القوافل من داخل افريقيا ومن بلاد العرب ، ولكن لما أهملت صيانة الترع والقنوات ، التى كانت تجرى عليها البضائع بين فوة والاسكندرية فى عهد حكومة الترك الهدامة ، وجب على السفن القادمة من القاهرة ، أن تستمر فى النيل حتى رشيد ، لكى ترسل البضائع الى الاسكندرية بحرا ، ومن ثم فقدت فوة مميزات موقعها ، وانحدرت أهميتها ، بينما ازدادت أهمية رشيد ازديادا سريعا ونزح اليها القناصل الأوربيون الذين كانوا يسكنون فوة .

وعلى فرسخين من شمال فوة ، توجد بلدة مطوبس الكبيرة ، وهى واقعة على النهر ، وهى مشهورة بتحلل الأخلاق والأباحية الى غير حد . وهى مقر عدد كبير من « عالمات » الأفراح . وبالقرب من هذه البلدة ، يوجد أكوام من الأنقاض بالكوم الأحمر ، قد تكون بقايا مدينة قديمة ، وربما كانت بقية سور المليسيين ، الذى كان يجاوز بحيرة بوطوس .

وهذه البحيرة قريبة جدا من مطوبس ، وتشغل من الشرق الى الغرب أكثر من نصف قاعدة الدلتا ، وهى أقرب الى فرع رشيد منها الى فرع دمياط ، ويفصلها عن البحر لسان ضيق من الأرض ويصلها به فتحة واحدة ، وهى المصب القديم للفرع السبنيتى . وعلى ضفافها آثار أطلال مصرية ، معظمها ليس الا أنقاضا وقطعا من الحجارة . وأحد الأكوام الكبرى ، يسمى الكوم الكبير ، وهو واقع فى منتصف ساحل البحيرة الجنوبى تقريبا ، وفى شرقيه على بعد فرسخ ، كوم من الأنقاض الحمراء ، يقوم عليه عمود ، يرى من بعد كبير . وبين البحيرة والشاطىء الغربى لترعة الطبانية ، على خمسة أو ستة فراسخ من مصبها ، جملة أماكن بها أطلال وتلال صناعية ، تنبىء عن موقع مدن قديمة . وهناك ثلاثة أكوام من الأنقاض ، تسمى دمرو ونميرة وقالية ، تجتمع على ضفة الفرع السبنيتى . وعلى تل الحندحور ، الواقع على نحو خمسة فراسخ من ذلك المكان ، وفى الاتجاه الشمالى على ضفة البحيرة فى الشرق من مصب الترعة ، كانت توجد الى نحو أربع سنوات قبل وصولنا الى مصر ، ثلاثة أحجار ضخمة كانت تنتمى فى الأرجح الى أثر قديم ، وقد أزالها كاشف ، كان متوليا تلك الجهة ، وتل الحندحور قد يبلغ طوله ألف متر ، وعرضه مائتين من الأمتار ، وربما كان به موقع مدينة «ببشتامونيس» عاصمة المقاطعة السبنيتية السفلى

فان بطليموس يعين موقعها على شرق الجزء الأسفل من الفرع الترمونياني، مما يوافق موقع الحندحور بالنسبة الى سمنود وهى سبنيتوس القديمة ، وترعة الطبانية التي هى جزء من المجرى القديم للفرع الترموتياني .

أما بوطوس ، فقد كانت على الشاطىء الآخر ، كما يقول بطليموس ولذلك ، فطبقا لرواية هيرودوت ، يجب البحث عن مكانها فى جوار الترعة والبحيرة ، بين الأنقاض التى تحدثنا عنها آنفا ، اذ يقول هيرودوت « انها واقعة بالقرب من مصب الفرع السبنيتى ، وتقابلها عندما تصعد من البحر فى مصب هذا الفرع .. الخ وبالقرب منها بحيرة متسعة » .

وهذه المدينة من أهم مدن الدلتا ، فقد كان فيها معبد لالهة مصرية ، اعتبرها الاغريق هى نفس الالهة لاتونة . والكهانة والنبوءات التى كانت تصدر عنها كانت محترمة جدا ، وكانت تسير فى مصر مسير الحقائق الصادقة .

وهيرودوت ينقل الينا عن هذه المدينة ، تفصيلات وصفية ثمينة « فى بوطوس عدة معابد ، منها معبد أبولون ، ومعبد ديانا ، ومعبد لاتونة حيث تصدر النبوءات . ومن بين ما رأيت فى داخل السور المخصوص للالهة لاتونة ، كان أكثر ما أدهشنى معبد الالهة ، فقد كان مكونا من صخرة واحدة كبيرة . وهناك أيضا جزيرة خميس ، التى تضارع جمال المعبد ، وهى فى بحيرة عميقة واسعة ، بالقرب من معبد لاتونة . ويؤكد المصريون أن هذه الجزيرة عائمة ، ولكننى شخصيا لم أرها تعوم أو تتحرك ، وبها معبد كبير لأبولون يحتوى على ثلاثة مذابح ، وأرضها تنبت بلا زرع كمية من النخيل والأشجار الأخرى ، بعضها مثمر ، وبعضها عقيم ، ويقول المصريون ان السبب فى أنها تعوم ، هو أن لاتونة ، وهى من اقدم الآلهة ، كانت تقيم فى بوطوس حيث الآن كهانتها ، وقد أودعت ايزيس لدينا أبولون ، فأخفته فى هذه الجزيرة التى يسمونها الآن الجزيرة العائمة . والتى كانت فيما مضى ثابتة لا تتحرك ، فأنقذته عندما قام تيفون ببحوث عن ابن أوزيريس فى كل مكان ، لأنهم يقولون ان ابولون وديانا ، هما ولدا باخوس « أوزيريس » وأيزيس ، وأن لاتونة مرضعتهما ، وأبولون يسمى بالمصرية أوروس وسيريس تسمى ايزيس ، وديانا تسمى بوباسطيس » .

وبحيرة البرلس بها عدد كبير من الجزر بعضها مستنقعات ، ويجب البحث بينها عن جزيرة « خميس » وعن جزيرة « البو » اللتين كانتا شهيرتين فى عتيق الزمن ، واسم جزيرة خميس يرجح أنه مأخوذ من

« خم » أو « خمى » ، وهو اسم مصر باللغـــة المصرية القديمة ، وربما أطلق المصريون اســـم « جزيرة مصر » على الجزيرة التى كانت تحوى آلهتهم . أما جزيرة « البو » فانها شهيرة بانها قد أقام فيهـــا فرعون أعمى كان قد طرده ساباكوس «شاباق» ملك أثيوبيا فاختفى بها خمسين سنة ، حتى انجلى حـــكم الأجانب ، وكان المصريون يمدون هذا الملك الأعمى بالغذاء سرا كل بحسب قدرته ، وكانوا يحضرون له التراب لرفع مستوى المنطقة الاستنقاعية بالجزيرة .

والبحـــيرة والأراضى الغير المنزرعة ، المجـاورة لبحـــيرة البرلس ، وخصوصا الى الشمال والى الجنوب ، كانت تكون المقاطعـــة التى كان يسميها القدماء « البارشى » ، ومن هـــذه المستنقعات خرج ابسمتيك يطرد عن العرش زملاءه الأحـــد عشر الذين نفوه ، ومنها كافح أميرتى جيوش الفرس طويلا ، وكانت هذه الجهات اذ ذاك مزدحمة بالسكان وبالنشاط ، وهى الآن يسكنها صيادون ، أشجع وأكثر استقلالا من فلاحى الدلتا الداخلية .

الفصل الخامس

البرلس

فى العصر الأخير

يتحدث المرحوم على باشا مبارك فى « الخطط التوفيقية » من « برارى البرلس » ، فيقول : انها برية واسعة ، يبلغ زمامها نحو خمسمائة ألف فدان ، وبحيرة البرلس واقعة فى داخلها ، وكانت تلك البرية حتى سنة ١٢٦٠ هـ ، معدة لرعى الجاموس والبقر .

ويحددها بحدود أربعة :

الحد الغربى ناحية أبى بكار ، وعزبة عمر التى عوضت ناحية السعدة بعد انعدامها وناحية شباس الملح .

والحد البحرى ينتهى الى كوم أبى فصادة ، وجزيرة المحروقة ، وكوم الخبير ، وكوم الخنزيرى ، وناحية المعصرة .

والحد الشرقى ينتهى الى أطيان ناحية منية أبى غالب وكفورها وناحية بسنديلة .

والحد القبلى ينتهى الى معمور أطيان بلقاس ، وناحية المعصرة وكفر الجرايدة ، وبيلا ، والكفر الغربى ، وكفور زاوية سيدى غازى ، وكوم أسن ، وكوم شلمة ، وكوم تيرة ، وكوم العرب ، وكوم اسماعيل ، وكوم شباس الملح .

ثم يقول : وفى هذا الفضاء العظيم ، كانت تتجمع تصافى مياه البلاد المجاورة له فى الأيام السابقة ، فيتكون منها بحيرة عظيمة الامتداد طولا وعرضا ، تتخللها جزائر كثيرة العدد ، بعضها كبير ، وبعضها صغير وكان بتلك الجزائر حشائش ومراع بكثرة ، وبعد نزول المياه ونقصها ، كانت مياه تلك البرك تتناقص ، وينكشف جزء عظيم من جوانبها ، فتنبت به المراعى الحسنة الجمة ، فكانت الجواميس والبقر الأهلية ترتع فيه من جميع البلاد المجاورة ، وأما البقر والجاموس والجفال « المتوحش الذى ليس له مالك » فكانت تأوى وسط البرية البعيدة عن

طروق الناس لها . وكان الرعاة يقيمون فى البرية ، فى أخصاص من البوص والبردى ونحوه ، والمواشى سائبة فى البرية ليلا ونهارا ، وكل راع قد جعل لمواشيه اسما يعودها عليه ، يناديها به لحلبها ، فتأتى اليه فى تايته « محل اقامته » ، فاذا حضرت ، أرسل عليها أولادها ، وكان قد أمسكها عنده ، لتحن عليها فترضع منها ما يمكنها منه ، ثم يحلبها ، وفى كل تاية توجد قصع كبيرة ، تسع القصعة لبن نحو عشر جاموسات ، فيملؤها ، ويتركها مملوءة يومين بليلتين ، فيتربى على وجه اللبن ما يسمى بالقشدة فيكشطه ، ويجمعه فى قصعة أو برميل ويضرب باليد حتى يخرج زبده ، ويمتاز عن غيره ، فيجعل الزبد قوالب ويحفر فى الأرض السبخة ، حفرة مربعة الشكل ، مدلوكة الباطن دلكا شديدا ، فيجعل فيها اللبن المخرج زبدة ، ثم توضع الزبدة فتعوم فى وسطه ، ويكتسب الجميع من الأرض ملوحة تصلحه ، وتمنعه من التغير ، أما الجبن فيعمل من الرائب الذى أخذت القشدة من على وجهه . وطريقة عمله أن يضعوه فى قدور كبيرة من النحاس ، واسعة الأفواه ، ضيقة الأسافل ، ويوقدوا عليه النار حتى يجمد ، ويمصر منه ماء أصفر فينشل الجبن من هذا الماء الماصر ، ويوضع فى أوعية متخذة من نبات الأرض ، ويجمع الماء الماصر منه ، ويجعل فى حفائر كالأول ويوضع فيه الجبن فيكتسب من ملوحة الأرض ، وفى أوان عمله تحضر له تجار كل جمعة ، فيشترونه منهم ، وكان الرعاة لا يعرفون الأقة ولا الرطل ، بل يبيعون السمن بمعيار عندهم من أوانى الفخار ، ويبيعون الجبن بالشيلة ، وهى وزن حجر معروف عندهم ، يوجد فى كل تاية .

وأما البقر الجفال ، فكان كثيرا فى داخل البرية ، ولم ينقطع الا بعد سنة ستين ، وكان الرعاة يصطادونه بالرصاص ، وكانت تلد فى الهيش ، وتخفى ولدها فيه ، الى أن يكبر فيرعى مع أمه وفى وقت احتراق المياه العذبة وغلبة المياه الملحة على البرك والخلجان ، كانت تنحاز تلك المواشى الجفالة ، وتنضم الى أماكن تعرفها ، فى مائها عذوبة بحيث يمكن شربها ، فكان الرعاة يكمنون لها عند تلك المياه ، ويصطادونها كثيرا . وكانت هذه البرية منقسمة الى أنحاء متعددة ، كبرية بيلة ، وبرية بلقاس ، وبرية المعصرة ، وبرية كفور الزاوية ، ونحو ذلك فكانت كل قطعة منها تسمى باسم ماقاربها من القرى . وكانت المواشى التى تسرح فيها كثيرة جدا ، حتى قيل انه كان لرجل يسمى النشاوى من أهالى بيلة ، جملة تايات ، ولد له فى تاية منها ، فى سنة واحدة ، مائة بكرية ، وآخر يقال له أبو دومة ، من عرب البرلس ، كان له بقر لا يحصى عدده ولا يعرف ما يؤخذ منه لكثرته .

ثم يقول على باشا مبارك : « ... والآن بسبب كثرة الزراعة الصيفية فى أرض الروضة وغيرها امتنع دخول المياه فى هذه البرية ، فجفت أرضها ، وانقطعت منها الحشائش ، وكثير منها دخل الزمامات وأعطى منه أباعد للأعيان ، وها نحن الآن بمقتضى أمر كريم من الخديوى اسماعيل باشا ، شارعون فى عمل تصميم لاجراء عمليات فيها لاصلاحها وجلب الخصب لها ، بحيث يتأتى الانتفاع بها للزرع والمرعى »» .

ويقول أيضا : وبلاد البرلس الآن من مديرية الغربية ، ومن أشهرها قلبشو الواقعة بآخر الرمال ، منها الى البحر المالح نحو ثلاث ساعات ، وفى غربيها بنحو ساعة ، قرية أبى ماضى ، فى قبلى البرج الحصين ، المعروف بثمرة خمسة ، الذى على شط المالح بنحو ساعتين ، وفيها أبنية بالآجر ، وفى جنوبها كفر الستمونى بنحو ساعتين ، وشرقى العباسة بنحو ثلث ساعة ، وناحية العباسة فى وسط الرمال ، غربى الشهابية بقليل ، وشرقى بلطيم بنحو ساعتين . وبلطيم على شاطىء بحيرة البرلس ، غربى قبة الشيخ مبارك بنحو ساعة ، وفى بحريها ملاحة البرلس ، طولها خمسة آلاف متر ، ومتوسط عرضها ثلثمائة متر وفيها جامع بمنارة ، ومعمل فراريج ، ولها سوق جمعى ، ومنها كفر يوسف ، به ضريح الشيخ يوسف ومنها كفر الحصير ، بقرب أشتوم البرلس ، وفى قبليه بقليل قبة ولى ، يقال له الشيخ غانم .

وعلى شاطىء بحيرة البرلس ، جملة قباب لجماعة من الصالحين يقال لهم الشرفاء العامرية ، وحول تلك القباب ، كفور صغيرة ، تسمى عزب الشرفاء ، وفى كثير من هذه القرى أبنية بالآجر والمونة وفيها مساجد عامرة .

ولها نخيل كثير فى الرمال ، يتصل بعضه ببعض ، على أصناف مختلفة ، منه السمانى ، والحيانى ، وبنات عيش ، والكبيس ، ويزرع فى رمالها ، البطيخ المشهور بالبرلسى ، وفيها كروم العنب الأسود والأبيض تبلغ الحبة منه قدر بيضة الحمامة ، مز الطعم ، وكثير من أهلها يصطادون السمك من البحيرة والبحر ، ويعملون منه الفسيخ الكثير ، ويجلب الى مصر وغيرها ، ويكسب أهلها منه ، ومن البطيخ والعنب ، وثمر النخل .

وكانت هذه القرى سابقا فى التزام محمد بك طبوز آوغلى ، ، ثم ولده حسين بك ، وهى الآن تابعة لمديرية الغربية .

وجميع بلاد البرلس لا يصل اليها ماء النيل الا قليلا ، وأكثر شربهم من الحفائر ، وكذا سقى نخيلهم ونحوه ، ويزرعون على المطر ، فصدرت الأوامر الخديوية بعمل طريقة لتوصيل المياه اليهم .

وهناك بحيرة متسعة ، تسمى بحيرة البرلس ، والبرية الكبيرة الواسعة تنسب اليها ، مع أنها لجملة بلاد ، كما ذكر آنفا — ولها ملاحة تنسب اليها أيضا ، وهى من أعظم ملاحات مصر ، لجودة ملحها حتى أن أهل رشيد يفضلونه على الملح المستخرج من ملاحتهم ، ويستعملونه فى ضرب الأرز ، وهى واقعة فى الشمال الشرقى لبلطيم ، وهى عبارة عن بركة فى وسط الرمل ، أرض قاعها منخفضة عن سطح البحر بنصف متر ، تجف فى شهرى مسرى وتوت ، فيقطعون منها الملح بالفؤوس ، ويضعونه على أرض مرتفعة ، ثم ينقلونه فى قوارب صغيرة ، وينشر فى الجهات ، وقدر ما يتحصل منه فى السنة نحو خمسة آلاف أردب أو أكثر ، والأردب عندهم ثلاثون كيلة ، بالكيلة المصرية التى هى نصف ويبة ، وأجرة الأردب بين قطع ووسق ، من قرشين الى ثلاثة قروش .

ويظهر أن أهالى البرلس أو بعضهم ، عرب قريشيون ، فقد قال المقريزى أن فرقة من بنى عدى بن كعب ، رهط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، نزلوا بالبرلس ، ومقدمهم خلف ابن نصر وجده الأكبر هو عمر بن الخطاب ، وكانوا هم والكنانيون من ذوى الأثارة « أى معرفة قص الأثر وتبيانه ، والخبرة فيه » .

وفى كتاب المستطرف ، أن فى البرلس وقطبه ، أقواما يعرفون قيافة الأثر .

والقيافة على ضربين : قيافة الأثر ، وقيافة البشر .

فأما قيافة البشر ، فهى الاستدلال بصفات أعضاء الانسان ، وتخصص بقوم من العرب ، يقال لهم بنو مدلج ، يعرض على أحدهم مولود فى عشرين نفرا ، فيلحقه بأحدهم ، وحكى عن بعض أبناء التجار أنه كان فى بعض أسفاره راكبا على بعيره ، يقوده غلام أسود ، فمر بهذه القبيلة ، فنظر اليه واحد منهم ، وقال : ما أشبه الراكب بالقائد . فوقع فى نفس ابن التاجر من ذلك شىء ، ولما رجع الى أمه ذكر لها القضية ، فقالت : يا ولدى ان أباك كان شيخا كبيرا ذا مال ، وليس له ولد ، فخشيت أن يفوتنا ماله ، فمكنت هذا الغلام من نفسى ، فحملت بك ، ولولا أن هذا شىء ستعلمه غدا فى الدار الآخرة ، لما أعلمتك فى الدنيا .

وأما قيافة الأثر ، فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف ، وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل ، اذا عرب منهم عارب ، أو دخل عليهم سارق ، تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به ، ومن العجب ، أنهم يعرفون قدم الشـــاب من الشيخ والمرأة من الرجل ، والبكر من الثيب ، والغريب من المستوطن وقد اختلف رجـلان من القافلة « أى أصحاب قيافة الأثر » فى أمر بعيرة ، قال أحـــدهما هو جمل ، وقال الآخر هى ناقة ، وقصدا يتبعان الأثر ، حتى دخلا شعبا من الشعاب ، فاذا بعير واقف ووجداه خنثى ، وكان كلاهما مصيبا ..

نخلص من هذا الى أن البرلس كانت عبارة عن برارى ليست آهلة بالســكان ، وتنبت فيها الأعشاب فتـأوى اليها الأبقار والجواميس الوحشية ، يصيدها الناس ضربا بالرصاص ، أو عن طريق الاستئناس كما يأوى اليها الرعاة ، فيجدون فيها الـكلأ لمواشـيهم المستأنسة ومن ذلك كانت منتجات الألبان ، ذات قيمة كبيرة فى تلك البقاع .

أما أنها قد نسبت اليها بحيرة ، كبيرة كبحيرة البرلس ، فانها نسبة متأخرة ، وليست تسمية أصلية تضرب من عصور التـاريخ القديمة فان البحيرة فى بادىء امرها كانت تسمى بحيرة بوطو نسبة الى مدينة بوطو ، التى أفضنا فى الحديث عنها فى فصول سابقة ، ولما اندثرت تلك المدينة التاريخية، أو فقدتأهميتها. كان لابد أنتسمىالبحيرة باسم آخر. وقد تحدثنا فى كتابنا عن بحيرة ادكو فقلنا أن البحيرات فى مختلف العصـور كانت تنسب الى أهم مدينة تقع عليها ، كما أننا فى الفصل الســابق قد ضربنا المثل ببحيرة فى سويسرا يتنازعها اسمان ، اسم قديم ، واسم حديث ، فى عصر واحد .

ولذا فاننا نجد أن بحيرة البرلس ، قد كان لها أسماء مختلفة فى مختلف العهود . فنرى خليل الظاهرى يتحدث عن مدينة «نستروية» فيقول :

« ان المسافر من دميـــاط يأتى الى بحـــيرة الســـمناوية .. ثم مدينة فوة .. ثم قسم البرلس .. ثم نستروية .. ثم رشيد .. وفى تاريخ الاسكندرية ، نجد أن نستروية قد سميت نستراني ، وقيـل عنها أنها كانت تحت أسقفية فى زمن النصرانية . وكان فيها على ساحل البحر ، معبد فيه قبر الشهيد ثكل ، من تلامذة مارى مرقس ، وقـد بنى فيها عامل مصر يزيد بن عبد الله ، حسن نستروية لمـــا خاف من اغارات الروم ، وكانت مدينة حسنة على بحـــيرة نسبت اليها ، فقيل بحـــيرة نستروية ، وكانت قبل ذلك تسمى بحيرة البشمور . ووصف ابن حوقل

طريق الفسطاط الى الاسكندرية • فقال أنها تبتدىء من شطنوف الى سبيل العبيد ، الى منوف الى محل سرد ، الى سخا الى شبرى مياه ، الى مسيران ، الى سنهور ، الى البخوم ، الى نسترويه ، الى البرلس ، الى عجنة ، الى رشيد الى أن قال وكان يحيط بنسترويه مياه كثيرة يصاد منها السمك ، وعلى سمكها قبالة كبيرة للسلطان • بها قوم مياسير ، ويوصل اليها في المعديات اذا زاد الماء ، واذا نضب يتوصل اليها بالجسور • وفي زمن ابن الفداء كانت نسترويه قرية كبيرة ، وفي زمن المقريزي اضمحل حالها •

من ذلك نرى أن البحيرة كانت تسمى على التوالى بحيرة بوطو ، فبحيرة السمناوية ، فبحيرة البشمور ، فبحيرة نسترويه ، ولما اضمحل شأن مدينة نسترويه ، سميت البحيرة باسم البرارى المحيطة بها وهى برارى البرلس ، التى أخذت اسمها من راهب زاهد قديس كان معتكفا بها منعزلا في قيافيها ، وكان يدعى « بارالوس » •

ومدينة « نسترويه » هى الآن بقعة رملية تنحصر بين البحر والبحيرة، وتتوسط المسافة بين بوغاز بحيرة البرلس ومصب فرع رشيد ، وتسمى « مسطروه » •

أما ما رويناه فيما سلف من أن قرى البرلس كانت سابقا فى التزام محمد بك طبوز أوغلى ، فان محمد على كان يهب الكثير من الأراضى الواسعة والبرارى المستبعدة الى كبار المقربين اليه ، والى الذين يؤدون خدمات ممتازة له من الأهل والأصدقاء والضباط والجنود الأتراك ومن فى حكمهم ليحصن لنفسه الملك ويقوى حاشيته ويجعل له أنصارا فيمكنهم من المزيد من الثروة والغنى ، على زيادة الثروة المصرية القومية •

وللجبرتى فى تاريخه المسمى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » رواية طريفة فى هذا الصدد ، فيقول :

« ••• وفى ليلة الأحد الخامس من شهر رجب سنة ١٢٢٣ سافر محمد على باشا الى بحرى ، ونزل فى المراكب ، وأرسل قبل نزوله بأيام بتشهيل الاقامات والكلف على البلاد ، من كل صنف خمسة عشر وأخلوا له ولمن معه بيوت البنادر ، مثل المنصورة ودمياط ورشيد والمحلة والاسكندرية ، وفرض الفروض والمغارم على البلاد ، على حكم القراريط التى كانوا ابتدعوها فى العام الماضى ، على كل قيراط سبعة آلاف وسبعمائة نصف فضة ، وسماها كلفة الذخيرة ، وأمر بكتابة دفتر بذلك •

فكتب السيد الروزنامجى أن الخراب استولى على كثير من البلاد فلا يمكن تحصيل هذا الترتيب • فأرسل من المنصورة يأمر بتحرير العمار بدفتر مستقل ، والخراب بدفتر آخر ، فلما فعل الروزنامجى ذلك ، أدخل

فيها بلادا بها بعض الرمق ، لتتخلص من الفرصة ، وفيها ما هو لنفسه ، فلما وصلت اليه ، أمر بتوزيع ذلك الخراب على أولاده وأتباعه وأغراضه، وعدتها مائة وستون بلدة ، وأمر الروزنامجى بكتابة تقاسيطها بالأسماء التى عينها له ، فلم يمكن الروزنامجى أن يتلافى ذلك فظهرت خيانته ، ووزعت وارتفعت عن أصحابها .

« وكذلك حصل باقليم البحيرة لما عمها الخراب وتعطل خراجها وطلبوا الميرى من الملتزمين ، فتظلموا واعتذروا بعموم الخراب ، فرفعوها عنهم، وفرقها الباشا على أتباعه ، واستولوا عليها، وطلبوا الفلاحين الشاردة والمتسحبة من البلادالأخرى،وأمروهمبسكناها،وزادوا فى الطنبورنغمات، وهو أنهم صاروا يتتبعون أولاد البلد أرباب الصنائع » الذين لهم نسبة قديمة بالقرى ، وذلك باغراء أتباعهم وأعوانهم . فيكون الشخص منهم جالسا فى حانوته وصناعته ، فما يشعر الا والأعوان محيطون به ، يطلبونه الى مخدومهم فان امتنع أو تلكأ سحبوه بالقوة ، وأدخلوه الحبس وهو لا يعرف له ذنبا ، فيقول وما ذنبى ؟ ، فيقال له عليك مال الطين ، فيقول وأى شيء يكون الطين ؟ ، فيقولون له طين فلاحتك من مدة سنين لم تدفعه وقدره كذا وكذا ، فيقول لا أعرف ذلك ولا أعرف البلد ولا رأيتها فى عمرى لا أنا ولا أبى ولا جدى ، فيقال له ألست فلان الشبراوى أو المنياوى مثلا ؟ فيقول لهم هذه نسبة قديمة سرت الى من عمى أو خالى أو جدى ، فلا يقبل منه ، ويحبس ،ويضرب حتى يدفع ما ألزموه به ، أو يجد شافعا يصالح عليه . وقد وقع ذلك لكثير من التجار وصناع الحرير وغيرهم .

وفى رواية الجبرتى هذه كثير من الحقيقة ، فكان يكلف فلان المنياوى أو الشبراوى المقيم بالقاهرة بدفع عوائد أطيان عن أرض بالمنيا أو باحدى الشبريات ، لمجرد أن اسمه المنياوى أو الشبراوى ، فمن لم يصدقها فليغيرها « نكتة » تندر بها المصريون من قبيل الفكاهة والسخرية التى اشتهروا بها من أقدم العهود تنفيسا عما لاقوه من عنف وجبروت يرسم الخطوط الرئيسية لما رواه الجبرتى فى صورة مرة مؤلمة ، ويخاله تدخلا فى شئون الناس وحجرا على الحرية ، حتى لتبلغ المرارة والنفور أن يروى ، ظلما لا يكاد يصدقه الناس لفظاعته وشناعته فى نكتة بارعة تستدعى التفكير وتلهب الحماسة .

وقد أهدى محمد علىتلك الأراضى ووزعهاعلى أترابه الأتراكوأصحابه وتابعيه وحرم المصريين من أراضيهم وزراعاتهم وأثقل كاهلهم بفادح الضرائب وعمد الى تحصيلها بالسياط والزج فى السجون .

ويقال أن واحدا من زملائه الأتراك كان له ستة قصور فى أنحاء البرلس لينزل بها ويقيم ، عندما يمر على سائر جهات المنطقة .

وكان محمد على لا يؤمن جانبه فمن يهديه اليوم مالا ونفوذا أوجاها ينقلب عليه غدا ويسلبه ما أعطى ويزج به فى السجون .

واذا رجعنا الى وزارة الأوقاف لوجدنا كيف كان يفعل محمد على فانه يعطى من يشاء بغير حساب مساحات واسعة من الماء والأرض فيوقفونها على معاتيقهم وخدمهم وذريتهم ويحرم منها المصريون والفلاحون وهذه حدود الوقفية الخاصة بامتلاك بحيرة البرلس وما جاورها والحدود الواردة بحجة الوقف كالآتى :

١ ــ قطعة الأرض المعروفة بشورى وما معها من العيادين بحدود أربعة

القبلى ينتهى الى البحيرة المذكورة .

البحرى ينتهى للبحر المالح الأجاج وبعضه ينتهى الى بئر حسانين .

ومن الشرق ينتهى الى البحر الأجاج وجنوبا الى سكنى عطا ياسين والى البحيرة .

والى الغربى ينتهى الى بوغاز الأماسم .

٢ ــ البحيرة (أى بحيرة البرلس) محدودة بحدود أربعة :

القبلى ــ ينتهى الى الفقا والخاصة .

البحرى ــ ينتهى شرقا الى شاطىء تقيرة والأندهور .

الغربى ــ ينتهى الى حافة الأماسم المذكورة ، ثم ينتهى أيضا الى بوغاز الأماسم ، والبوغاز من داخل البحيرة المذكروة ، والبوغاز المرقوم ينتهى الى برزخ البحر المالح ، وينتهى الحد المذكور مغربا فى الحافة البحرية ، الى بحيرة سيدى يوسف راجح .

الشرق ــ ينتهى الى الخاشعة ، وتمامه ينتهى الى شاطىء نقيرة والأندهور ، والحد الغربى ينتهى الى القطعة بباب الخليج العذب ثم ينتهى مقبلا الى المربط والى كوم دميس .

ولابد لنا هنا من شرح لبعض أسماء المناطق التى وردت فى الوقفية .

فشورى اسم بلدة مجاورة لبلدة برج البرلس وتابعة لعموديتها .

وبلوش اسم بلدة مجاورة لبلدة الشيخ مبارك بالبرلس ولكنها تقع على الساحل البحرى للمنطقة أى على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكان بها مقر عمودية المنطقة كلها ، قبل أن تقسم الى عدة عموديات .

وبئر حسانين ، بئر عتيقة فى القدم ، ولا تزال الى الآن على مقربة من بلدة شورى من الجهة البحرية ، وهى معروفة للآن بهذا الاسم .

وسكن المرحوم عطا ياسين ، يقع ببلدة برج البـرلس حيث توجد عائلة ياسين ، وهى أسرة قديمة جدا ، ولها شهرة من زمن سحيق .

والعيادين ، عبارة عن المنطقة المحصورة بين بلطيم وبرج البـرلس ، وتحد جنوبا ببحيرة البرلس وشمالا بالرحية الواقعة جنوب ناحية الساحل القبلى والبحرى . ومنطقة العيادين ، منسوبة الى أسرة معروفة بالمنطقة وهى عائلة عياد .

وبوش ، بلدة موجودة بجوار ناحية برج البرلس .

وكوم النقيرة ، وتل الأندهور ، مكانان موجودان بالجهة الشرقية من الخاشعة ، وكانا على حافة مياه بحيرة البرلس ولكنهما أصبحا الآن وسط سباحات ، فى شرقى مصرف كتشنر المعروف بمصرف الكراكات .

والخليج العذب ، هو ترعة معدة لتغذية بحيرة البرلس بالمياه العذبة، تأخذ من فرع رشيد مقابل بلدة المعدية « معدية مهدى » ، ونهاية هذه الترعة أى مصبها ، جنوب بركة الشيخ يوسف راجح ، وهى تتصـل بكوم مشعل « حيث نقطة خفر السواحل » ومنها الى كوم دميس بالجهة الجنوبية . والترعة مازالت موجودة للآن ومستعملة .

والمربط ، بلدة موجودة فى جنوب بحيرة البرلس ، ومعروفة فى تلك المنطقة .

وأخيرا ، ففرفة سيدى يوسف راجح ، هى بركة مجـاورة لضريح الولى المذكور ، ومتصلة ببحيرة البرلس .



وقد كان بوغاز البرلس فى قديم عهده ، يقل عمقه عن خمسة أمتار، وكانت تسير فيه السفن الشراعية الكبيرة ، تحمل البضائع والركاب، بين موانى مصر وتركيا والشام ، وكانت مصدرا رخيا لأرزاق أهالى البرلس، فكان منهم مصدرون ومستوردون كما كان منهم أصـحاب هذه السفن الكبيرة وربابنتها وبحارتها ، وكان منهم أيضا النجارون الكبار من صناع السفن ، فما لبثت أن أصبحت قاعا صفصفا بسبب الالتزام والاقطـاع ورويدا رويدا أعطت فرصة ضئيلة للصيادين ، على أن يبيعوا أسماكهم فى حلقات معينة ، وتتقاضى الحكومة والحلقـات ضرائب وجعولا من محصول الصيد وهذه الطريقة كانت بدورها فيها غبن على الصياد ، ولما كانت تعطى الحلقات من فرصة لاستغلال الصياد ، وانتهاب محصولاته .

ومن غريب الأمور ، أنه لما رأت الحكومة التخفيف عن الصياد، وازالة الغبن عنه ، فقررت أن يكون الصيد برخصة سنوية ذات رسوم محددة

يدفعها الصياد ، ويكون بعد ذلك حرا فى التصرف فى صيده ، أساء الصيادون فهم هذه الخطوة الواسعة ، وظنوها فى غير صالحهم ،فقامت ثورة كبيرة من صيادى البرلس ، وكانت تنذر بشر كبير ، الى أن علموا ما فى الحالة الجديدةمن فوائد ، فهدأت النفوس ، واستقاموا على الطريقة .

ولقد كان برج البرلس ثغرا عظيما من ثغور مصر ، وقد عد ابن الكندى ثغور مصر ، فجعلها أربعة عشر رباطا ، وهى العريش ، وتنيس ، وشطا، ودمياط ، والبرلس ، ورشيد ، والاسكندرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ورباط أسوان على النوبة ... الخ ...

ولقد كانت ميناء حربيا كبيرا الى نحو عهد المغفور له عرابى باشا ، وكان هناك حصنان كبيران على جانبى البوغاز ، الى الشرق والى الغرب.

ثم طغى عليها البحر ، وأخذ ساحلها يتآكل شيئا فشيئا حتى أن بلدة برج البرلس الحالية — فى موقعها الحالى — لا يرجع عهدها فى مكانها لأبعد من سنة ١٩٠٤ ، اذ انتقل سكانها من الأمكنة التى طغى عليها البحر ، الى مقامهم الحالى .

ولازال البحر يأكل من أراضى البرلس كل سنة جزءا كبيرا ، الا أن الحكومة قد وضعت سدا من الحجارة الضخمة ، على ساحل بلدة برج البرلس لوقايتها من طغيان البحر ، وتوالى هذا السد كل سنة بالاصلاح والزيادة .

ولقد أكل البحر فيما أكل الحصنين العظيمين اللذين أشرنا اليهما، وكانت آثارهما مازالت ترى فى البحر حتى سنة ١٩٢٣ ، ويمكن رؤية آثار اطلالهما عن بعد ، اذا كان البحر هادئا .

الفصّل السّادسْ

بحيرة البرلس

ثانية بحيرات مصر مساحة واتساعا ، اذ تلى بحيرة المنزلة فى المسطح الذى تشغله ، فهى تبلغ ١٣٠ ألف فدان . مستطيلة الشكل يسير اتجاهها الطولى ، على محاذاة ساحل البحر الأبيض المتوسط وتتوسط الساحل الشمالى للدلتا .

وهى قليلة العمق ، فلا يزيد ارتفاع الماء فى أعمق اجزائها عن مترين ، وبها عدد كبير من الجزر الرملية القاحلة ، وقد يكون بها تلال رملية ، كجزيرة الكوم الأخضر ، وجزيرة الداخلة ، كما ان بها جزرا ، كجزيرة وحيش ، أرضها خليط من الطين والرمل والقواقع وبها أيضا جزر تحوى آثارا قديمة ، مثل جزيرة المحجرة ، وجزيرة سنجار .

وتحتوى الجزيرة فى ساحلها الجنوبى على كثير من الخلجان ، وتسمى الجونات ، مثل جونة باب الرزق ، والبحيرة فى مجموعها عرضة للتغيير تبعا لكمية المياه ، كثرة أو قلة .

وعندما تزداد مياه البحيرة فى الخريف والشتاء ، يخرج منها تيار الى البحر عن طريق فتحة بوغاز البرلس ، وكثيرا ما تسد الرمال هذه الفتحة ، فتمنع تسرب المياه نحو البحر، فيزداد منسوب المياه فى البحيرة، ويزداد اتساعها .

وهذا البوغاز مشكلة كبيرة من مشكلات بحيرة البرلس ، وقد أسلفنا الحديث عما كان من القاء الأحجار والصخور والزلط فى البوغاز ،رغبة من ملتزم ذلك الوقت فى استغلال التزامه ، لأقصى حد ممكن ، مماترتب عليه أن تراكمت الرمال على هذه السدود المميته ، فبات من أصعب الأمور ازالتها .

وبوغاز البرلس يغلق من تلقاء نفسه فى أوائل يونيو ، ويكون مجراه طريقا جافا ، يسير عليه الناس والدواب بل والسيارات ، الى أن يفتح من تلقاء ذاته أيضا فى ديسمبر . وأحيانا يظل مغلقا الى ما بعد انتهاء موسم تفريخ أسماك البورى والطوبار - وهو يكون عادة فى شهور

سبتمبر واكتوبر ونوفمبر – وفى ذلك ضرر عظيم على محصول البحيرة من هذه الأسماك ، لأنها فى موسم التفريخ ، تكون قلقة مما تحمل ، تبحث لنفسها عن مخرج من البحيرة الى البحر لألقاء حملها ، والعودة ثانية للبحيرة .

وفى سنة ١٩٢٣ بلغ تأثير سد البوغاز فى الصيد مبلغا خطيرا ، استوجب أن يطلب الى مصلحة الرى معالجة الحالة ، فاقترحت اذ ذاك عمل فتحة عند برمبال ، تصل النيل بالبحيرة ، وخصص مبلغ ١١ ألف جنيه ، للانفاق منه على حفر منفذ يبلغ طوله أربعة كيلو مترات ، ويمر فيه من الماء ثلاثة ملايين متر مكعب فى اليوم ، فى وقت الفيضان .

وقد تم عمل هذه الفتحة فى سنة ١٩٢٦ ، وعلى الأثر ظهر تحسن كبير فى محصول البحيرة ، اذ غذيت بالكميات الوفيرة من مياه النيل ، وساعد ذلك على زيادة المراعى الغذائية بالبحيرة ، وتجمع الكميات الوفيرة من صغار الأسماك وكبارها ، عند نقطة اتصالها بالبحر ، واعطاء الحرية للعدد الكافى من الاسماك ، التى تخرج عادة للبحر للتفريخ .

كل هذه العوامل ، زادت من أسماك البحيرة ، وأصبح الصيد فيها غزيرا موفورا ، مما دعا صيادى المناطق والبحيرات الأخرى الذين أصلهم من البرلس وتركوها لجدب بحيرتهم الى العودة بمراكبهم الى البرلس ، لتحسن الصيد وأحواله .

كما أن هناك مشروعا ، لعمل فتحة جديدة ، بين مصرف العموم (مصرف كتشنر) وبحيرة البرلس عند الخاشعة . وبناء بوابات ثابتة فيها ، والغرض من ذلك ، اجتذاب صغار البورى والطوبار الى هذا المجرى، ومنه الى البحيرة ، والسماح للمراكب بالمرور من البحيرة الى مصرف العموم والنيل وبذلك يسهل مرور المراكب من البحيرة الى البحر وبالعكس ، عندما يكون البوغاز مغلقا وسيكون من الضرورى ، عمل صحارة لترعة المياه العذبة المعروفة باسم « بحر طيرة » ، تحت الفتحة الجديدة ، توصلا الى نجاح اتمام المشروع .

ومن أكثر غزولات الشباك المستعملة فى البحيرة ، غزل الطاقم . ويستعمل عادة فى المياه التى يكون عمقها حوالى متر ، ويكثر وجود السمك الطوبار فى مثل هذا العمق ، مدة فصل الشتاء .

وهناك غزل آخر يسمى القفشة مكون من طبقة واحدة بارتفاع من خمسة الى سبعة أمتار ومساحته لا تزيد على ٢٦ عينا فى الذراع حسب قوانين المصايد ويستعمل لصيد أسماك اللفش واللوت والقاروص

والبورى والطوبار التى تأتى من البحر • ويتم تشغيل هذه الشباك من مجموعة من المراكب تسمى البطارية أو المعمل يتراوح عددها ما بين ١٠ – ١٥ مركبا بكل مركب فرقة تربط مع بعضها لتحوط مساحة كبيرة من المياه الخالية من الحشائش والنباتات المائية بدائرة محيطها حوالى ١٥٠٠ متر تقريبا •• ويثبت الغزل من وسطه بغريزة ثم تقفل الدائرة بعد دفع الأسماك الى داخلها بواسطة المراكب الأخرى ثم يسحب جناحا الغزل ويضمان أحدهما الى الآخر والسمك بداخلها •

ويستعمل نوع آخر من الغزل يعرف بالتشة ، وهو ذو ثلاث طبقات، ولكنه يقل فى الارتفاع عن غزل الطاقم ، ويستعمل السنار بدون طعم ، فى صيد سمك القرموط ، بالأجزاء الجنوبية من البحيرة ، كما يستعمل السنار بالطعم ، فى صيد القاروص والحناشة •

وعلى العموم فان أكثر الغزولات استعمالا ، هو غزل الطاقم ، والطريقة المتبعة فى توزيع أرباح مركب صيد درجة ثالثة تستعمل غزل الطاقم هى أن يحجز ثلث الأرباح للمركب وآلات للصيد ، وثلث لكل من الصيادين الذين يعملون فى المركب •

وكان صيادو بحيرة البرلس أقل حظا من غيرهم فى كيفية توزيع أسماكهم فى الأسواق ولكن الحكومة فى عهد الثورة عنيت باستغلال هذه البحيرة فأنشأت الطرق المؤدية اليها لتقل حاصلات الاقليم وخاصة ما ينتج من أسماك البحيرة • وكان الأهالى يقومون بتمليح معظم أسماكهم وخاصة البورى والطوبار لصعوبة نقلها طازجة فيما سبق ولذلك اشتهرت مدينة بلطيم بتمليح الفسيخ من هذه الأسماك •

وفضلا عن صيد البحيرة ، فان المناطق الشمالية للبرلس واقعة على البحر الأبيض المتوسط ، وبالتالى كان لبلدة برج البرلس أهمية كبرى فى صيد البحر بصفة خاصة ، وخصوصا فى شهور سبتمبر واكتوبر ونوفمبر، وهو موسم صيد السردين •

وتفد الى منطقة البرلس طيور تهاجر من جنوب أوربا شتاء ، هربا من شدة البرد ، ومنها البلبول ، واللقاط ، والشرشير ، والخضيرى ، فيصيدها الأهالى • ويكون لهم منها طعام طيب وربح جزيل • ومن الطيور المائية الأخرى التى يكثر صيدها فى هذه المناطق ، الغر ، والشطرف ، والبلاشون •

ويصاد السمان فى منطقة الكثبان الرملية الساحلية ، والمواجهة لساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهو يأتى من أوربا فى الفترة ما بين

سبتمبر ونوفمبر من كل سنة • ويعرف أهالى البرلس مواعيد وصوله ، فيقيمون على مقربة من الساحل أعمدة من البوص ، بطول الشاطىء • ويضعون عليها شباكا ، وفى أسفلها مخابىء ، لاقتناص السمان ، كما أشرنا الى ذلك فى كتبنا الأخرى عن البحيرات فى هذه السلسلة •

وعلى وجه العموم ، نجد أن أكثر اعتماد السكان ، على استغلال شواطىء البحر ، وموارد البحيرة فى صيد الأسماك ، والقليل هو الذى يتعيش من الزراعة أو الرعى أو صيد الطيور •

ويتوزع السكان فى منطقة البرلس توزيعا غير متناسب ، لأن مناطق الاستثمار الزراعى محصورة حول بلطيم ، باعتبارها المركز الرئيسى لمعظم الغلات ، وفى مناطق التلال ، شرقى بوغاز البرلس الى الفنار تقريبا ، حيث الكثبان العالية ، والمياه العذبة المتوافرة • ولذا نجد ان معظم سكان البرلس يعيشون فى اللسان الضيق بين البرج وبلطيم ، حيث توجد مناطق الزراعة والصيد ، ونجد ان القرى تمتد على طول ساحل بحيرة البرلس بين البرج وبلطيم وعلى طول السفوح الجنوبية للكثبان الرملية ، • تقام حول القرى عادة ، مصدات من البوص ، لتحميها من الرمال •

وأهم نباتات بحيرة البرلس : الحامول ، والبردى ، والحب وهذه تعيش الأسماك عليها ، وهناك نوع آخر يأكله الرعاة بعد شيه فى النار، وينمو فى الجزر والشواطىء الرملية ، ويسمى الابرانيت • أما فى منطقة الكثبان الرملية الساحلية ، فتنمو حشائش صغيرة ، ترعاها الماعز والابل وهى تزدهر فى فصل المطر فقط •

وفيما عدا ذلك ، يقوم الأهالى بزراعة الفواكه كالجوافة ، والتين والعنب والرمان ، والموز ، والخضروات كالطماطم ، والخيار ، والقثاء ، والبطيخ ، وبعض الحبوب كالقمح ، والشعير ، والأذرة ، وبها كثير من النخيل • ولكن كثيرا ما يتلف النبات اذا هبت الرياح محملة بالرمال ، فتغطى المزارع بل والمساكن •

وعلى العموم تشتهر منطقة البرلس بالأسماك ، وخصوصا الفسيخ الجيد المستحب ، والبطيخ البرلسى الشهير ، وبها منطقة ساحلية تسمى هناك « بر مجرى » ، تنتج أحلى الفواكه ، وفعلا تمتاز الفاكهة النامية فيها بحلاوة خاصة فائقة •

والصناعات المحلية فى البرلس ، أهمها صنع سفن الصيد ، وبها أيضا صناعات سعف النخيل ، مثل القفف والمقاطف وغيرها ، والحبال ،

والحصير ، والأقفاص ، ويصدر من هذا الاقليم الأسماك والسردين المملح والبطارخ ، والفواكه ، وخصوصا البطيخ ، والملح .

وبالبرلس مصيفان بديعان : مصيف فنار البرلس ، ومصيف الخاشعة، وكلا المصيفين ، له من أسباب الجمال والراحة والمتعة والرياضة ما يجعله فريدا فى نوعه ، يتجه اليه القوم الراغبون فى الاستجمام وانتجاع الصحة والهدوء ، فيجتمع لهم الشاطىء الرائق الجميل ، والرمال البيضاء النظيفة ، والجو الشاعرى الملهم ، مما يبعث النفس على الهدوء ،واسترداد العافية والقوة .

وكلا المصيفين له محبوه وراغبوه ، وتتسع دائرة المتعودين على انتجاعه كل صيف ، وكلاهما يتجه الى الأمام ، فى ثقة واطمئنان لاستعادة روح هذه المنطقة : منطقة التاريخ والمجد ، وحديث القدسية والالهام والوحى المنعش .

وعندما تتكامل وتتحسن سبل المواصلات المزمع انجازها ، سيجتمع الى مصيف البرلس فوق جمال الموقع وسحره ، سهولة الوصول ، والقرب من مناطق الحركة والنشاط وعندئذ يكون له ما يستحق من الشأن والعز ، اذ تتحرك هذه الآثار الكامنة التى لم تكشفها يد الانسان بعد ، وتضيف الى المتعة سحرا جديدا هو سحر الماضى الهامس الملىء بأطياف الذكريات ، وأحاديث القديم الخالد .

الفصل السابع

بقايا

البحر

على باب بحيرة البرلس

في الصباح الباكر ، وفي الضحى والظهيرة ، وقبيل الغروب ، على شاطىء بوغاز البرلس ، وفي المكان الضيق ، الذى يتصافح فيهماءالبحر مع ماء البحيرة ـ هذا المكان المحرم الصيد فيه ـ ترى فئة قليلة من الناس ، تعمل فيه ، بل تصطاد وتصطاد وحراس المصايد والساحل لا يقتربون منهم ، ولا يضيقون عليهم ، بل ان شئت قلت يرحبون بهم فى مخالفاتهم للقانون والتعليمات الحكومية جهارا نهارا لوجه الله ، وفى حمى القانون الانسانى ، والتعليمات العاطفية .

سوف يدفعك حب الاستطلاع الى مشاهدة هؤلاء الصيادين والوقوف على سر تمتعهم بهذا الامتياز ، وسر اقتصاره على هذه الطائفة الضئيلة دون سواها ، وستقترب لتتبصر أمر هؤلاء الأطياف السارية التى تتقدم وتتأخر ، وتصيب وتخيب ، وتصيد فى المنطقة الحرام ، دون وجل لا تهيب وعندئذ سوف ترى منظرا عجبا ، يمثل النفس الانسانية فى أسمىمراقبها والعاطفة الانسانية فى أرق معانيها .

سترى انقلابا فى تفكيرك ، فبعد أن كان يغمرك العجب العجاب ويتسرب الى نفسك الشك فى القائمين على حراسة الصيد ، اذ ترى أن هؤلاء المحظوظين الذين أبيح لهم ما حرم على الجميع ـ وهم فئة تعد على الأصابع لا يلجئون الى الليل فى خلسة ، بل يتخذون وضح النهار فى جرأة ، يساورك كل هذا ، فاذا ما اقتربت ، ونظرت ، وشاهدت ، تطلعت ببصرك الى الله حامدا ، شاكرا نعمته ، راضيا عن مساعدة هؤلاء الناس متمنيا لهم صبرا جميلا ، ورزقا حلالا .

هؤلاء قوم شبوا يعملون فى البحر يصيدون الأسماك فى كل وقت لا يخشون ظلمة الليل ولا برد الشتاء ، ولا يتوارون عن وهج الشمس ، ولا قيظ الصيف ، فى الشتاء يخلعون ملابسهم ، وفى الصيف لا يستترون الا بمقدار ، غالبوا الطبيعة ، وقاوموا الأقدار ، ولكن الانسان فى صحته جبار ، والزمن له بالمرصاد ، لا يقر له قرار .

ومضى الشباب ، وولت القوة ، وجاءت الشيخوخة ، وكانت تقلبات الحدثان تعمل فى بطء وهم لا يشعرون ، فاذا هم وعلى عيونهم غشاوة لا يبصرون لم يكونوا يحسبون للأيام حسابا ، ولا لدورتها وقوفا ، وظنوا أن الأمور جارية مجرى الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كل يجرى فى مستقر له ، فأمرهم لا يدعو للتفكير • مستسلمين لما هم فيه ، لا يأبهون للغد •

هؤلاء الصيادون الذين ألهاهم العمل المتواصل عن الادخار لمفاجأة الأقدار ، حتى غدوا عبرة لأنفسهم ، وما نفعهم أمل ، وتخلى عنهم العمل والأجل • هؤلاء الذين غالبوا البحر فى شدة أعاصيره ، وقاوموا الماء فى عنف تياره ، وجالدوا الطقس فى أقوى تقلباته ، أصبحوا ينعون أنفسهم وهم أحياء ضعفاء عاجزون ، فقدوا البصر ففقدوا النور والضوء ولجئوا الى اللمس والحس والاستنتاج ، وما كانوا من قبل يعملون •

عطف عليهم من عطف ، وواساهم من رأف ، فلما قدم العهد بهم وبما أصابهم ، وألف الناس حتى الأقربين رؤيتهم بعاهاتهم ، لم يعودوا يشعرون نحوهم بما كانوا يحسونه من قبل ، وهكذا رويدا رويدا تنكرت لهم الحياة تألموا • ومرحوا بالحياة وندموا ، وضاقت بهم السبل ، وكادت تخونهم شجاعتهم ، ولكن من كان شجاعا يخونه ما يجد من جبن فاذا ما خلى الى نفسه عاد شجاعا • فالشجاعة صفة لا تتخلى عن صاحبها ، وان تخلى عنها خلسة أو تحت تأثير وظروف •

فكر هؤلاء المنكوبون فى حالهم وحزموا أمرهم وأبوا أن يكونوا متسولين يشحذون ولم لا يكونون صيادين الى يوم يموتون ، فمهنتهم ذات صلة بالله وثيقة ، وهى هبة من عند الخلاق موصولة : رزق فى الغيب عودتهم عليه وعودوا أنفسهم على الصبر والجلد والانتظار • والرزق الموفور ، والترقب الذى يطول ، وهم لا يقنطون وبالأمل يعيشون ؟!

اجتمع كل ذلك فى نفوسهم عقب ما أصابهم اذ كان خبيئا فظهر ، أو مكبوتا فبدر ، فلم يلبثوا أن اشتد ساعدهم وتحسسوا قوتهم فاذا العزيمة تضاعف العزم ، والرجولة تقوى الحول والطول ، فتأبى نفوسهم وتقضى كرامتهم عليهم الا أن يزاولوا مهنتهم بالبصيرة دون الباصرة وبالغريزة دون الناظرة وبالحس والايمان واللمس والالهام •

فليباشروا المهنة اذن • ولكن كيف يركبون البحر ، وكيف يدخلون فى غمار زملائهم القادرين ؟ وهم ان اشتركوا مع آخرين ، فكأنهم عالة على المحسنين ، وهم فى هذا غير راغبين •

عمدوا الى الحكومة في حزم ، يطالبونها عن عقيدة مختمرة فى نفوسهم الثائرة ورءوسهم العامرة ، مؤمنين بأن البحر وقد أخذ ثأره ، فهم لا بد راكبوه ، ولن يتركوا مهنتهم ومهنة آباء لهم من قبل ، ففى الماء قضـــوا أيامهم وزهرة شبابهم ، وكهولتهم ، وبالماء وفى الماء ، فقدوا أعز ما يملكون وانتزع منهم أعز ما عليه يحرصون • وأصبحوا لا يبصرون • ولكنهم قد عرفوه وخبروه ، ولا حاجة لهم بالعين السليمة ، ما دامت قلوبهم عليمة ، يعرفون منه كل مكان ، ويعرفون فيه كل صيد ، وهم قد تمكنوا من البحر فخافهم ، وهم بعد منه لا يخافون •

لهذا ، وبما لهم من حقد الثأر على البحر والبحيرة ، تشبثوا بأنهم عاهدوا الله ، ووهبوا أنفسهم للصيد فلن يفارقوه حتى تفارقهم الحياة ، وأنهم قادرون على الصيد ، كأقوى مما لو كانوا مبصرين • ولـــكنهم يطـــالبون بحق العـــزلة والانفـراد ، وفى مكان تكثـــر فيـــــه الأسماك وهى بهم عارفة ، وهم بها عارفون ، فان أتتهم طائعة ، فهى صداقة قديمة ، والا فعداء مكنون أو ثأر بين قوتين ، انقلب فيها حال الموتور ، فخامره الأمل ، وساوره الفوز ، اذ يرى السمك غريمه الانسان أعمى ، وهو ببصره ، سابح ضارب فى البحر ، فيغشاه الغرور ، فيعود الصياد الأعمى سيرته الأولى ويرى السمك فى شباكه خدعة الوهم وخدعة العين ، وسبحان الله الذى لا ينسى خلقه ، ولله فى خلقه شئون •

نزل طلبهم من قلوب رجال مصلحة خفر الســواحل منزل التقـــدر وسرعان ما أجيب فى ترحيب ، وقد حرصـــــوا فى طلبهم أن يعينوا بل يخصصوا لأنفسهم مكانا مليئا بالصيد ، بل مدخل الأسماك من البحر الى البحيرة ، وهو منفذ لا بد أن تلجأ اليه الأسماك فى غريزة والهام • كما بينا فى هجرة الأسماك ، وسليقة التفريخ والنمو ، فى غير هذا المكان(١) •

وزادوا فى طلبهم أن يشاركهم فى هذا المكان كل من قضى الله عليه بالعمى والحرمان ، وألا يقترب منهم صياد أو انســان ، وأن يعفوا من رسوم الصيد وضرائبه ، ويظل هكذا من يرث العمى ، يرث الامتياز •

ومن الطريف أن الصيادين الأصحاء ، يرونهم يصيدون ، فلا يحقدون ، ولا يناوئونهم فى قليل أو كثير ، ولا يشكون من هذا الامتيـــاز ، بل أن الرحمة ألفت بين قلوبهم ، فما نازعوهم ، ولا افتاتوا عليهم ، بل تركوهم فى مأمن آمنين •

---

(١) كتاب صيد البحر للمؤلف أخرجته الدار القومية فى مارس سنة ١٩٦٥ •

اعتاد الصيادون المكفوفون هذا الموقع يصيدون به فى كل آن ،وكأن البحر أنساهم عاهاتهم ، وجعلهم بصيدهم فرحين. ولكن مهما كان أمرهم، فقد تغير حالهم فنراهم منتشرين فى دائرة ضيقة ، يلقون شباكهم فى حركات فيها حرص ، وفيها استمساك ، وفيها جمود ، وفى وقفة تقترن بحركة فى الوجه ، ودورة لليمين وأخرى الى اليسار . وأيد تكاد تحس الهواء . وتخشى أن تلمس شبحا أو شيئا من الأشياء .

وفى جمع الشباك والقائها ، بطء المتريث ، وحرص المتئد ، تلفت النظر ، وتدعو الى التقدير ، وتبعث الاشفاق . وتثير الضحك فى بعض الأحايين ، حركات من عميان تقاربوا فتشابكت شباكهم أو تشابكوا ، وخلت من صيدها أو تخلت ، وقبعت عند حجر أو تردت . عندئذ ترى من سرعة التفكير . وبديهة التدبير ، ما لا يفعله البصير ، وهنا يصح القول المأثور : شر المصائب ما يضحك ..

هذه الروح وثابة قوامة ، فيها فتوة الشيوخ ، وعزيمة الرجال ، وحكمة الأبطال . ما لنا لا نؤمن بأن المستحيل مستحيل ، وان الانسان من فعل الرحمن ، لو أحسن استطاع ومن أجدر بالتقدير من أمثال هؤلاء الرجال الشجعان !

هذه البقعة من البحيرة والبحر ، التى جمعت بين الماء الملح والعذب ، واستعذبتها الأسماك ، فاجتذبت اليها مختلف الأنواع ، أصبحت هذه البقعة الغنية ، المحرمة بتعليمات وقوانين . كطريق مسلوك حر للأسماك، تقصده ان شاءت دون تعرض لخطر ، أو استهداف لوتر ، أصبحت هذه البقعة مستباحة لهؤلاء الناس ، وهم بعد ليس منهم خطر كبير أو صغير ولا ضرر خطير .

وهكذا نرى منظرا من مناظر الرحمة والقوة ، والهمة والثورة الحرة ، والعزة والنخوة ، من قوم دأبوا يعملون ، فما فارقهم العمل ، ولا تعللوا بالعلل .

أليس هذا فضلا يذكر لأهل البرلس . ومثلا يضرب ، وقدوة تحتذى ؟

وما أحوجنا الى مثل يضربه أعمى البرلس ، أو صيادها العنيد العتيد . وما أكرمهم رجالا .

ومن أحسن منهم عملا وأقوى صبرا وأشد ايمانا ؟

الفهرس

صفحة

صفحة

الدار القومية للطباعة والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

العدد ١٩٨
الثمن ٣١
١٩٦٧/١/٨

فى مقابر آبائه فى ساحة هيكل مينرفا ، حيث دفن جميع الملوك الذين كانت « صا » موطنهم ومنشأهم .

ويقال أن مصر لم تر من السعادة والفلاح مثل ما رأته فى عهد أحمس الثانى اذ انتظمت خصوبة الأرض والعناية بها ، فكثرت غلاتها وزاد ريعها ، واستتب الأمن والنظام ، حتى كان فى البلاد لعهده عشرون الف مدينة غاصة بالسكان .

وأحمس الثانى هو أول من استن قانون « من أين لك هذا ؟.. » فكان على كل مصرى أن يقدم للوالى بيانا بممتلكاته وكيفية حصوله عليها ، وأن يبين وسائل تعيشه وكسبه ، ومن لم يكن عمله موافقا للقوانين أو للآداب ، أو عجز عن البرهنة على أنه يتعيش من أسباب شريفة ، كان عقابه الموت . وقد اقتبس صولون الاغريقى هذه الشريعة، ونقلها الى اليونان . وهذا يذكرنا بما فعله عمر بن الخطاب ، اذ استن قانونا مماثلا ، مازال موضع العجب والاعجاب .

وقد بنى أحمس فى « صا » رواقا لهيكل الالهة مينرفا ، فجاء بناء عجيبا فاق كل ما صنعه سابقوه ، فى الارتفاع والمساحة ، ونوع الحجارة التى استعملت فيه وضخامتها ، ووضع فيه تماثيل عظيمة ، ومن جملتها التمثال الذى سماه اليونانيون « أندروسفنكس » ، (أبو الهول) صورة للطبيعة اللغزية واللاهوت المصرى ، ولاقامة هذه المنشآت جلب أحجارا هائلة الحجم ، استخرج قسما منها من المحاجر القريبةمن منف ولكن أكثرها أتى بها من مدينة البنتين « أسوان » ، وهى تبعد عن صا عشرين يوما فى الماء .

وكان من ضمن الأحجار ، التى استجلبها من أسوان ، حجر هائل الحجم لدرجة مروعة ، اشتغل بنقله الفا رجل من أصحاب السفن ثلاث سنوات ، حتى نقلوه ، طوله ٢١ ذراعا وعرضه ١٤ وعلوه ثمانية اذرع ، وهذا الحجر وضع فى مدخل الهيكل المقدس ، ولم ينقل الى داخله لأنه بينما كان العمال يجربونه وكان البناء قد تعب وضجر من هذا العمل المرهق ، فتنهد تنهدا عميقا ، وحسب أحمس أن هذا طالع شؤم ، فأمر بابقاء الحجر حيث كان اذ ذاك ، وفى رواية أخرى أن واحدا من العمال الذين كانوا يساعدون فى نقله بالعتلات ، هرس تحت الحجر ، ولذلك لم يدخلوه المكان المقدس .

والملك أحمس الثانى ، منشؤه من مدينة سيوف ، فى ولاية صا بالقرب من بحيرة البرلس ، وكان واسع الحيلة ، شديد الدهاء والفطنة يأخذ أموره وأمور الناس بالحكمة والتعقل ، فيفوز بما لم يفز به صاحب العنف والشدة .